سبائك الحرير

أحمد الفرا

إبحار

للنشر والتوزيع

فريق متميزون

E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

<u>انضم الى الجروب</u>

<u>انضم الى القناة</u>

سبائك الحرير

رواية..

أحمد الفرا

إهداء

إلى كل المقهورات

إلى صاحبات الحقوق الضائعة

إلى المدافعين عن النساء.

إلى التي تحملت، شطحاتي، وانفعالاتي.

إلى التي تحملت كل شيء من أجلنا.

إلى أبي البعيد القريب.

إلى خالتي الجميلة.

إلى الذين ساندوني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أتفق مع ما قاله الناس في حقي..

"أنني امرأة تحمل أقوى السموم في عروقها".

- متقلقيش، هرجع بسرعة.

قالت بابتسامة رقيقة عذبة، غمزت لأمها، وتابعت نزول السلالم.

كانت نسمات الهواء تداعب شعرها بلطف، والدرج مفتوحًا على السماء المزدانة بالنجوم المتلألئة، وضوء القمر المنعكس مثل شمعة أضاءت الظلام، وصلت إلى مدخل العمارة، كان أخوها يقف في الخارج برفقة أصدقائه أسفل مصباح خافت الإضاءة، مُعلَّقٌ فوق مدخل البناية.

كانت تسير وسط شارع ترابي، على جانبيه أعمدة إنارة باهتة الإضاءة، كما لو كانت قناديل أوشك زيتها على النفاد – مطمئنة - تعلم إلى أين تقودها قدماها، لا حفر ولا أحجار تعيق سيرها، التفتت إلى ساحة اعتادت أن تلعب فيها الحجلة مع صديقاتها، توقفت للحظات تستعيد تلك الذكرى الجميلة، وارتسمت على محياها ابتسامة رقيقة.

سمعت صدى نباح الكلاب يتردد في الأرجاء، لوهلة شعرت بخوفٍ واضطراب، ولكن خوفها سرعان ما تبدد عندما مر بجوارها رجلٌ عجوز، طلب منها السلام على والدها، فهزت رأسها وابتسمت بلطفٍ وارتباك، ثم تابعت سيرها.

اختفى ضوء القمر بسبب سحابة صيف عابرة، لمحت طابورًا من الكلاب الضالة تقطع الطريق وتقفز على بعد خطوات منها، فزعت.. واصلت السير بخطواتٍ متسارعة وأنفاس متلاحقة، التفتت خلفها في توجس، نظرت إلى بيتها الذي أخذ يتلاشى ويتقلص حجمه كلما ابتعدت عنه، حتى تحول إلى نقطة بيضاء باهتة وسط الظلام.

انقبض قلبها وضاق صدرها وبدأ الخوف يطوقها بذراعه، وأخذت تتلفت بنظراتٍ حائرة؛ شعرت أن أحدهم يراقبها، أسرعت في سيرها، لكن الرمل لم يساعدها.. أحست بقدميها تغوصان في الرمال.. قاومت..

رفعت عباءتها بيدها اليسرى وأخذت تركض، وزاد غرقها في الرمال، سمعت وقع عدة أقدام من خلفها، بطرف عينها نظرت خلفها ولكنها لم ترَ أحدًا، كادت أن تصل إلى الدكانة التي شرعت في إغلاق أبوابها، سمعت أنفاسًا قوية وراءها، ضمت يدها على صدرها. شعرت بيدٍ تلمس كتفها، التفتت.. فوجدت رجلًا يدفعها بقوة، سقطت مرعوبة، حاولت النهوض بصعوبة، ولكن دفعها آخر فوجئتْ به يقف فوق رأسها، فزعت.. أخذت تحبو، حاولت الصراخ، ولكن صوتها لم يبلغ حنجرتها، حاولت النهوض، جثم أحدٌ على ظهرها، وامتدت يدٌ تكتم فمها، وأخرى تشد شعرها وتجذبه إلى الخلف، سمعت أنفاسه السريعة، واشتمت رائحته القذرة، حدقت بعينيها في الظلام.. سالت دمعة حزينة، قرفص أحدهم أمامها، ومد يده يتحسس وجهها، وهمس لها في أُذنها بأنفاسٍ بغيضة: "إذا صَوَتِّي هتتعذبي".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الجزء الأول

1

رغم اقتراب الشمس من الغروب، واقتراب النجوم من التألق وسط السماء، إلا أنه لم يترك المطرقة من يديه على غرار مساعده "يحيى" الذي كان يترك العمل ما أن تنفذ طاقته، كان دائمًا يتساءل من أين وكيف يكتسب "صالح" كل هذه الطاقة؟ لم يكن يعلم أن "صالح" بعد أن توفت زوجته تغيرت حياته تمامًا، وأن سعادته تحولت إلى طاقة سلبية يفرغها في الطرق المتواصل على الحديد، رغم أن وفاتها اقتربت من العشرين عامًا، إلا أنها تركت جرحًا غائرًا في قلبه لن يندمل وأثرت عليه بالسلب.

لم يعد يجالس أصدقاءه القدامى، ولم تعد زيارته لأقربائه تحمل أي قيمة، لم يعد للحياة أي معنى.. توفت زوجته وتركت له ابنته "مهجة"، كان صالح يتعب جسده حتى لا يترك الفرصة لعقله بأن يفكر في أي ذكرى قديمة تؤثر على حياته ذات الإيقاع البطيء الممل، كان راضيًا بها ومقتنعًا، ولذلك يبذل جهدًا للتغيير من طريقة عيشه، رفض كل عروض الزواج التي عُرضت عليه من حماته "فريدة" ومن أقربائه. اعتاد قبل أن يغلق الورشة التي ورثها عن والده أن يقوم بتنظيفها وتنظيم أدواته وإذا وجد "يحيى" كان يساعده في غلق الورشة وإطفاء الأنوار، وما أن شرع في إغلاق الأبواب حتى سمع أحدهم يلهث خلفه، التفت فوجد "سيد" خادم الست "فريدة" يحاول التقاط أنفاسه واضعًا يده على صدره، سعل عدة مرات متواصلة وقذف كتلة مخاطية بنية اللون أصابت صالح بالغثيان، وطلب منه الابتعاد عنه ناعتًا إياه بـ(المقرف).

ابتعد عنه "سيد" بضع خطوات وصالح يغلق باب ورشته محاولًا قدر الإمكان ضبط أعصابه عندما قذف الخادم كتلة أخرى وكان سبب تلك الكُتل رؤوس الشيشة التي لا يتوانى عن حرقها مهدرًا صحته في سبيل أدخنة لا قيمة لها، التفت إليه صالح مراقبًا أنفاسه المتسارعة الغير منتظمة وصدره يعلو ويهبط محاولًا تعويض نقص الأكسجين في رئتيه، قال صالح وقد نفد صبره:

- هستنى كتير؟

لوح بيده الخادم وقال بصوتٍ متقطع:

- الست فريدة.. عوزاك في الحال.

خلع قبعته البنية عن رأسه وحك جبهته العريضة بظهر يده وسأله في نفاد صبر:

- رجعت لها الوساوس تاني؟

كان الخادم قد اعتدل ونظم أنفاسه ورد:

- إنت عارف يا سي صالح، طول ما في زوار في وساوس، أنا مش عارف هي ليه...

قاطعه صالح قائلًا في حدة:

- قول لها هغير وهعدي عليها.

أكمل طريقه إلى بيته منكسًا الرأس شارد الفكر منقبض القلب، كان وجهه عابسًا كأنه فقد عزيز، كتفيه مرخيتين ومنحني الظهر قليلًا، لم ينتبه لمن مر بجواره، كل ما أراده تلك اللحظة أن يستلقي على السرير ويريح جسده المتعب الموشك على السقوط، عند مدخل العمارة، وُجد المقهى الذي احتل المدخل، وللوهلة الأولى تشعر أن مدخل العمارة يمر من بين طاولات الزبائن، كم فكر في تبديل مكان سكناه لما يسببه له المقهى من إزعاج، لمح يحيى يجلس مع أحدهم، حَيَّاه وأكمل طريقه صعودًا إلى شقته، كان يصعد بصعوبة، لم تعد رجلاه تقدران على حمله بسبب الإرهاق الشديد الذي تتعرض له من وقفة طوال النهار، فتح باب شقته وانبعثت منها رائحة الطعام الشهية الذي تعده مهجة، أغلق الباب خلفه في هدوء ونزع حذائه وتوجه إلى غرفة نومه قاطعًا الصالون مرورًا بغرفة مهجة على اليسار ومن ثم غرفته في نهاية الممر، دلف إلى غرفته وأغلق الباب خلفه بقوة، خرجت مهجة من المطبخ على صوت ارتطام باب غرفة والدها، أصابتها الحيرة لعدم زيارة والدها لها في المطبخ، كانت ترتدي جلابية بيضاء قطنية عندما توقفت وسط الصالون مندهشة من تصرف والدها الغريب، مدت يدها وفكت المشبك المغروز في شعرها البني المربوط على شكل كعكة في مؤخرة رأسها وتركته ينسدل على كتفيها بتموجاته، خرجت بوجنتين حمراوين بسبب الحرارة المنبعثة من جدران المطبخ وكذلك من الموقد، فركت عينيها الخضراوين الواسعتين اللتين تشعان ذكاءً ونشاط بسبب حرقة أصابتها من البصل، عينيها ذواتا أهدابٍ طويلة مقوسة، مسحت عن حاجبين طويلين جميلين قطرات العرق المتجمعة براحة يديها، وفركت أنفها الطويل من أثر الرائحة العالقة به، ومسحت بطرف لسانها على شفتيها المتوردتين الجذابتين بقايا طعام، كانت تتمتع بجسدٍ ممشوق يشبه إلى حدٍ بعيد جسد والدتها حتى أنها امتلكت جمال والدتها على حد وصف جدتها فريدة، رن هاتف البيت، توجهت مسرعة ورفعت السماعة في تأفف، لم يكن والدها يطيق سماع رنين الهاتف، على الطرف الآخر كانت الخادمة تطلب منها حضور والدها على وجه السرعة، حاولت تهدئتها ولكن دون جدوى.

أغلقت السماعة في توجسٍ وشك، أحست بوجود أمرًا ما في بيت جدتها، كانت لهجة الخادمة ممزوجة بشيءٍ من القلق والخوف، ولكن من يجرؤ على قرع باب غرفة والدها؟

تسلل لأذنيها تنهدات وتأوهات قادمتين من غرفة والدها، لم تندهش، فأحيانًا ما تصيبه تلك النوبات من البكاء العنيف التي تمزق نياط القلب لمن يشاهده، ولكن ما أثار حفيظتها ذاك الرجل الذي زار والدها في منتصف الليل قبل ثلاث ليالٍ، استيقظت متصنعة تلك الليلة أنها تريد قضاء حاجتها عندما سمعت طرق على الباب، أطلت من خلف باب غرفتها فوجدت باب الشقة مواربًا ووالدها يقف خارجًا يهمس لأحدهم.. تسللت في حذرٍ مقتربة من والدها لتسترق السمع، ولكن والدها باغتها وأغلق باب الشقة خلفه وطلب منها العودة لغرفتها، لاحظت أن وجه والدها كأنه ازداد سوادًا وعبوسًا وتعرقًا، حتى أنها شعرت بنبرة والدها المرتبكة.

عادت ولم يعاودها النوم، ظلت مستيقظة، تريد أن تعلم من ذاك الرجل الذي تحدث له والدها، وبعد لحظات خرج والدها مرتديًا ملابسه وغادر في عجلة وتوتر، فتحت النافذة ونظرت إلى الشارع، لامست وجنتيها نسمات هواءٍ رطبة، كان الشارع شبه مظلم عدا من بعض المناطق التي أنيرت بفعل تسلل الضوء من نوافذ البيوت، ولكن أمام عمارتها كانت إنارة القهوة تعمل بكامل طاقتها فامتد النور ليغطي مدخل العمارة، بعد هنيهة خرج والدها وأمامه رجل ممتلئ الجسد وعندما ابتعدا عن مدخل

العمارة استطاعت أن تميز قصر قامته مقارنة بطول والدها الفارع، خَيل لها بأن والدها سيلتفت ليراها تطل من النافذة، أغلقتها وهي تتساءل وتتعجب من تلك الزيارة المفاجئة.

في تلك الليلة اقتربت من الباب في تريث وخفه، تستمتع بالتلصص ومعرفة حال الآخرين ويخيل إليها بأنها تقوم بمهمةٍ ما لمعرفة ما يفعله الآخرون، اقتربت من الباب، وألصقت أذنها به، التقطت أذنها ذبذبات الصوت القادمة من الداخل، كانت الذبذبات تحمل تنهيدات والدها القوية الثقيلة، حاولت استجماع طاقتها لتطرق على الباب ولكن دون جدوى، كلما حاولت رفع يديها المرتعشة ينبهها عقلها لعواقب ما هي مقدمة عليه، فتهبط يدها من جديد، فجأة انقطع صوت التنهيدات وعلمت أنها في ورطة لا تملك الوقت للانسحاب، فتح والدها الباب ووجدها متجمدة كتمثالٍ من الشمع فاغرة الفاه محدقة في وجهه كالبلهاء، دفعها من كتفها وطلب منها إعداد الطعام فلديه عملٌ شاق في الصباح، تراجعت للخلف وأخبرته بفحوى الاتصال ولكنه لم يهتم وأغلق الباب خلفه مبتسمًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان منزل الست فريدة ينتظر قدوم صالح ليهدئ من روعها، فقد كانت تطمئن وتسعد لوجوده في البيت، وألحت عليه أن يسكن في بيتها الواسع ذا الطابقين، ولكنه رفض طلبها معللًا أنه لا يستريح إلا في شقته، بعد وفاة زوجها "الحاج غنام" كانت تراودها كوابيس بأن أحدهم ممسكًا بسكينٍ ويركض خلفها يريد أن يسلبها روحها، ظلت تلك الكوابيس حاضرة في ذهنها حتى غدت وساوس تتجدد كلما رأت أحدهم ممسكًا بسكين. وشاءت الأقدار أن يكون زوار هذه الليلة ما هم إلا ثلاث نسوة وطفل رضيع، يرتدين ملابس مرقعة وتفوح منهن رائحة نتنة، ينتظرهن في الخارج رجلان، يغطيان نصف وجهيهما بوشاحٍ أسود، يرتديان أسمالًا بالية، لم يستطع الخادم قراءة ملامحهن، وقد انصرفن بعدما تناولن مبلغ. صعدت مسرعة إلى غرفتها وهي تتلفت خلفها كلما قطعت مسافة معينة، كادت تصاب بالجنون عندما علمت أن صالح لن يحضر، أوصدت باب غرفتها رعبًا مما شاهدته متدليًا من بين أسمال إحدى السيدات، أصابها شعورٌ غريب لم تشعر به من قبل، كما لو كان أحدهم ينخز قلبها بطرف إبرة، أخذت تذرع غرفتها الواسعة ذات الشرفة المطلة على الحديقة ذهابًا وإيابًا كاللبؤة الحبيسة الجائعة، تشعر أنها قابلت هؤلاء الزائرات من قبل، تحاول استخراج صورهن من ذاكرتها، اعتصرت عقلها وحاولت تقليب صفحات ذكرياتها، دون جدوى، لم تصل إلى إجابة تخفف من ارتباكها، توقفت الخادمة على باب غرفتها مترددة في طرق الباب، أرخت أذنها وسمعت همهمات قادمة من الداخل وصوت شبشبها وهو يحتك بأرضية الغرفة، وضعت الخادمة يدها على صدرها في فزع وتساءلت: هل تجننت الست؟ استجمعت قوتها وطرقت، بعد لحظاتٍ جاء صوت الست قاطعًا حادًا: مين؟

- أجابت سيدة في تردد: أنا "سيدة" يا ستي.

فزعت ما أن رأت الست تقف أمامها بعينين جاحظتين تقدحان شرارًا ووجهها شاحبًا وباغتتها بسؤال:

- شوفتي عليهم أي حاجة غريبة يا سيدة؟!

حدقت الخادمة إلى الأرض للحظات، تحاول تذكر أي شيء غريب فيهم، ثم قالت:

- لا يا ستي، مشفتش أي حاجة!

قالت الست فريدة بتوجس:

- أظن إني شفتهم قبل كده، بس فين مش عارفه!

رفعت الخادمة كتفيها استغرابًا، تابعت الست فريدة حديثها وهي تفرك يديها في حيرةٍ وقلق:

- بس أنا شوفت سكينة بين هدومهم، سكينة كبيرة يا سيدة.

أجابت الخادمة بصوتٍ منخفض مطمئن تحاول أن تزيح تلك الشكوك من رأس سيدتها:

- لا يا ستي، وحياة مقام سيدي الحسين ما شفت حاجة، مش يمكن حضرتك تعبانة من قلة النوم وبيتهيئلك؟

وسكتت سيدة.

أجابت الست فريدة باقتضابٍ وحِدَّة:

- من قلة النوم؟ وبيتهيئلي؟! مع السلامة إنتِ!

أغلقت الباب في وجهها بقوة، توقفت للحظات تحاول استيعاب اضطراب الست المجنونة من وجهة نظرها، تركت الست فريدة مع أفكارها ووسوستها الشيطانية التي لا تهدأ، كانت الخادمة سيدة سمينة الجسم، دائمًا مبتسمة، لطيفة ومهذبة وذات خلق، دائمًا تلهث بسبب نشاطها وجهدها، تجيد ادخار المال، عكس زوجها "سيد" المسرف، هبطت الدرجات ببطء، فالجنين يستنزف طاقتها، وتوجهت إلى المطبخ، وجدت زوجها سيد يجلس حول المائدة، يأكل بنهم.

تحدثت إلى زوجها عما دار بينها وبين الست من حوار، ثم سألته:

- معقول تكون الست بتبالغ في ردة فعلها؟ ولا عندها فراغ عاطفي؟ أصلك مشفتش ازاي قفلت الباب في وشي؟!

- مش عارف، سبينا منها دلوقتِ، بلا سدة نفس.

- طيب، اطفح يا اخويا، ده اللي انت فالح فيه، تأكل وبس، يا ريتك بتشبع... صمتت للحظات ثم أردفت قائلة: يا راجل دي بتتهمني إني شوفت سكينة وبخبي عليها، وإذا في سكينة أنا مالي؟ اش ذنبي، كلكم بتطلعوا قرفكم عليا، عيشة تقرف.

رد الزوج وفتافيت الطعام تتناثر من فمه:

- أنا هنا عشان أريحك يا سيدة.. وغمزها بعينه مبتسمًا.

ضربته بالمعلقة على ظهر يده التي امتدت لتتحسس أطراف أصابعها ورمقته بنظره كلها غضب.

- حضري الشيشة يا سيدة، رأسي هيتفرتك، وصمت للحظات ثم تابع: صحيح، بكرة مين هيشرفنا؟

- يوه، صاحبتها عضوة مجلس شعب، ويمكن الوزيرة.

تجشأ بقوة، وسألها:

- مش عارف ليه... مصمص أطراف أصابعه وتابع بصوتٍ يكاد يكون مكتومًا بسبب الطعام المحشور في زوره: حاسس إنك هتولدي قريب.

- أولد وقت ما ربنا يعوز، خليك في أكلك يا أهطل، وسحبت المقعد بطرف أصابعها ونهضت في صعوبة وقالت في قرف: سديت نفسي.

كعادته استيقظ الخادم استعدادًا للصلاة، أيقظ زوجته وطلب منها الذهاب لإيقاظ الست، نهضت متثاقلة، غسلت وجهها وتوجهت لإضاءة النجفة الكبيرة المعلقة وسط البهو، توقفت على بداية درج داخلي يصعد إلى الدور الثاني، أخذت تصعد في تكاسلٍ وبطء، بعد صعودها عدة درجات نظرت خلفها ورمقته بنظرة يعلم تبعاتها، على الفور تبعها وأخذ يدفعها من ظهرها بتروٍّ ولطف، وبين الفينة والفينة كانت تتوقف لتلتقط أنفاسها.

نزعت يده الملتصقة عن مؤخرتها، انعطفت يسارًا وتوجهت إلى الغرفة، طرقت الباب عدة مرات، لم يصدر صوت، فتحت الباب، صرخت بعلو صوتها: يا سيد! فجاء ركضًا، وامتقع وجهه عندما رأى المشهد، كانت الست فريدة ملقاة على بطنها، وقد فارقت الحياة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في حوالي التاسعة صباحًا، وصل المحقق "ماهر" إلى موقع الجريمة..

مر من أسفل شجرة الياسمين التي غُرست بجوار مدخل البيت، والتي امتدت حتى غطت مدخل البيت تقريبًا وتسلقت على إحدى زوايا المنزل لتصل إلى سور السطح على حبلٍ سميك أشبه بحبال السفن، على يمينه وُجدت جنينة مغروزة بالورود وأرجوحة ثابتة في الهواء، شاخصة إلى المنزل البائس، والطاولة التي كانت تجلس عليها الست فريدة قابعة فوق الأعشاب، وكان واضحًا أن الأشجار لم تتلقَ عناية تليق بمكانتها التي احتلتها في تلك الجنينة، صعد ثلاث درجات ليجد نفسه أمام بهوٍ يقود إلى الدرج الداخلي، أحس ماهر بوحشة وكأن الجدران تشع كآبة وحزن، على يمينه كان هناك طقم كنب من الواضح أنه جديد ونادرًا ما يُستخدم، وفي الزاوية وُضعت أباجورة مكسوة بالشيفون الأبيض، وعلى يساره مائدة طعام كبيرة، تجمع حولها عشرة مقاعد من الجلد وفوقها وُضعت مزهرية تحتوي على أوراق لورودٍ جافة، ونجفة من الكريستال تدلت من السقف فوق المزهرية.

صعد الدرج الداخلي للمنزل على مهل، ونظر من أعلى إلى أرجاء البيت، رغم الضوء الشحيح المخيم على المكان الذي منعته الستائر القطيفة من التسلل وأعاق الرؤية إلا أن البيت يتلقى اهتمام وعناية فائقتين جعلاه نظيفًا وأنيقًا، توقف أمام باب الغرفة، وأدار عينيه في أرجائها، كانت الفوضى تعم المكان كما لو كانت من بقايا حرب، ورائحة الدم المتجلط الأسود ملأت فضاء الغرفة والأرضية مغطاة ببقع من الدماء المتجلط. جثا على ركبته اليمنى وبدأ يتفحص الجثة.. كانت على بطنها، وجهها أبيض كقطعة ثلج، عيناها حمراوان داميتان، أنفها تجمع حوله الدم المتجلط الأسود، شحمة أذنها اليسرى مقطوعة، وثوبها الأبيض الشفاف يظهر مكان الطعنات بوضوح.. تحسسها من كتفها، وجد

أن حرارة جسدها تكاد تقترب من حرارة الغرفة، نهض وحدق إلى السرير، لاحظ انتشار بقع الدم، وأثار شعرها المنتوف على وسادة بيضاء، وقطعة قماش متكورة ملقاة بجوار الوسادة، رجح أنها وضعت في فمها لكتم صراخها، ألقى نظرة سريعة خاطفة من الشرفة، كان أمامه الفناء الخلفي ممتد لنحو خمسة أمتار مكسوًا بالعشب وينتهي بسورٍ مرتفع، لم يجد على الجدار أي آثار وخلف السور بيت قديم مهجور، نظر إلى أسفل قدمه لمح قطعة خشب ملقاه على أرضية الشرفة.. استدار وحدق إلى الدولاب، كانت الأرفف الداخلية مهشمة، والملابس مبعثرة أمام ضلفتي الدولاب، اقترب وجثا على ركبته، لمح آثار ثقوب على الجدار بين الثقب والثقب حوالي سبعين سنتيمتر، كأن أحدهم انتزع صندوقًا كان مثبتًا داخل الدولاب، هز رأسه ونهض.

أمر ماهر مساعده المعاون "محمد":

- بلغ أفراد البحث الجنائي برفع البصمات، وكل ما يمت للجريمة بصلة في الغرفة، عاوز تقرير الطب الشرعي بأسرع وقت ممكن.

وغادر المكان متوجهًا إلى قسم الشرطة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وصل الخبر إلى مسامع صالح وابنته مهجة، أصابهما من الحزن والكدر الكثير، لم تسعفه محاولات تهدئة مهجة، لم تستوعب مقتلها في بادئ الأمر، ظلت للحظات تحدق في الفراغ، مصدومة.. وكم تمنت أن تصرخ ليسمعها الجميع وهي تقول إن والدها يتحمل جزء من المسؤولية ولو كان بسيطًا، لو وافق على الانتقال بجوارها لما حدث ما حدث اليوم، ولكن نظراتها الشرسة الحادة التي أصابت والدها في مقتل كانت كفيلة بأن يفهمها ويطأطئ رأسه آسفًا على ما حدث، كانت بجوارها "سوزان" صديقتها تهدئ من روعها وتخفف من ألمها وهمها وقهرها، كانت سوزان تجيد التعامل في مثل هذه الأمور، كما أنها مرت بتجارب أشد قسوة، عاشت وفاة والديها وأخيها، فكان لهذا أثرًا واضحًا على تجاوز المحنة بأقل الأحزان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

كان ماهر في الثلاثين عام، له عينان ثاقبتان، دائمتا الحركة، وكان أصدقاؤه في الدفعة يلقبونه بـ"ستالين" نظرًا إلى قوة الشبه بينه وبين "جوزيف ستالين"، حتى في شاربه الكثيف بني اللون، كان يعتز بلقبه، ولم يمانع يومًا من مناداته بستالين، لم يعجبه يومًا التحكم الزائد في حياته من قبل والده، أراد الانطلاق والعيش بحرية وأن يجرب حياته الجديدة بعد التخرج، ولكن والده قرر أن يزوجه، وعندما يقرر لا يناقشه أحد في قراره.

كان والده، رجل الأعمال المشهور الذي يملك شركات الحديد والصلب، يصعب التعامل معه، لم يكن يحب أن تُكسَر كلمته، أبناؤه مجرد دمى في يديه، يحركهم كيفما تتطلب مصلحته الشخصية، رجال الأعمال يهابونه ويُجبرون على التعامل معه في بعض الأوقات، لم يرث ثروته من والده، إنما اجتهد وكافح حتى يصل إلى هذه الثروة والمكانة.

اليوم الثاني من وقوع الجريمة وفي تمام الساعة السابعة صباحًا توجه إلى عمله، كان الجو معتدلًا وأشعة الشمس اخترقت الفضاء لتنعكس على سطح النهر، استقل سيارته الشاهين السوداء، عدل مرآته وحدق فيها يتفحص وجهه المربع النحيف، تحسس عظام وجهه وذقنه الحليقة الناعمة، كشف عن أسنانه، لاحظ بدء انتشار بقع صفراء عليها، تناول المفتاح وبطرفه أخذ يحك أسنانه لعله يزيل أي من البقع، ولكنه لم يستطع، حاول بتردد فقع حبة نبتت على طرف أنفه المدبب ولكنه سرعان ما تركها في حالها متجنبًا وجعها.

فتح الراديو على النشرة الإخبارية الصباحية، زعقت بمقتل العشرات في انفجارات ببغداد من بينها هجوم على مكتب (الصليب الأحمر)، وهجوم على (مقر الأمم المتحدة) وقتل اثنين وعشرين شخصًا من بينهم مبعوث الأمم المتحدة، واعتقال "علي حسن المجيد" ابن عم "صدام حسين" والمعروف باسم "علي الكيماوي"، ومقتل مائة وخمسة وعشرين شخصًا في انفجار سيارة ملغومة بالنجف، من بينهم الزعيم الشيعي "آية الله محمد باقر الحكيم".

أغلق الراديو في تأفف، ركن السيارة أسفل شجرة تحاول الحفاظ على أوراقها المتساقطة في استحياء، توجه إلى مكتبه قاطعًا الطريق بخطواتٍ ثابتة كلها ثقة، ضرب العسكري قدمه بقوة على الأرض، تعظيم سلام.. صعد درجة تلو الأخرى، وكل من مر أمامه كان يقف ليحييه، صافح بعض من قابلهم ببرود، فتح له العسكري الباب وحَيَّاه، دخل إلى مكتبه الذي فاحت منه رائحة هواءٍ راكدٍ فاسد، خلع سترته البنية، سار بضع خطوات حتى وصل إلى مكتبه، أسند ظهره وأخذ يتأمل المكان من حوله كما لو كان يدخله لأول مرة، جال ببصره في غرفته كأنه شعر بوجود شيءٍ غير مألوف، سجادة الصلاة، على حالتها على ظهر الأريكة، وكذلك مروحة عتيقة صدئة تدلت من السقف، وعلى مكتبه عدد من الملفات تحمل أرقام لقضايا بعضها مُنتهي وبعضها حُفظ وبعضها جاري التحقيق فيها، قطعة خشبية نُقِش عليها اسمه، وخزانة خشبية بها عدد من الملفات.

بعد دقائق حضر أمي ن الشرطة "محمد"، محمد الشاب ذو الخامسة والعشرين، شعره الأسود اختلط به الشيب، ملامح وجهه النحيلة أقرب إلى سكان شرق آسيا ولكن مع بشرة قمحية، نحيفٌ وفارع

الطول وقوي العصب، نادرًا ما تجد ثيابه غير مرتبة، طرق الباب ودخل، هادئًا بارد الأعصاب.

طلب منه إحضار الخادم لأخذ إفادته..

قرأ ماهر عناوين الجرائد التي شنت هجومًا عنيفًا على الخادم والخادمة، وإن لم يُحقق تقدم في مجريات القضية ربما سيتسبب في اعدام اثنين يُشك في ارتكابهما الجريمة.. أشعل سيجارة ومج منها أنفاس متواصلة، دائما ما تصيبه حالة من الاضطراب النفسي أثناء التحقيق، حالة من عدم الاستقرار.. يضع نفسه محل من أصابتهم المصيبة ويأخذ الأمور على عاتقه الشخصي كأنه ملزم بالدفاع عن كل شخص في المجتمع، وكل هذا انعكس بالسلب على حياته الخاصة.

دخل محمد ممسكًا بالخادم وفك قيده، وقف الخادم أمام ماهر.. أخذ ماهر يتفحصه، كأنما يحاول فك شفرة حالته النفسية.. كانت عينا الخادم حائرتين، قلقتين، خائفتين، جفناه يرمشان بسرعة، شفتاه زرقاوين جافتين، أنفاسه متسارعة، مرر عينيه على أصابع يده، كانت ترتجف بشكلٍ ملحوظ، ضرب "حسام" بيده على الطاولة في غضب ونهض محدقًا بعينيه الحادتين، رفع الخادم يده إلى وجهه رعبًا.. وتراجع إلى الخلف بضع خطوات، ازداد وجهه شحوبًا، وبلع ريقه مرارًا وتكرارًا، شعر ماهر بمدى ضعفه وجبنه، كان مضطربًا اضطرابًا شديدًا، لا يريد العودة إلى السجن مرة أخرى، يخاف من المسجونين، كان يظن أن عقله يعج بالأفكار بسبب تشوش باله، ولكن عقله لم يكن يعمل كالعادة، كان في ثباتٍ عميق، مُخَدَر.. ولكن حالة الاضطراب النفسي الشديدة التي انتابته هي التي هيأت له هذه الحالة، لم يقدر على تركيز عينيه إلى محمد ولا إلى ماهر، كان بين الحين والآخر يسترق النظر إليهما كطفلٍ مذنب.

جلس ماهر وكان محمد جالسًا بجواره استعدادا للكتابة، فتح ماهر المحضر ودوَّن محمد تاريخ اليوم، السادس من أكتوبر، ورقم القضية (٣٣٧٠- ج)، الساعة الثامنة والنصف، أسند ماهر ظهره إلى الكرسي وحدق إلى الخادم.. وبعدما أخذ منه بياناته كاملة، سأله:

- في إفادتك قلت إنك سمعت أصوات جاية من برة، وبعدها طلبت من سيدة مراتك تروح وتطمن على الست! ليه إنت مرحتش تشوف الأصوات دي؟

صمت للحظات محاولًا استجماع طاقته للإجابة، ثم أجاب:

- مفكرتش يا بيه، وقلت لنفسي يمكن يكون قطط أو كلاب، أصل المكان عندنا مليان قطط وكلاب، وكان كل همي إني أطمن على الست وأصحيها لصلاة الفجر، أصلها بعد المرحوم زوجها كانت يعني أحيانا تفوت في الصلاة، وحضرتك عارف يا بيه إن الستات لما يكبروا بينسوا ويكسلوا.

- الصوت بتسمعه دايمًا؟

- لا يا بيه، يعني أحيانا بنسمعه، وممكن يكون عفاريت أصل العمارة اللي ورانا مهجورة من زمان.

- إنت كنت خايف تشوف المكان يا سيد؟

طأطأ رأسه في خجل.. أخذ ماهر يقلب في الأوراق، رفع حاجبيه اندهاشًا عندما قرأ أن سيد قال إن الست أصابتها الوساوس في الآونة الأخيرة، ألقى الورق من يديه وأشعل سيجارة وسأله:

- إيه حكاية الوساوس اللي...

- قاطعه سيد مندفعًا وقبل أن يجيب ضرب ماهر على المكتب بيده في قوةٍ وغضب وقال صارخًا:

- إياك تقاطعني مرة تانية؟ فاهم يا سيد؟

- هز رأسه سيد موافقًا وتمتم: آسف يا بيه.

بعد لحظات من التوتر والتشوش اللذان سكنا سيد طلب، منه ماهر إكمال كلامه وقال متحشرجًا:

- كانت فريدة أقصد الست فريدة الله يرحمها تشوف كوابيس، طبعا أنا معرفش حاجة عن الكلام ده بس سيدة هي اللي قالت لي، كوابيس يا بيه، وفي الكوابيس كانت تشوف واحد يجري وراها عاوز يموتها، حتى صالح جوز بنتها كان يعرف قصة الكوابيس، وطلبت منه أكثر من مرة إنه يسكن عندها بس رفض يا بيه، رفض.. والست طلبت منه يزورها، بس أكيد هو زهق من كتر ما زارها وهداها، حمله تقيل الأستاذ صالح..

يلعق شفتيه ويضيف بصوتٍ جاف: وكانت كل ما يزورها حد تفضل طول الليل متوسوسة وخايفة، والله يا بيه الست كانت آخر فترة يعني... تقريبًا... تقدر تقول إنها اتجننت، حضرتك كنا عايشين في رعب.

- مين زار الست آخر مرة؟

- ستات يا بيه، ستات على باب الله، يخرب بيتهم معرفش بينطوا منين، ممكن تسأل سيدة عنهم.

أطفأ ماهر السيجارة قبل أن تبلغ منتصفها، وزم شفتيه وعقد حاجبيه وحدق في عيني سيد.. ابتسم سيد بسذاجة كأنه يقول:

- أنا براءة؟

- سأله ماهر:

- كان في حد مع الستات وقت الزيارة؟

- آه، طبعًا، أنا كنت معاهم يا بيه، عند المدخل تحت الياسمينة، حتى إنه في واحد منهم قطف زهرة ياسمين وشمها وفركها في إيده وبعدين...

- أشكالهم إيه؟

- يا بيه كانوا مغطين وجوههم، بس كانوا سمر على ما أعتقد.

- والله وعرفناهم يا سيد، قال سمر قال، قولي يا سيد، كان في حد على عداوة مع الست أو مع أي حد من أهلها؟

- أبدًا يا بيه، دي كانت زي العسل يعني كده زي النحلة كله نفسه في خيرها يا بيه.

- مين كان يتردد عليها؟

- صالح جوز بنتها، ومهجة حفيدتها.

- ومين كمان يا سيد؟

- أه، مرات وزير وواحدة تانية مرات عضو برلمان، وأنا وسيدة وبس.

- يا سلام، مرات وزير وتانية مرات عضو برلمان؟

- أيوه يا بيه، الست فريدة كان ليها أصحاب ومعارف من كل مكان، الله يرحمها، يا بيه لو ممكن سؤال يا بيه؟

أومأ برأسه ماهر.

- همشي امتى يا بيه؟

يخفض عينيه ويقول هامسًا متوسلًا: أنا محتاج أكل يا بيه، وبعدين أنا بكره السجن يا بيه.

كاد أن ينفجر ضاحكًا وقال:

- معلش يا سيد، السجن للرجالة، صح ولا لأ؟

- أنا...

- خده يا عسكري وهات سيدة.

ينظر إلى ماهر غير مصدق أنه يُساق إلى السجن وقال بصوتٍ حزين وهو يمد يده راجيًا ماهر أن يتراجع عن قراره:

- يا بيه والله أنا بريء، يا بيه، أبوس إيدك، أنا بريء.

طلب ماهر من محمد إرسال مذكرة إحضار لصالح في الحال، وأشعل سيجارته وأخذ منها أنفاسًا متلاحقة متسارعة، انقبض صدره عندما قفزت أمامه الست فريدة وهي مستلقية على الأرض وجسدها غائص في بحيرة من الدماء، قادته تلك الذكرى الطازجة إلى حوار مع أحد أصدقائه الذين يعملون في مجال حقوق الإنسان عن بشاعة الإنسان وقسوته.. مسح بيده على شاربه بينما أخذ عقله يتحدث ويتساءل: "أي حيوان يمكنه أن يرتكب جريمة بتلك البشاعة؟ إن الحيوان لا يقتل بدافع السرقة، الحيوان يقتل ليحصل على الطعام، ولكن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يملك القدرة على التفنن في اختراع أساليب للتعذيب والتشويه".

دخلت الخادمة بعباءتها السوداء التي تلطخت بالتراب، اتخذ فمها وضعية فم السمكة التي تلتقط طعامها وتحاول بقدر استطاعتها ادخال أكبر كمية ممكنه من الهواء إلى صدرها، وعلى جبينها تجمعت كريات من العرق الأشبه بحبات الندى وكانت بين الفينة والأخرى تمسح ما تجمع من العرق بكف يديها، وبطنها يسبقها بنصف خطوة، كانت ثقيلة ومرهقة وخطواتها تتمايل، طلب منها الجلوس.

ساد الصمت للحظات، كان أنينها يخترق الصمت بين الفينة والأخرى، ويدها ملتصقة بخصرها وتعض على شفتيها بقوة.

سألها ماهر:

- فاضل قد إيه على ولادتك؟

نظرت إليه بعينين سكنهما التعب والإرهاق، وقالت بنبرةٍ حزينة:

- في أي وقت يا بيه، ممكن كوباية ميه؟

ناولها الكأس التي أمامه، وانتظرها حتى أن أفرغتها على دفعةٍ واحدة، تنهد ماهر وسألها:

- إنتِ كنتِ مع ستك لما زاروها الستات؟

أغمضت عينيها للحظات، سمع ماهر أنفاسها المتسارعة، فتحت عينيها وأجابته باقتضاب:

- طبعًا، طبعًا.

أنين متقطع ويشتد كلما مر الوقت..

- أشكالهم إيه؟

- عضت على شفتيها وشهقت شهقة صغيرة وقالت:

- ستات يا بيه، ستات...

حدقت إليه بقوة وخوف، وشعرت وكأن أحدهم يضربها أسفل ظهرها بالسوط، صرخت بقوة، نهضت، انحنت إلى المكتب، كتمت أنفاسها، حدق إليها محمد ووجه كلامه إلى ماهر وقال:

- هتولد يا بيه.

خرجت برفقة العسكري، تنهد ماهر بغضب، مرت من أمامه طيف زوجته "منى" الحامل، تخيَّلها تصرخ كما صرخت الخادمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان يحيى ذا الخامسة والعشرين يجلس مرهقًا شارد الذهن أمام الورشة، يتعلل بأنه يريد إراحة جسده من كثرة الطرق، ولكنه في حقيقة الأمر يفكر في تلك الحسناء التي مرت من أمامه قبل قليل، والتي سلبت عقله كلما مرت من أمام الورشة كان يصاب بالدوار كمن أصابته ضربة شمس، كلما هم للتحدث إليها تراجع خوفًا من رفضها له، لذلك كان يلجأ للخيال لعله يشفي صدره ويريح قلبه، قبل أن تبدأ جلسة الخيال المعتادة قاطعه لهاث العسكري، وسلمه البلاغ بضرورة الحضور فورًا، بلع ريقه ووجل قلبه، سارت رعشة في جفنيه جعلتهما يتحركان بسرعة كأنه مصاب بالتهاب، وقرأها الحضور فورًا، وعندما قرأ الاسم تنهد في ارتياح ونهض وسلمه لصالح الذي كان مشغولًا في الطرق

على الحديد، ما أن رأى العسكري يقف أمامه حتى قفزت نظرات ابنته مهجة المليئة بالغضب، قرأ ما جاء فيها، وسار خلف العسكري.

اشتعلت داخله نار لم يكن يعلم كيف يطفئها، هل يبوح بما يعلم وبما رأى؟ أم يترك الأمور تأخذ مجراها؟ هل يسكت! ولكن هل يقدر على حمل هذا الثقل؟ وإلى متى سيظل يحتفظ به؟ لا بُد وأن يأتي يومًا ويكُشف، طرق رأسه ذاك الوسواس الذي أتاه يوم موت "حياة" – زوجته - كان قويًا على غير العادة، قال له: "فكر في نفسك، في بنتك، خليك ساكت، خلص نفسك، بلاش تتاحة، خليك أناني ولو لمرة وحدة في حياتك، إنت ملكش دعوة باللي حصل، إنت كنت مجبور".

التفت إليه العسكري عندما همس: "أيوه، أجبروني.. بس دي كده أنانية، في حد هيموت بسببي" عاد الوسواس ينبح: "خلاص، روح وقولهم يا صالح، محدش هيلومك لما يعرف السبب، بس محدش هيحمي بنتك من الغيلان اللي حوليها، هينهشوها، متنساش إنه مفيش حد يقف جنبها، أمها ماتت، وأبوها في السجن، فكر في نفسك يا حمار، خليك أناني، مش مهم اللي ياخد مكانك، وياما في السجن مظاليم".

وسط هذا العراك، وأثناء سيره بجوار العسكري انقبضت يديه لما لمح عين أحد الذكور وهو يتفحص ابنته مهجة وهي عائدة إلى البيت بصحبة سوزان، كانت نظرات مؤذية وعدائية، قرر أن يخفي ما بداخله وأن يدفن السر معه إلى أن يشاء الله.

توقف صالح أمام المكتب وبجواره العسكري، كان صدره الكبير يخفي في داخله قلب مضطرب منقبض، وأحس بأن أحدهم قد قبض على معدته بيدٍ من حديد. كانت لحظات الانتظار التي قضاها واقفًا على الباب من أطول لحظات حياته. هزه صوت ماهر عندما أتى من الداخل، كأن أحدهم يلقي عليه خبر الموت.. فتح العسكري الباب ودخل أمامه وتبعه صالح في تردد، ظل هناك للحظات واقفًا يفكر في كيفية التعامل مع الموقف.. هل يجلس؟ هل يمد يده ليصافح ماهر؟ هل يخلع قميصه الذي أحس أنه يزيد من درجة حرارته؟ حاول بكل طاقته أن يخفي قلقه.

نهض ماهر وصافحه بقوة، لمس خشونة يده وقوتها وكانت يد ماهر كيد طفل في يد صالح، طلب منه الجلوس، حدق إليه للحظات، رأى وجهه المستدير الممتلئ وعبوس وجهه الشديد الذي فسره على حزنه الشديد على مقتل حماته، نظر إلى عينيه الواسعتين الحمراوين الهادئتين، وأنفه الطويل الأشبه بأنف "جمال عبد الناصر"، وشفتيه الغليظتين الجافتين، ورقبته الأشبه برقبة ثور.

- كنت فين ليلة قتل الست فريدة؟

لم يكن هناك ريقٌ ليبلعه، فقد جف حلقه، وتحول إلى قطعة حطب:

أجابه بصوتٍ متقطع متوتر:

- كنت في البيت مع بنتي مهجة.

- امتى زرت الست آخر مرة؟

رفع نظره صوب المحقق وأجاب:

- قبل أسبوع تقريبًا.

أشعل ماهر سيجارة وسأله:

- في الفترة الأخيرة لاحظت أي تصرفات غريبة من الخدم؟

بدأ في استعادة هدوءه وسكونه وأجاب:

- يعني لو تسمح لي بسؤال؟

أومأ ماهر برأسه وسأله صالح: تصرفات زي إيه يا فندم؟

- مثلًا في حد غريب بيتردد عليهم أو لما كنت تزور الست، ازاي كانت تصرفاتهم؟ قلقين؟ متوترين؟

- والله يا فندم ملاحظتش أي حاجة غريبة.

- طيب يا صالح، في اعتقادك مين ممكن يكون له مصلحة في مقتل الست؟

رفع كتفيه بكل هدوءٍ وأجاب:

- مش عارف بصراحة.

- مش شاكك في حد؟

- إطلاقا يا فندم.

- ليه؟

- لأنها مزعلتش حد.

- كلمتك الست ليلة الجريمة؟

- بنتي ردت على التليفون وبلغتني وأنا رفضت أزورها.

- ليه مزرتش الست؟

- لأن الموضوع زاد عن حده وشكل لي عقدة يا فندم.

أخذ بصماته وقع على أقواله وغادر..

توقف عند المدخل، أوشك أن يسقط من فرط الهواء المشبع بالرطوبة الذي استنشقه في الداخل والذي آلم صدره وأصابه بالغثيان، لم يعتَد على هذه الأماكن الضيقة المشبعة بالرطوبة والنيكوتين، غرزت أشعة الشمس أشعتها في حدقتيه مما سبب له زغللة سرعان ما تبددت، سار عدة خطوات بمحاذاة قسم الشرطة وهو يلتفت خلفه بين الحين والآخر، وفجأة عاد الوسواس ينبح في رأسه من جديد: "كويس اللي عملته يا صالح، كله في مصلحتك، بنتك أهم من كل حاجة يا صالح، متنساش الصورة اللي هتنسف سمعة أبوك وجد مهجة"، حاول الانشغال بأي شيءٍ ليطرد هذا الصوت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يحصل ماهر على أي معلومة تفيد مجريات التحقيق، سينتظر تقرير الطب الشرعي والمعمل الجنائي.

- سأل ماهر محمد: في جديد بخصوص القضايا الثلاثة؟

- أي قضايا يا ماهر باشا؟

- قضايا الاغتصاب يا محمد، نسيت؟

- مفيش جديد لغاية دلوقت يا بيه.

بعد عمله كان ماهر معتادًا على زيارة النيل لتصفية عقله من الزوائد والشوائب العالقة، هبت نسمات الهواء لتداعب شعره بحنان، وقف يراقب حركة النيل الساكنة الهادئة، نظر إلى النيل فلم ينعكس وجهه على سطحه، هل بفعل تموجات سطحه السريعة المنتظمة، أم أنها عادة النيل لا يعكس وجه أحد حتى يتأمله أولًا؟! أخرج سيجارة، وبعد عدة محاولات نجح في إشعالها، وقف يفكر في تلك القضايا، قضايا الاغتصاب التي طالما شغلت باله، خاصةً أنها آخذة في التزايد، تساءل عن سبب زيادة جرائم الاغتصاب، لا بُد وأنه الفقر والبطالة والحرمان، نعم.. الحرمان. ألقى بسيجارته في الهواء وراقبها حتى استقرت على سطح النيل.

أدار مفتاح باب شقته على مهل، على يمينه وُضعت منضدة بنية اللون يعلو سطحها مزهرية بها أوراق لورود صناعية وبها درجين وفوقها عُلقت مرآة إطارها من الخشب ذهبي اللون، وعلى الناحية المقابلة عُلقت لوحة كبيرة الحجم لحصانٍ أبيض يقف على قدميه الخلفيتين، خلع حذاءه بعدما أغلق الباب بهدوء وأخذ يسير على أطراف أصابعه، لا يريد إزعاج زوجته منى، خلع سترته وألقاها على الأريكة، سحب ستائر البلكونة ليُسقط عنها بقايا تراب خفيف بسبب عاصفة رملية اجتاحت المنطقة من وقت ليس ببعيد، فتح النافذة الزجاجية التي تحولت إلى سدٍ منيع، تسلل الهواء والضوء ليضيء الفراغ، ألقى نظرة من شرفته على العمائر المجاورة، أسعده أنه يقطن في مثل هذه المنطقة، هادئة وقريبة من مركز المدينة، تتمتع بإطلالة تبعث في النفس الارتياح، تحسس تربة أحواض الزرع أسفل الدرابزين، كانت جافة، ذهب ليحضر زجاجة ماء، مر من أمام أريكة بنية ثلاثية ذات ظهر قصير وبجوارها أريكة ثنائية أخرى وُضعت مقابل الباب وعلى الجدار الأبيض المقابل انتصبت مكتبة متوسطة الحجم ولكنها حملت الكثير من كتب القانون، يعود أغلبها إلى المحامية منى، في المنتصف وُضعت طاولة من الخشب يعلوها تماثيل من النحاس ومطفأة سجائر كبيرة الحجم من الزجاج، وبجوار المكتبة عُلِّقتْ بعض صور لعائلته ولعائلة زوجته يوم الزفاف، البهجة والفرح بادية على وجوههم، في الصورة كانت منى تقف بجوار ماهر وتمسكه من ذراعه كأنها قد ألقت القبض عليه.

أخذ يسير في الردهة المؤدية إلى المطبخ ليحضر زجاجة ماء، وبعد لحظات خرج وفي يده وعاءً ممتلئًا بالماء، عاد به إلى حوض الزرع، في طريقه أطل برأسه كفأر إلى داخل غرفة نومه، وجد منى لابد وأنها مرهقة بسبب عمله وحملها، كانت مستلقية وساقها العارية تظهر من أسفل البطانية كمسلة

فرعونية تبحث عمن يفك شفرتها، هاجت حواسه وانتصبت أعضاؤه، نسي ما كان مقدمًا عليه، نظر إلى الوعاء في يده فتذكر الزرع، ذهب مسرعًا وسقاه، عاد إليها ليندس بجوارها، تسلل بجوارها خلسةً بعدما خلع ملابسه، رفع غطاءها قليلًا، كانت ترتدي قميص نوم أبيض، طالما أحب هذا القميص، ارتدته في ليلة زفافهما، ضرب على رأسه، وغمغم: "يا لغبائي كانت تنتظرني!". أخذ يداعبها ويقبلها ويتحسس جسدها الساكن الخامل الذي ينتظر تغيير وضعيته من الخامل إلى النشط، هاج وفار كماء يغلي، تحمست لقبلاته ومداعباته وتركته يغوص في أوصالها، نفخ عروقها وسال عرقها ولمع شعرها، غزا أعلاها حتى أسفلها، هدها فهمد واستكان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان يحيى وصالح يجلسان عند باب الورشة، عندما بدأت الشمس تنحني وتختفي بين السحاب ليحل محلها سواد الليل.. أضاءت مصابيح الدكاكين والشرفات الشارع.

كانت ملامح الحزن والأسى مطبوعة على وجه يحيى الأسمر النحيل، صاحب الشفتين الغليظتين دائمتي الابتسامة وعينان متقدتان تخفيان خلفهما طاقة لا حدود لها، يتمتع بجسدٍ قوي، كانت حالته يُرثى لها على غير العادة، سمعه صالح وهو يطلق من صدره زفرات عميقة كمن يرفع ثقلًا، كاد أن ينفجر من شدة الغيظ، هم بالانصراف.. إلى أين لا يعلم، سيترك قدميه لتقوداه إلى حيث تريد.

طلب منه صالح أن يجلس، جلس مكرهًا كمن يجلس على شوك، يرغب في الانصراف، لا يريد الحديث مع أحد، كل ما يريده أن ينسى وتنساه تلك الذكريات المريرة، الذكريات التي لا تفارق مخيلته، يريد الخلاص، ولكن كيف ينقي عقله من تلك الذكريات؟

- سأله صالح: مش من طباعك الحزن؟ مالك كفا الله الشر؟

حدق يحيى إلى أقدام المارة أمامه، تجاهل سؤال صالح، فعاود صالح سؤاله وألح عليه، بعد صمت لدقائق تحدث يحيى بنبرة مكتومة حزينة:

- مش عارف، مخنوق، النهارده شوفت ابن الحاج محمد راجع من شغله، ولابس البدلة وما شاء الله عليه، وبعدين سمعت إنه هيكمل دراسات الماجستير، ولجهلي قالوا لي إنه بيكون بعد الجامعة بدرجة، ليه محدش علمني يا عم صالح؟

صمت للحظات وصالح يراقب قدمه اليمنى التي كانت تهتز بسرعة وانفعال، تابع يحيى حديثه بنبرة حزينة: نفسي أنسى همومي وأحزاني، حالي يغم، أبويا اتجنن على كبر، وكل اللي سمعته منه صراخه على أمي، كل ليلة يرجع سكران وغرقان في خيبته، يدخل على أمي وهاتك يا ضرب لحد ما تفرفط تحت إيده، ويقطع هدومها زي المجنون، وكنا ندخل غرفنا زي الفيران نموت من الخوف، كل ليلة كان في علقة، وما أكتر العصيان اللي كسرها على ظهورنا.. عارف إن أبويا كان مفلس ومديون، وعارف إنه مكروه وسكير، مش بياكل من عرق جبينه، سابنا في الشوارع زي المتسولين، لا.. متسولين يا عم صالح، جعل أمي تتسول بعد ما كانت تتوسل الجميع إنهم يشتروا غزلها، خلق من اخواتي مجرمين وأخرتهم السجن، وأنا على ما أنا عليه، وكل ما عديت من جنب بيتنا، كنت بحس بصورته وبسمع زعيقه، نظراته اللي كلها غل بتجري ورايا، زعيقه في وداني، مخلاش حاجة جميلة

نفتكره بيها، كل اللي سابه أيام سودة كلها ظلم، أبويا زرع في قلوبنا المر، زرع في قلوبنا القساوة، وأنا معنديش غير مرتبي شوية جنيهات، وغرفة على السطوح، أصدقاء مفيش غير ابن العطار الأهبل، وغيرك مفيش حد، معرفش ليه أبويا اتجنن على كبر؟

أسند صالح ظهره إلى الخلف ونظر حوله وتردد للحظات هل يخبره أم لا؟

- اقترب من يحيي وقال له: اسمع يا يحيى، أبوك قبل ما يتجوز كان بيحب ست تانية، كانت جميلة جدًا، وأمك عندها تفاصيل الحكاية، وأبوك والله اعلم محبش أمك ربع حبه للست الثانية - لم يذكر اسمها أمام يحيى - وأبوك كان مجبور على الزواج، وتردد في الحي على لسان الستات إنه مقربش منها لأكتر من أسبوع، ولما عرف جدك وتأكد من الموضوع ضربه.. كل ما حس إنه في فرصة لزيارة الست.. مكنش يتردد، حتى بعد ظهوركم على الدينا أبوك كان بيجمع الفلوس عشان يتقدم لها، كان والدها صعب المزاج وطماع، كانت الست بتحب أبوك جدًا وبتحارب عشانه، كان شهم، ووفي، مخلص للي بيحبه - كانت الكلمات كفيلة أن تزيل ولو القليل من الحقد والكراهية المتراكمة في صدره على أبيه - ولكن والدها محبش أبوك خالص، كأنه في تار بينهم، تزوجت الست، وانتفخ بطنها، وولدت، زادت النار في صدر أبوك، وفي يوم راقب جوزها وضربه، على ما أذكر كسر إيده، واتحبس أبوك، وخرج بكفالة دفعتها أمك، أبوك بدأ يشرب ويغرق في الشرب وغرق في الديون، وغرق في عداوة الناس.. وانقلب حاله.

هز يحيى رأسه في أسي وتنهد بضعفٍ قائلًا:

- كنت أسمعها دائمًا تقول له سلم على أم الدلال، وبعد لحظات أسمع صوت الحزام على جلدها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تعاقبت الساعات، وأرخى الليل سكونه وأسدل سواده على الحي، كان صالح في غرفته المظلمة جالسًا على حافة سريره البارد والستائر الشفافة المنسدلة على النوافذ تحاول منع تسلل ضوء القمر الباهت الذي انعكس طيفه على المرآة وأضاء بقعة صغيرة أسفل النافذة، كان يحاول جمع شتات أفكاره الممزقة الغير منظمة وأحاسيسه المرتبكة المشتتة ومشاعره المشوهة المضطربة، مشاعر لم يعش مثلها من قبل، كان هناك صراعٌ بين كل عضوٍ حي داخل جسده، بعد مضي القليل من الوقت أخذت أحواله تتبدل وتتحول كأن أمرًا لم يحدث، والغريب والمدهش في تلك اللحظة أنه لم يعد يشعر بأي تأنيب للضمير، الضمير الذي استراح تلك الليلة وما بعدها من ليالٍ. أحس بحرية وشعر كأنه يطفو فوق بحيرة من الطمأنينة والسلام، كادت أن تلامس يديه النجوم في السماء، كانت الأجواء هادئة من حوله رغم صعود بعض الأصوات من أفواه زبائن المقهى، انصرف الوسواس غير مستأذنًا، لم يعد يزعجه ولم يَزُره مرة أخرى، أدى مهمته وغادر، ورغم شعوره المؤقت بالطمأنينة إلا أن ليلته كانت مليئة بالكوابيس التي أقلقت منامه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد منتصف الليل كعادتهما ذهب حسام وماهر إلى الكازينو الذي كان يتردد عليه حسام، كانت له طاولة محجوزة باسمه، سواء حضر أو تغيب.

"حسام" من أولئك الأشخاص واسعي العلاقات وقوي الشخصية وماكر، يقترب منه زملاؤه ولكن بحذر خوفًا من لدغته، يجيد استغلال الفرص، شخصيته قوية وحازمة حاسمة، يبدو للناظر من أول وهلة أنه الكل في الكل في أي مكانٍ يتواجد به، جاهز الجواب صافي الذهن يمكنه فتح حديث مع أكثر من شخص، لم يكن متزوجًا، وكل من قابل من نساء أو ألقى عليهن القبض في أوضاعٍ مخلة بالآداب، سواء في الماضي أو في الحاضر هن فقط لإشباع رغباته ونزواته، يشبه هتلر مع الاختلاف في الطول، والشارب لم يكن موجودًا، كما اكتسب صوته بحة من كثرة التدخين، عمره من عمر صديقه ماهر، وصفه المقربون بأنه شخصٌ مستقيم ومتقانٍ في عمله، يداه كانت أغلب الأوقات مختبئة في جيبه، وعيناه سريعتا الحركة مثل الرادار.

عند الباب الداخلي وقف حسام ويديه في جيبه، كعادته، وألقى نظرة خاطفة على الحضور، متباهيًا بعظمته، وقف على أطراف أصابعه مرتين أو ثلاثة في استعلاء، وتوجه برزانة واثقة إلى طاولته المحجوزة له في الركن، والكاشفة لجزء كبير من المكان، جلسا متقابلين، أخذ ماهر يتأمل المكان الذي تكونت فيه سحابة من الأدخنة المنبعثة من الأفواه، يتسلل شعاع المصابيح بين كثافة الدخان كضوء الشمس المشرق على ضبابٍ كثيف، الطاولات المستديرة التي يكسوها غطاء أبيض من القماش، ويجلس عليها من أربعة إلى خمسة أشخاص، الغريب والطريف أن بعض الفتيات علقن سلاسل بها صور وهمية لتفادي التحرش بقدر المستطاع.

سرعان ما حضرت الراقصة مجبرة، تلعن وتسب في داخلها حسام على طلباته اللامتناهية، فهو يستغلها أبشع استغلال، كثيرًا ما قطع رزقها بعد وصلة استعراضية انتهت في شقته، كانت تهتز وتتمايل برشاقة وإثارة، اقتربت وبحركة خفيفة من يديها، وضعت شالها الأسود الشفاف فوق رأس حسام وابتسامتها الباردة المزيفة على محياها، اقتربت منه وهمست في أذنه، فانعكست على شفتيه ابتسامة ماكرة باردة وهمس: لن تخسري شيئًا، حاولي.

بعد وصلة قصيرة قضتها الراقصة أمام حسام وماهر الذي صدها عندما حاولت الاقتراب منه، عادت إلى المسرح لتكمل وصلتها.

مال حسام على ماهر وسأله:

- قضية جديدة؟

- صحيح، قضية ورا قضية، قتل وسرقة.

- خزنة؟

- صحيح.

- القاتل عارف مكان الخزنة، اتحلت.

- آه فعلًا اتحلت، انسى قضية القتل، قولي حاجة عن قضايا الاغتصاب؟

- ولا حاجة، سيبك من الشغل يا ماهر، ريح نفسك من التفكير لليلة واحدة بس.

عقد ماهر يديه على صدره وقال:

- اتفضل، هات اللي عندك.

- شايف الرقاصة؟ كانت ضيفة عندي، ومش هكملك عشان إنت بِتْرَيّل على طول.

ضحك ماهر وقال مستهزئًا:

- واضح إنها بتعرف ترقص.

- اسمع، إيه رأيك لو حجزت لك ليلة معاها، هتنسى اسمك؟

غمزه ماهر قائلًا:

- بخاف أضيع عليك الفرصة.

ضحك حسام قائلًا:

- مش مهم لو رفضتني، عندي كتير يا ستالين، ولكن خليني أقول لك، إن في ستات بتنام معاها وفي ستات هي اللي بتنام معاك، خليني اشرح لك، اصبر على رزقك، عارف إنك بتحب الكلام في الستات، أصلك محروم من التنوع وأصل الحكاية هو التنوع والاختلاف.

لعق شفتيه وتنحنح ليضفي مزيدًا من الاهتمام على ما سيقوله وتابع بنبرةٍ هادئة: لازم تدوق طعم الست، الست اللي مش متعود عليها، الست اللي بتعيش معاها شهر أو شهرين وبعدين تسيبها وتدوق غيرها من غير ما تغوص في عالمها.. هي دي المتعة، هتحس بالحلاوة، تخيل إنك تستمتع من غير ما يتكرر معاك نفس الوش ونفس الجسم اللي حفظت تجاعيده وحفظت شقوقه ومداخله ومخارجه، يا حبيبي كل فترة إنت هتكون في رحلة استكشافية جديدة، في عالم تاني من عوالم الحياة، متعة مش هتتكرر ومش هتنساها، هيكون في عندك تجدد ونشاط ومتعة.. اسمع مني يا ستالين.

- وجهة نظرك واحترمها يا صديقي، لكن لكل شيخ طريقته في الحياة، أنا مقدرش أعيش الحياة دي، لسبب واحد هو إني بحب منى ومش هخونها، أنا مش جبان.. أنا مخلص ليها زي ما هي مخلصة ليا، مش مستعد إني أضحي بحياتي علشان متعة مؤقتة مليانة مخاطر، متقاطعنيش...

- هقاطعك، متكلمنيش عن الإخلاص، أنا مخلص ومتفاني في عملي وعالمي، ولكن لازم تفهم طبيعة الحياة القائمة على تبادل المنفعة، متعة مقابل متعة، بس في عالمكم انتم المتجوزين مفيش منفعة متبادلة، انت محتاج الشغف واللذة والتغير، علاقتكم روتينية عابرة سريعة مفيش ليها أثر، انتم فاقدين أجمل ما في الأمر؛ متعة الاستكشاف.. متعة التجديد، صدقني لما أقول لك إن حياتك هتضيع من بين إيديك من غير ما توصل للمتعة اللي بكلمك عنها.. وطرق على الطاولة بسبابته وهو يقول: جرب، مش هتخسر، جرب!

- اسمعني يا حسام، الجمال واللذة والمتعة اللي بتتكلم عنهم مش هتلاقيهم إلا في التيه والرذيلة، عشان مجربتش المتعة الطاهرة أو اللذة العفيفة، انت كل اللي تعرفه هو طعم المتعة المحرمة، الجمال

والمتعة واللذة والشهوة هي أحاسيس متعلقة بين الروح والجسد، مش هتقدر توصل لهم مهما غيَّرت وبدلت ستات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3

في صباح اليوم التالي، توجه ماهر برفقة أمي ن الشرطة محمد إلى الحي، وصلا إلى منزل الست فريدة، وجدا بعض النسوة متشحات بالسواد وأقمن أمام باب بيتها عزاءً مؤقتًا يندبن حظهن العاثر، فلم يعد لهن من يتصدق عليهن كما كانت تفعل معهن الست فريدة، جلسن على الأرض يبكين ويولولن كأنهن يردن أن يبلغن العابر بـ"أننا لن ننسى الست". كانت الطريق أمامه شبه خالية عدا من بعض المارة، توقف أمام زقاقٍ ترابي يقود إلى مجموعة من البيوت، سرعان ما وجد نفسه يسير داخل زقاق مكسوًا ببلاطٍ قديم رمادي اللون، على يمينه كان جدار بيت الست فريدة وعلى يساره مداخل لبيوت مغلقة، رفع رأسه وحدق إلى تلك النوافذ المغلقة والتي تجمعت على حوافها الأتربة، أحس بضيقٍ في صدره لضيق المكانِ ولتقارب البيوت بعضها من بعض، بعد لحظات وجد نفسه يقف أمام زقاقٍ ترابي آخر أشد ضيقًا يقود إلى مبنى مرتفعٍ مهجور وأرضٍ فارغة بها بيتٌ مهجور آخر لا نوافذ له، وجدرانه متصدعة وباب المنزل كأنه محترَق، وخلف الأرض سورٌ مرتفع يطل على عمائر مكونة من ثلاثة وأربعة طوابق، حدق إلى سور حديقة الست فريدة فلم يجد أي أثار لشيءٍ يقنعه بأن أحدهم تسلل من هنا مستخدمًا سلمًا خشبيًا أو حتى أثار لأقدام، عاد أدراجه ليجد محمد يحدق مندهشًا إلى النسوة اللواتي شرعن يلطمن، دفع محمد وطلب منه مباشرة عمله، وصلا إلى سوق العطارة الذي فاحت منه روائح التوابل ولم يكن السوق مزدحمًا، ولم يسمع صوتًا للبائعين، كأنهم يعملون في صمت.

تقدم تجاه سيدة أسندت ظهرها إلى جدارٍ متشقق ظهرت أحجاره الحمراء، تجلس تحت شجرة ذات جذعٍ ضخم، كانت تهش الذباب من فوقَ الخضروات المعروضة أمامها في عدة أقفاص، قرفص أمامها وابتسم بلطف وعرفها بنفسه، هزت رأسها ترحيبًا.

- قال ماهر: عاوز أسألك عن الست فريدة.

- الله يرحمها، اسأل يا ابني.

- إنتِ تعرفيها؟

بحركة اعتيادية لوحت بيدها على الخضار، وعيناها المرهقتان مثبتتان على دفترٍ صغيرٍ في يد المحقق، أومأت برأسها وقالت:

- ومين ميعرفش فريدة هانم، نص أهل الحي خيره منها، كانت ساترة بيوت كتير، كانت كل فترة تشتري مني الخضار وتوزعه لله، الله يرحمها كانت وعداني تدفعلي مصاريف الحِج، ملناش نصيب.

- مين أكتر حد كان بيتردد عليها، يعني بيزورها من برة الحي؟

صمتت للحظات، كأنما تريد أن تبحث في ذاكرتها عن أي أحدٍ مقرب من الست فريدة وقالت بتردد:

- في ست كنت ألمحها ساعة العصاري بس معرفش اسمها، استنى... حاولت النهوض ولكنها عادت وجلست مكانها وهي تئن لألمٍ في مفاصلها.. نادت على سيدة كبيرة، بقي في فمها أربع أسنان، اثنان

في الفك العلوي واثنان في الفك السفلي، لونهما أسود كقضبان السجن، كانت تبعد عنها بضع خطوات، اقتربت الست وسألتها:

- مين اللي كانت بتزور الست فريدة؟ فكراها؟

حدقت إليها بعينين باهتتين خاويتين من أي مشاعر، وسألتها:

- وإنتِ مالك؟

تدخل ماهر وعرفها بنفسه، رمشت عدة مرات كأنها تمسح عينيها وارتسمت على محياها ابتسامة رقيقة وقالت:

- أهلًا يا عسل، والله إنك تفتح النفس، تحسست ساعده بيدٍ متيبسة ذات عروقٍ زرقاء بارزة وأضافت: هو ابني ينفع يدخل كلية شرطة ويبقى حلو زيك كده؟

- طبعًا ممكن يدخل، بس مين هي الست اللي كانت بتزور الست فريدة؟

- اسمها "هند" يا بيه، على حين غرة اختفت ابتسامتها وحلت محلها تكشيرة حادة وتابعت: أي خدمة تانية؟

سألها ماهر بلطف:

- مين الست دي؟

- كانت ساكنة الحي وربنا كرمها واتجوزت راجل غني.

تدخلت السيدة الأخرى وقالت:

- افتكرتها، هند اللئيمة المكارة.

- خليك معايا يا بيه، الست هند كانت أحسن من ستات كتير، بنت بلد وبنت أصول.

- إنتِ كنتِ قريبة من الست فريدة؟

- لا طبعًا، هي في مستوى واحنا في مستوى، اللي زينا قريب من الخدامة يا بيه، كانت بتقولي كل حاجة عن الست، يا لطيف يا لطيف كانت بتقولي إنها مركوبة، ثم سحبت طرف عباءتها ونفثت داخله عدة مرات ورفعت يدها تغمغم بكلماتٍ غير واضحة.

- مركوبة؟

- أيوه مركوبة، كانت تصحى في نص الليل وتقفل الشبابيك والستائر، وفي عز الصيف تلف نفسها ببطانين كتير، كانت تشوف حاجات غريبة يا بيه، الشر بره وبعيد، ملناش صالح بالسيرة دي.

- طيب طيب، وهند دي فين دلوقتِ.

- معرفش يا بيه، دي ست غنية تلاقيها مسافرة هنا ولاهنا، هما دول بيقعدوا في بلدنا، بلدنا مش قد مقامهم يا بيه.

- امتى زارتها آخر مرة؟

- مش فاكرة والنبي يا اخويا، أصلي بقالي زمان منزلتش الحارة، بنتي هي اللي كانت بتنزل وتبيع وربنا رزقها بابن الحلال.

وهمَّ بالمغادرة، فسألته:

- يا بيه، هتعمل إيه مع ابني، هتدخله الكلية؟

- لا.

- والنبي وصل سلامي لسيدة دي كانت بتجبلي الأكل الزيادة.

أدار ظهره وغادر، ولم يجد معلومات ذات قيمة، فعاد بصحبة محمد، وصل إلى مكتبه وطلب من العسكري قهوته المضبوطة، ذهب إلى الأرفف الخشبية التي تحمل ملفاتٍ مكدسة غطتها الأتربة، كأنه من حق الأتربة أن تدفن هذه القضايا، تناول الملفات وجلس على الأريكة، غاص فيها كما لو كانت بحيرة من الريش، أشعل سيجارته ومدد قدمه فوق طاولة خشبية، شرع في فتح الملفات ملفًا تلو الآخر، كانت معظمها قضايا محفوظة، عدا قضية حديثة.. قضية اغتصاب فتاة في عمر الخامسة عشر، في أحد الشوارع المظلمة الواقعة في أحد الأحياء الفقيرة، قرأ التاريخ.. كان في بداية شهر أكتوبر العام الماضي، بناءً على أقوال الفتاة فهي لم تتعرف على وجوه الجناة، بسبب ارتدائهم أقنعة.

كانوا ثلاثة أشخاص في أعمارٍ متفاوتة وأحجام مختلفة حسب أوصاف الفتاة، ورائحتهم كريهة، كان من بينهم رجلٌ قصير القامة، هو من بدأ باغتصابها... لم يكمل قراءة القضية، وهاتف حسام في عصبية شديدة:

- عملت إيه في قضايا الاغتصاب؟

- ولا حاجة يا ستالين.

- القضية على سلم أولوياتك؟

- أنا مشغول في قضية مهمة جدًا.

- يا حسام، كلف القضايا لحد من المعاونين بتوعك.

- مش فاضل كتير وهنخلص، القضية الكبيرة يا ستالين.

- قضية كبيرة؟

- بعدين هكلمك عنها، ومتقلقش هكلف سمير يتابع قضايا الاغتصاب، مبسوط يا سيدي؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قبل أن يذهب صالح إلى عمله صادف مهجة وسوزان يجلسان في الصالون وترتديان السواد، كانت سوزان تربت على كتف مهجة في لطف، وسوزان من طباعها الدلال والغنج، لم تحافظ على طهرها، ولا أحد يعلم قصتها سوى أختها سعاد المتزوجة خارج القاهرة، تملك سوزان صالون التجميل، صبغت شعرها الغزير بلونٍ بني داكن، وزاد الكحل عينيها اتساعًا، وزادت من وضع أحمر الشفاه على شفتيها بكثافة مما زاد من حجمهما، تملك شفتين ملفتتين جذابتين مغريتين، كانت ترتدي ثيابًا ضيقة أظهرت مفاتنها بوضوح، لطالما كانت تتباهى بجسدها الفائر الرشيق الذي حافظت عليه واهتمت به اهتمام المشاهير، طولها في مثل طول مهجة البالغ 172 سم، وكان لصوتها رقة وعذوبة تصيب المنصت لها بخدرٍ قوي، لفت حول عنقها وشاحًا أسود ناعمًا زاد من رقتها وجاذبيتها، إنها في السادسة والعشرين من عمرها وكان عيد ميلادها الشهر الماضي.

رفعت مهجة رأسها عندما رأت والدها يقف أمامها بعينين تنضحان ألمًا وقهر، وأسفل عينيه تشكلت دائرة من السواد، نادرًا ما كانت تشاهد السواد أسفل عينيه، نهضت وألقت بجسدها في حضنه وأخذت تنتفض من شدة البكاء، ربت على ظهرها في حنان فتناولت يديه وقبلتهما اعتذارًا على تلك النظرة الشرسة التي رمقته بها حين وصلهما خبر مقتل جدتها.

قال بصوتٍ منخفض أقرب إلى الهمس يحمل في طياته حزن وهم ثقيلين:

- متقلقوش هيمسكوا الجاني.

قالت سوزان في حزم:

- أكيد هيمسكوهم يا عم صالح، ونفسي أشوف حبل المشنقة حول رقابيهم.

سعل صالح وتنحنح وقال بعد صمتٍ دام للحظات:

- أنا هنزل الشغل، حاولي يا سوزان تقنعيها تروح معاكِ الشغل، بلاش تفضل هنا لوحدها، فهماني يا بنتي؟

أمسكت بيد مهجة وقالت:

- شوية كدة وهنروح الشغل، متقلقش علينا.

جلست مهجة بجوار سوزان ودموعها تنهمر كالمطر وتنهيداتها تعلو وتعلو حتى تكاد تظن أنها تلفظ أنفاسها، حاولت سوزان إيقاف دموعها فقالت:

- إنتِ لازم تدعيلها بالرحمة والمغفرة يا حبيبتي، هي دلوقتِ محتاجة مننا كل دعاء، ربنا يصبرنا ويصبرك، أنا مش عارفه منين جالنا الهم ده، ومين اللي ممكن يقتل ست زيها؟ الله يرحمها.. ادعيلها يا مهجة، ربنا يرحمها.

رفعت مهجة رأسها ومسحت دمعها بظاهر يديها وقالت بصوتٍ متقطع مبحوح، وجسدها يهتز تحت وطأة تلك التنهيدات القوية:

- الله يرحمك يا ستي. كانت كل حاجة، في حياتي يا سوزان، هي اللي ربتني وعلمتني، ووقفت جنبي، هي اللي صرفت عليا ولبستني، محرمتنيش من حاجة نفسي فيها، ربنا يرحمها، أخ يا سوزان لو اعرف مين اللي قتلها، هشرب من دمه الواطي، كانوا سرقوها وسابوها عايشة، الله أكبر عليهم، حرموني من حنانها، كانت تقولي دايمًا: "إنتِ شبه أمك الله يرحمها، فولة واتقسمت نصين"، أنا مكنش ليا حد غيرها..

قاطعتها سوزان وضمتها إلى صدرها وقالت:

- أنا هنا جنبك يا حبيبتي، قولي الحمد لله وربنا هينتقم من المجرم إن شاء الله، دفعتها عنها في لطف ورفعت وجهها المتورد وطلبت منها أن تنهض وتغسل وجهها وتابعت: منى في السكة على وصول.

نظرت إليها بعينين سابحتين في بحيرة من الدموع، مسحت طرف أنفها بكمها وهي تنشق عدة مرات متتالية وقالت متعجبة:

- منى؟ مين قال لها؟

- كلمتني عشان كانت عاوزة تحجز دور وقولتها على اللي حصل.

- وقولتلها ليه؟ مكنش لازم تعرف، الست حامل وحملها صعب والدكتور قال لها مش لازم الحركة الكتير وهي فين واحنا فين.

تنهدت سوزان في استياءٍ وقالت:

- اللي حصل يا مهجة، لعله خير.

بعد مضي نصف ساعة تقريبًا قضتها مهجة بين البكاء وبين ذكرياتها الجميلة التي عاشتها مع جدتها.. سمعت وقع طرقات على الباب، نهضت سوزان قبلها وما أن فتحت الباب حتى وجدت يحيى يقف بالباب مرتديًا ملابس العمل المتسخة، ووجهه يكاد ينفجر من هول ما شاهده أمامه، وجبينه سالت عليه أودية من العرق اللامع وفاحت منه رائحة الحديد، بلع ريقه ما أن رأى سوزان تقف أمامه، وتملكته الحيرة والاضطراب. كان يتوقع أن تفتح له مهجة، لم يرَها بهذا القرب من قبل، وجل قلبه وكاد أن يقفز من بين أضلعه طربًا.. لا بل رعبًا من هول الصدمة.. ارتسمت على شفتيه ابتسامة رقيقة، ولكن سرعان ما تجهم وجهه وحاولت الكلمات أن تخرج من بين شفتيه ولكنها ظلت هناك حبيسة تقاوم جُبْنُه وقلة حيلته، أراد أن يكاشفها بما يعتري صدره من مشاعر تجاهها، تمنى لو يملك القليل من الشجاعة حتى لو (تأتأ) في بَوحِهِ إليها، ولكن من أين يجيء الكلام أمام هذا الجمال الفاتن، تنحى جانبًا عندما صدر من خلفه صوتًا أنثويًا ناعمًا.

من خلفه أطلت سيدة بيضاء جميلة ذات عينين براقتين تشعان ذكاءً وأهدابٍ طويلة كثيفة، وشعرٍ أسود طويل اتخذ شكل ذيل حصان، ووجنتين مرتفعتين متوردتين، وهيئتها توحي أنها سيدة طيبة المَعشر، متواضعة رغم مكانتها الاجتماعية وملابسها الرقيقة غالية الثمن، كانت ترتدي بلوزة بيضاء واسعة وبنطال أسود من القماش وتنتعل حذاء رياضي من نوع ماركة عالمية، وفي يدها حقيبة سوداء جلدية متوسطة الحجم.

تراجع يحيى وأخذ يهبط السلالم في عصبية وهو يضرب بيده على الدرابزين الحجري ويلوم نفسه على فشله وخوفه الزائد، تبادلا القبل وأدخلتها إلى البيت.. تلقفتها مهجة وارتمت في حضنها تبكي، وفي هذه الأثناء كانت سوزان تراقب يحيى وهو يهبط السلالم في تأفف، ابتسمت في خبثٍ وعادت إلى الداخل.

جلسن ثلاثتهن في خشوعٍ لفترة قصيرة من الوقت، قالت منى:

- الله يرحمها يا مهجة، شدي حيلك يا حبيبتي، كلنا فقدنا أحباب، وعارفين إن الوضع مش سهل، بس الحمد لله، الصبر واجب، ولا إيه رأيك يا سوزان؟

- أه، أكيد يا منى، كلنا فقدنا، واللي من عند ربنا يا محلاه.

- المهم إنتِ شدي حيلك، الحقيقة هتبان بإذن الله، ماهر شغال على القضية، وربنا هيكشف المجرم.

تدخلت مهجة وقالت بصوتٍ مبحوح:

- ربنا كريم يا منى، ربنا يكرمك يارب، احنا تعبناكِ معانا.

- ده واجب يا حبيبتي، احنا أهل.

- أخبار الحمل إيه؟

- الحمد لله، تاعبني شوية.

نادت مهجة على سوزان مرتين حتى استجابت، كانت شاردة في أفكارها في عالمها، طلبت منها إعداد القهوة، نهضت في نشاط متوجهتا إلى المطبخ.

سألتها مهجة:

- بحسب خبرتك، هو ماهر بيه هياخد وقت لحد ما يقبض على المتهم؟

- اللي عرفته إن المتهم الأول هو سيد الخدام ومراته.

قاطعتها مهجة في فظاظة وهي تستدير بوجهها، كأنها تحاول الهروب من وجه الحقيقة وقالت:

- مستحيل يا منى، مش ممكن يكونوا عملوها، لا لا أعوذ بالله مش ممكن.

- كل حاجة في الزمن ده ممكنة، النهاردة أبسط الناس بيرتكبوا أبشع الجرائم، كل إنسان مستعد إنه يرتكب جريمة في أي وقت وتحت أي ظرف كان.. مش معنى إنه خدام يبقى مستحيل يقتل أو إن جبان يبقى مستحيل يسرق، كل إنسان بيعيش ظروف هي اللي بترسم طريقه، سواء كانت الظروف معاه أو ضده.

- أكيد طبعًا يا منى، بس معقول في ناس ممكن تخون العيش والملح؟

- في ناس شربت الملح وحرقت العيش.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في صباح اليوم التالي، حضر محمد وفي يده تقرير الطب الشرعي وتقرير دكتور النساء والتوليد، تناول ماهر تقرير الطب الشرعي وأشعل سيجارة وأخذ يقرأ على مهلٍ وبلهفة..

تقرير الطب الشرعي رقم (٩٩٨٤٧)، في القضية رقم (٣٣٧٠- ج)..

"الضحية في العقد السادس من عمرها، ومن خلال فحص الجثة اتضح أن ملابسها بها ثقوب نتيجة الطعنات التي أدت إلى وفاتها، تمركزت الطعنات في منطقة الصدر والبطن، ثلاث طعنات في الصدر وأربع في البطن، وتراوح عمق الطعنات من ثلاثة إلى أربعة سنتيمتر، وهناك طعنة أصابت الرئة اليمنى مباشرة، كما أنه اتضح وجود تمزق في شحمة أذنها اليسرى نتيجة لنزع قرطها.

البصمات التي وجدت على السكين، تعود إلى الخادم "سيد علي سيد"، والسكينة لا يوجد عليها أي أنسجة أو أثار دماء تعود إلى الضحية، الشعر المنتوف يعود إلى المجني عليها، وقطعة القماش السوداء التي تم التقاطها من مكان الجريمة وجدنا عليها أثار دماء ولعاب من فم الضحية بسبب حشرها في فمها، كما اتضح أن قطعة القماش كانت تستخدم في تنظيف المطبخ، بسبب وجود بعض أثار من فتات الطعام العالق بها".

ألقى التقرير على المكتب، وأمسك بتقرير دكتور النساء والولادة الخاص بالخادمة، فما حدث في مكتب التحقيق لم يكن إلا انقباضات في الرحم، نتيجة تعرض السيدة الحامل إلى إرهاقٍ شديد واضطرابات نفسية وعصبية، وتعرُّضها إلى ضغط في منطقة أسفل الحوض نتيجة ثقل الجنين واقتراب موعد الولادة.

- السكينة عليها بصمات الخدام، بس الغريب إن السكينة مفيش عليها أي آثار للدم، والغريب إنها نفس نصل السكينة اللي سببت الطعنات، معقول يكون في زوج من السكاكين؟

أومأ محمد رأسه:

- ممكن جدًا يا بيه، وده بيدل على إن القاتل اتسلل للبيت ووصل المطبخ، وخد السكينتين المتشابهين واحدة قتل بيها والتانية رماها في مسرح الجريمة.

ابتسم ماهر وهز رأسه بالموافقة على تحليل محمد، ثم سأله:

- معقول يكون الخدام ساعدهم؟ ولو ساعدهم وسابوه يعني ورطوه، ولو ورطوه المفروض إنه يبلغ عنهم؟

نفث محمد دخان سيجارته وقال:

- ممكن يكونوا ضحكوا عليه مقابل مبلغ معين؟

- بس الواضح إن الطعنات الكتيرة دليل على قلة خبرة القاتل، أعتقد إنه قتلها على مرحلتين، لما دخل عليها كتم نفسها بحتة القماش اللي وارد يكون جابها من المطبخ، وبعدين طعنها، وأما خرج اكتشف إنها لسه صاحية فكمل عليها.

- ممكن جدًا.

- بس السؤال المهم! القاتل دخل ازاي من غير ما يعمل دوشة؟ محدش شافه ولا حتى لمحه؟ معقول يكون الخدام ساعده في الدخول والخروج؟ بس اللي أنا شايفه إن الخدام جبان.

- بس هو أكيد مقتلش، هو ساعد بس، وهنا هنرجع لنفس النقطة، لو هو انضحك عليه المفروض إنه يبلغ عنهم، صح ولا لا؟

بعدما أنهى نصف علبة السجائر وهو جالس خلف مكتبه، نهض وأخذ يوزع خطواته ذهابًا وإيابًا في غرفته المستطيلة، يفكر ويتساءل: مين له مصلحة في قتل فريدة؟ خصوصًا إنها عايشة لوحدها، بس مين اللي يعرف مكان الخزنة؟ أكيد مش هيكون الخدام ولا الخدامة، لأن العلاقة بين القتيلة وبين الخدام والخدامة مش هتوصل إن فريدة تفتح الخزنة قدامهم.. يمكن فتحتها قدام حد تاني؟ شخص بتثق فيه، مثلًا؟ ممكن يكون شخص من برة الحي، هند؟! بس هي مزارتهاش من زمان، ومفيش قرايب زاروها، ولا حتى صالح كان بيتردد عليها، يمكن الرجالة الملثمين، ممكن يكون حد بعتهم، شخص بيراقبها، وعلشان يِطَمِن قلبه بعت الستات لاستكشاف البيت، بس ازاي ممكن أوصل لهند ولمرات عضو البرلمان؟ ازاي؟ يمكن حتى تعرفها سيدة أو سيد؟ بس سيد مش هيفيدني في حاجة، ده أهبل، وبعدين معقول تكون مرات عضو البرلمان ليها علاقة! ولا هَسَوِد وشي مع مديري...

- قطع تدفق أفكاره جرس التليفون، رفع السماعة: ألو!

- تعالى مكتبي حالًا يا ماهر.

أغلق السماعة.. كان مديره.

أمام باب مكتب المدير توقف وطرق الباب، صدر من الداخل صوتًا غليظًا يدعوه إلى الدخول.. كانت رائحة البخور تفوح من أسفل الباب، فسعل قبل أن يدخل، جلس ماهر قبالة المكتب وحدق إلى لوحة خشبية كتب عليها "المقدم/ سالم توفيق"، كان "المقدم سالم" دائمًا يخفي أسفل قبعته وجهه المملوء بالكره والغيظ والحقد على كل من هو كفء. وكان يتجمع تحت ذقنه المدببة الدقيقة كيسٌ من اللحم يهتز كلما تحدث، وفمه الواسع لا يتوقف عن المضغ وتنبعث منه رائحة كريهة بين الحين والآخر. كان له شعرٌ أملس وكثيف، وعينان صغيرتان مليئتين بالحدة والعصبية، كان عصبيًا ولا يحب الإصغاء لمن أقل منه رتبة.

خلع سالم نظارته وألقاها على مكتبه في غضبٍ مكتوم، وسأله:

- هتخلص امتى من التحقيق؟

- قريب إن شاء الله، بس...

- بس إيه، انت تنفذ وخلاص يا ماهر.

- يا باشا...

قاطعه ولوح بيده في الهواء كما لو أنه قد أمسك سمكة خرجت من الماء وقال في عصبية:

- انت فاكر إني هسمع لشكوكك وأحاسيسك زي كل مرة، فوق وشوف شغلك كويس يا بيه، بصمات الخدام على السكينة، ويمكن الست الحامل متورطة معاه، انت متعرفش كمية المكالمات اللي بستقبلها في الساعة الواحدة، انت متعرفش أي حاجة يا سعت الظابط.

كلما اشتد غضبه زادت كمية اللعاب المتناثر من فمه، فتابع قائلًا: مدير مكافحة المخدرات شخصيًا كلمني عشان يخلص الموضوع، متسألنيش إيه دخله في الموضوع، وبعدها يكلمني مدير المباحث، شوف يا ماهر يا تخلص القضية يا نشوف غيرك يخلصها ونرتاح.

- لا ارتاح يا سالم بيه، أنا مش هتهم حد أنا شاكك في براءته.

وأغلق الباب خلفه، قرر سالم بيه إحضار أحد لإنهاء القضية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4

لا يحب حسام الارتباط، ولم يكن مقتنعًا بالزواج ولا بالحب، الحب من وجهة نظره ينتهي على السرير، وإلا فلمَ التعارف ومن ثم الزواج ومن ثم اللقاء على السرير، هو كان يختصر كل تلك المراحل، فكان يذهب إلى السرير مباشرةً، كان يهتم بإشباع شهواته وغرائزه فقط، وكان مزاجه أهم من كل شيء، دائمًا يقول: "طول ما المزاج مظبوط، الشغل مظبوط".. الزواج والاستقرار من وجهة نظره مَجلبة للهموم، وللمسؤولية التي تهرب منها كثيرًا. لم يكن يثق في النساء، وكلهن عنده في دائرة الشك والاشتباه.

ترك حسام منزل العائلة منذ زمن، وانتقل إلى أحد البيوت في وسط البلد، منزله مرتفع السقف ومتواضع، به غرفتين وصالون كبير خالٍ من أي فرش، وغرفته بها سرير كبير احتل مساحة كبيرة من الغرفة، يكفي لثلاثة أشخاص، وعلى جانبي السرير منضدتين يعلوهما بعض الكتب القانونية والمجلات، كان هذا السرير شاهدًا على غزواته، وفي أحد الأركان يوجد صندوقٌ خشبي به ذكريات الكلية من "كتب، ودفاتر، ومراسلات بريدية قديمة"، كلها حب وغرام وتحمل في طياتها أفكار مراهقة، وكان يعلق ثيابه على لوحٍ خشبي مثبت على الجدار أو خلف الباب أو على إطار النافذة. وللغرفة شرفة تطل على الشارع بها طاولة مربعة صغيرة ومقعدان وتليفون، غالبًا ما كان يقضي أغلب وقته بها، كانت شقته دائمًا نظيفة، وهذا بفضل السيدات التي كن يحضرن إليها بين الحين والآخر.

كان ينفق نصف ماله على الأيتام، لكنه كان يفعل ذلك، فلكل منا جانبه المظلم وجانبه المضيء، في بداية كل شهر، كان يذهب إلى إحدى دور الأيتام ويودع نصف راتبه تقريبًا، كانت السعادة تغمره حينما كان يرى الأطفال مقبلين عليه في الدار، وكان يعاملهم كأنهم أبناؤه الذين لم ينجبهم، ويجد نفسه بينهم، وحينما كان يلهو ويلعب معهم يشعر للحظات أنه واحدٌ منهم، كان يُخرج الطفل الذي بداخله، ويتخلص من طاقته السلبية عندما يقفز ويركض مثلهم خلف الكرة.

بعد ثلاثة أيام..

كان ماهر واقفًا في شرفة بيته يدخن سيجارته ويرتشف قهوته ويراقب القمر الذي يطل على استحياء من بين طبقات الغيوم.. كانت نسمات الهواء الباردة تتسلل من فوق كتفيه مرورًا إلى ظهره لتصيب جسده بقشعريرة قوية عكرت مزاجه وعلى إثرها ألقى بسيجارته واحتسى ما تبقى من قهوته على عجل، أغلق باب الشرفة خلفه ولما استدار وجد منى تجلس على الأريكة في صمت متدثرة بروبٍ شتوي يقيها من البرودة التي أحست بها، أخبرته عن نشاطها اليومي المعتاد في ملل، فلاحظ أن وجهها يميل إلى اللون الأصفر كأنها تعاني من سوء تغذية، كان جفناها ثقيلين من قلة النوم وبدا عليها الهزلان والذبول، طلب منها التوقف عن الذهاب إلى العمل، لكنها رفضت وبشدة وطلبت منه إنهاء القضايا التي بحوزتها ومن ثم سوف تتوقف عن العمل لحين الولادة.. نهضت في تراخٍ وساعدها للوصول إلى السرير.

أشعل سيجارة أخرى وجلس يقلب في محطات التلفاز، مباراة كرة قدم هنا، ومسلسل هناك، ونشرة جوية تنذر بسوء أحوال الطقس، رن هاتفه، تناول السماعة:

- سامعك يا حسام قول.

- استناني قدام العمارة بعد خمس دقايق.

غمس سيجارته بين أخواتها في منفضة السجائر، وتوجه وبدل ملابسه على عجل..

يعلم تلك النبرة التي تحدث بها حسام، نبرة آمرة لا تحتمل التأخير أو المماطلة وتبعاتها لا تسُر ماهر رغم التساوي في الرتب والأعمار.

كان الشارع خالٍ من المارة وأعمدة الإنارة تعمل بكل طاقتها، لاحظ تناثر قطرات من المطر فوق الطريق، رفع بصره تجاه المصباح ليستمتع بمشهد تساقط رذاذ الأمطار أسفل المصباح، وضع يديه في جيبيه وأخفى رقبته خلف ياقة السترة التي ارتداها، بعد دقيقة توقفت أمامه سيارة حسام الفيات 128 البيضاء.

كان مكفهر الوجه وسيجارته عُلقت في زاوية فمه، انطلق بسرعة بالسيارة التي لا تحتمل هذا الضغط الشديد، سأله حسام عن سبب هذه القيادة المتهورة وعن سبب المكالمة المفاجئ، أجابه ببضع كلمات غير واضحة.. انتزع ماهر السيجارة من فمه، رمقه حسام بنظرةٍ فظة جعلت ماهر يلقي بها من النافذة عنادًا، فقال ماهر في استفزاز:

- مالك يا حسام، نزلتني على مالا وشي وبتكلمني من تحت ضرسك في إيه؟ اسمع.. أنا مش فايق لألعابك وشغل الغموض بتاعك، هات من الآخر أنا قرفان ومزاجي مش مستحمل أي تصرف غبي.

- خلصت كلامك؟

أشعل ماهر سيجارة وأمأ برأسه، فتابع حسام:

- سمير مسك واحد في قضية سرقة، وتحت الضرب اعترف بجريمة اغتصاب قبل سنة تقريبًا.

- بتقول إيه؟ امتى الكلام ده حصل؟ وفين المتهم؟

- اهدا يا ماهر، المتهم عندي في المكتب، وقلت أبلغك، بلاش تعرف من غيري وتعملي فضيحة.

- طيب بسرعة يا حسام.

ابتسم حسام وضغط على سيارته التي كاد موتورها أن ينفجر..

وصلا إلى المكتب ووجدا في استقبالهما سمير، سمير في هيئته يشبه الجنود العائدين من الحرب الحاملين الكثير من الهموم، أمي ن شرطة في منتصف عقده الثالث، كان عابسًا دائمًا، ونادرًا ما يبتسم، قليل الكلام، لكنه كان يجيد عمله وكان محل ثقة عند حسام.

طلب منه حسام إحضار المتهم..

كان ماهر يوزع خطواته في أرجاء الغرفة، لم يكن مصدقًا أنه ينتظر أحد المشتبهين في قضايا الاغتصاب التي تكدست ملفاتها وسببت له الأرق والإحراج أمام مديره، كما أنها كانت تشكل حزنًا عميقًا في قلبه وحمل على عاتقه المهمة لإنهاء هذه القضايا التي تُسبب ضرر بأمن المجتمع وتبث فيه الرعب، طلب منه حسام الجلوس على الأريكة وتمالك أعصابه ومراقبة التحقيق.

بعد لحظات أحضر سمير المتهم، راقبه ماهر.. كان شابًا لم يتجاوز العشرين من عمره، وجهه مليء بالندوب وعيناه خاملتين باردتين عندما تنظر إليهما لا ترى سوى طيش وهياج أحمقين وغرور مزيف، وجفناه ثقيلين فلابد وأنه قد تعاطى مخدرًا ما. قصير القامة ممتلئ الوركين ومنتفخ المؤخرة ونحيل الخصر، تظن أنه جسد أنثى ما أن تنظر إليه من الخلف، أشعث الشعر وبقايا تراب عالقة في شعره الأسود الخشن، تنبعث من أسماله البالية رائحة نتنة قذرة عكرت أجواء الغرفة، ينتعل حذاءً ملطخًا بالطين وممزقًا ويكاد نعله يفلت من باقي الحذاء.

جلس حسام على طرف المكتب، وقال له مهددًا:

- هتختصر علينا الوقت ولا تحب تشرفنا في زنزانة من الزنازين؟

قال بصوتٍ مبحوح غليظ يبعث في نفس من يسمعه دون أن يراه الخوف والرهبة:

- لا يا بيه، أنا هقول لك على كل حاجة.. بس والنبي أحلفك بكل اللي بتحبهم يا بيه بلاش ضرب.

ثم تحسست أنامله المرتعشة قفاه ووجهه.

- أوعدك محدش هيمد إيده عليك، ياله قول وخليك دوغري معايا.

كان ماهر مشعلًا سيجارته ويمج أنفاسًا متسارعة، ويراقب في صمت بقدر استطاعته ما يحدث أمامه...

- أنا يا بيه اسمي "عبد الرحمن" وبيدلعوني يا عبده أو عبود، عمري عشرين سنة...

- اسمع ياض، أنا مش عاوز اسمك ولا دلعك ولا سنك ولا قصة حياتك، فاهم؟ أنا عاوز أعرف مين اللي كان معاك يوم ما اغتصبتم البت وفين وازاي؟ فاهم ولا اعيد تاني يا ابن...

- أبوس إيدك بلاش أمي ولا أبويا، وهقولك على كل حاجة.. مسح مخاطه بظهر يده ورفع بنطاله الذي داس عليه بكعب حذائه وتابع: تقريبًا قبل عشر شهور كنت أنا و"خالد" و"صابر" وكمان اتنين معانا معرفهمش...

بحر به حسام بشراسة وكز على نواجذه وشد على قبضته ومال بجسده تجاهه، وبردة فعل استباقية رفع عبد الرحمن يديه وكاد أن يخر أرضًا ليحمي وجهه وقال في توسل:

- والله العظيم ما اعرف غير خالد.. والباقي معرفهمش يا بيه، معرفهمش.. أنا خدامك يا بيه.

- انت خدامي لحد ما نقبض عليهم، فين المكان اللي بتقابلهم فيه؟

- عند الواد صابر يا بيه.. عند السوق الشرقي اللي في حارة "أبو هلال" في هناك حوش لعم "عوض" وراه أوضة صغيرة نتقابل فيها كل يوم ونوزع على بعض اللي بنسرقه يا باشا.

- بتسرقوا الغلابة يا واطي، بتسرقوا الناس اللي مش لاقيه تاكل، يا رمم يا زبالة.

- أومال نسرق مين يا باشا؟

سأله وهو يتراجع إلى الخف خوفًا من يد حسام الطائشة.

- اخرس يالا!

- سمير.. إنت عارف هتعمل إيه؟ خد كل اللي يلزمك وعاوز ولاد الكلب يكونوا عندي قبل ما يطلع النهار، مفهوم؟

غادر سيمر ممسكًا بعبد الرحمن ومعه قوة كاملة مجهزة لإلقاء القبض على الآخرين.

دفع حسام بسيجارة إلى فمه وارتشف ما تبقى من القهوة، وأغلق الملف أمامه، كان ماهر يعض على شاربه ويشده بأصابعه، وكان حسام يعلم أن تلك عادة صديقه حين يسرح في التفكير، فسأله:

- مالك مش على بعضك؟ القضية وهتتحل؟ إيه اللي شاغل بالك؟

- مش عارف يا حسام، لما كنا في عمرهم كانت الأمور مختلفة، الواحد مننا مكانش يجرؤ إنه يفكر تفكيرهم الوسخ، مش عارف إيه اللي يخليهم يعملوا كده، هتجنن على الشباب اللي زي الورد اللي بيضيعوا في زحمة الدنيا من غير هدف.

- خليني أقولك إن السبب الوحيد لكل المشاكل هو الفقر، الفقر أساس كل المشاكل، أساس قلة التعليم وأساس التسول وأساس الأمراض والبطالة، الواحد من دول لو مش فقير كان اتعلم واشتغل واتجوز، وبعدين الحاجة التانية والأهم ضعف القوانين، مفيش عندنا قوانين صارمة، وأقولك على حاجة مهمة، مجتمعنا الذكوري، احنا مجتمعنا يحمل المسؤولية للبنت، وأهل البنت يخافوا يقدموا شكوى علشان الفضايح، وشوف كام بنت خسرت حياتها عشان خايفة من الفضايح، احنا عندنا البنت تموت ولا تتفضح، البنت تموت وحقها يضيع علشان غيرها يفضل يمارس حقه في الاغتصاب، هو ده مجتمعنا الغبي!

هز ماهر راسه مندهشًا من صديقة الذي طالما أثار فضوله في تفسيراته الغريبة، وقال:

- فعلصا يا حسام، المهم قولي.. خلصت قضية الرشوة؟

- الله يخليك متفكرنيش، بعد ما خلصنا القضية قال إيه.. صدور تعليمات بإغلاق القضية، بلا هم يا راجل، مديرين يوكسوا.

- وانت زعلان ليه، انت ناسي قضية الست فريدة، خلصت، بح.

ختم الجلسة ماهر بتنهيدة ثقيلة قائلًا:

- احنا محتاجين لمسؤول ضميره شغال، على العموم أنا في مكتبي لو حصل أي جديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مرت مهجة وسوزان من أمام الورشة، عائدتين من العمل.. حدق يحيى كما حدق الجميع بأفواهٍ فارغة وبأعينٍ جاحظة، حتى النساء حدقن في استغراب واستنكار! بحلق إلى سوزان دون مهجة، معجبًا بها وبجسدها اللين الطويل المشدود، لم تلفت انتباهه قط كما فعلت هذه المرة، دائمًا ما كانت ترتدي عباءة سوداء وتستر مفاتنها، هذه المرة مختلفة، عباءتها ملتصقة بها تظهر صدرها الناهض النافر بكل وضوح.. كانت عباءتها مفتوحة حتى الركبة ترتدي فيزون أسود رسم ساقيها الدائرتين من الداخل، وتدلت خصلة من شعرها البني على جبينها من أسفل غطاء رأس أسود لامع، كانت تتراقص تلك الخصلة بتأثير خطواتها المتزنة الواسعة كأنها ميدالية من الفرو عُلقت على خصر أحدهم.

ما أن ابتعدت عنه بضع خطوات حتى شرع يبحلق إلى ردفيها المهتزين ولاحظ حدود لباسها الداخلي، ووجهها الذي زينته كما لو كانت ذاهبة إلى حفل زفاف، شذى عطرها من خلفها جعل الأفواه يسيل لعابها.. ظل يحيى يتابعها ببصره حتى غابت.

يريد أن يراها مرة أخرى، لم يشبع من النظرة الأولى، رآها اليوم كما لم يرَها من قبل، سوف يتحدث إليها ويحاول التقرب منها لعل قلبه يُطرب بصوتها العذب، عاود الطرق على الحديد وردفاها المهتزان لم يفارقا مخيلته.

كثيرًا ما قابلها يحيى أثناء هبوطها السلالم، لم يتحدث لها، لم يصافحها، يكتفى بالنظر إليها من طرف عينيه في خجلٍ وجبن، نما في قلبه إعجابًا بها، وسرعان ما تحول إلى حب، كان ينتظر موعد قدومها ومغادرتها للحي، كان يغار عليها من أعين الناس التي نهشتها واشتهتها.. ما أشد غيرته، تُفقده أعصابه وتُصيبه بالتوتر والغضب، في تلك اللحظة هاجت مشاعره، ولم يكن يعلم حتى هذه اللحظة أنه مغرمٌ بها، احتلت الكثير من أوقات شروده وخُيِّل إليه أنه يجلس بجوارها ويرتدي البدلة السوداء وهي ترتدي الفستان الأبيض وتتمايل أمامه وترقص، خُيِّل إليه أنه يركض خلفها من غرفة إلى أخرى، ابتسم عندما تراءت أمام ناظريه ابتسامتها العذبة.. رفع رأسه عاليًا عندما خُيِّل إليه أنها تنادي اسمه بصوتها الموسيقي الرنان، خيل له أن بطنها انتفخ ويحمل ولده في أحشائه، وأن حياته تمر أمامه في تلك اللحظة التي مرت من أمامه، لم يلاحظ أن صالح يقف خلفه خافيًا ابتسامته الهازئة، تركه ينعم بتلك النظرات للحظات ثم أخرجه من خياله بصرخةٍ أسقطت قلبه.

قالت مهجة وهي تفتح باب شقتها لسوزان:

- أنا ملاحظه إن أبويا متغير الفترة اللي فاتت يا سوزان، لا بياكل ولا بيشرب ولا بينام كويس؟ في حاجة شغلاه بس مش عارفه إيه هي؟

- سيبه على راحته، حاولي متضعطيش عليه، حمله تقيل.

خلعت مهجة عن جسدها عباءتها السوداء وحلت غطاء رأسها وجلستا على الأريكة تتابعان الحديث:

- ده حتى مش بيتكلم معايا زي الأول، كان دايمًا يفضفضلي ويقول لي نفسه ياكل إيه، ويسألني عن الجامعة وعن الشغل، وكإن حبل الود اتقطع فجأة، أنا خايفه عليه ليحصله حاجة؟

- بعيد الشر عنه يا مهجة، فترة وتعدي، انتِ مكبرة الموضوع شويتين، والدتي الله يرحمها كانت دايمًا تقول لي الراجل إذا متكلمش لوحده سيبيه، مَتزَنَقيش عليه، هو هيتكلم لوحده، وحاولي تبعدي عنه لما يكون متنرفز، وأنا بقلك سيبيه براحته، هو عارف إنك موجودة وإنك بتعملي الأكل اللي بيحبه وبتذاكري كويس وشغلك تمام، ده في حد ذاته مُريح ليه، طول ما انتِ مبسوطة هو مبسوط حتى لو مبينش حبه ليكِ، انتِ بس اهتمي بنفسك وهو هيكون سعيد، وبلاش تعيطي قدامه أو تبيني إنك لسه مهمومة علشان ميزعلش ويشيل همك، اتفقنا؟

- ربنا يسهل يا سوزان، بكره هستنى نروح الشغل سوا، مفيش جامعة.

- طبعًا هكلمك قبل ما اخرج من بيتي.

- انتِ مش بتخافي وانتِ مروحه لوحدك والدنيا ضلمة؟

- وأخاف من إيه؟ ده أنا بميت راجل، سلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قبل أن تخرج الشمس من مكمنها نهض ماهر فزعًا على رنات الهاتف، أزاح الغطاء عن جسده وتوجه مسرعًا ورفع السماعة، كان حسام على الطرف الآخر، طلب منه الحضور.

اغتسل ليزيل بقايا النعاس المتبقية من أثر نومًا لم يهنأ به، وارتدى ملابسه وطبع كعادته قبلة على جبين منى وغادر متوجهًا إلى مكتب حسام.

في الخارج كان الجو باردًا مكسوًا بطبقة دبقة كثيفة من الضباب، لم يعجب يومًا بمثل هذه الأجواء، كلما اقترب الشتاء كلما ضاق صدره، لا يحب شعوره بالبرد وحتى لا يشعر بالبرد كان مجبورًا على ارتداء ملابس كثيفة.. وكم يمقت تلك الجاكيتات الثقيلة التي تشعره بالاختناق، لم تدُر سيارته من النقرة الأولى بسبب عطل في محركها، دارت بعد المحاولة الرابعة.. يعلم أن بداية يومه لن تكون مُبَشِرَة.

فتح باب مكتب حسام، وجده مستلقيًا على الأريكة عاقدًا يديه إلى صدره وفاتحًا فمه كالأبله، ومغمض العينين، ربما كان يحلم بليلةٍ هانئة يقضيها بين أحضان إحداهن، تردد في إيقاظه للحظات، ولكن سرعان ما امتدت يده لتدفعه من كتفه.. لم ينهض من الدفعة الأولى بسبب إرهاقه الشديد، أزاح قدمه لتسقط أرضًا على إثرها نهض حسام جزعًا مرتبك. فرك عينيه وتثاءب بقوة وطلب فنجاني قهوة.

قال بصوتٍ مبحوح من كثرة الدخان:

- قبضنا على صابر وخالد، ونهض من فوق الأريكة وضرب قدمه بالأرض ليزيل منها الخدل، وتابع يقول وهو يعدل من هندامه: كانت عملية سهلة، عبد الرحمن اتعاون بشكل كويس، أما عيال بنت كلب.

لم يعلق ماهر واكتفى بهز رأسه..

نادى حسام على سمير بعدما غسل وجهه، فحضر وهو يمسك أحدهم وتركه يقف أمام المكتب، وجلس بجوار حسام لتدوين أقواله كالعادة، كانت ثياب المتهم قد ترك الزمن عليها آثاره من قذارةٍ وتمزُّقٍ ورائحة تقتل الذباب الطائر، وكانت آثار التراب ما زالت على شعره نتيجة محاولته الفرار وتعثره في الرمال، كانت شفتاه متشققتين وجافتين، عيناه حمراوان، علاوة على بعض الندوب التي سكنت وجهه، أراد الجلوس، ولكن حسام صرخ فيه، طالبًا منه الابتعاد عن المكتب.

وقف دون حراك، وشرع حسام في استجوابه:

- قول يا خالد.. قول متخافش محدش هيمد إيده عليك زي ما عملنا مع اللي قبلك، قول لي ازاي اغتصبتم البنت ومين كان معاك؟

التفت خلفه في توجسٍ وريبة، حدق لماهر الذي كان غائصًا في الأريكة يمج سيجارته في هدوء، أشار إليه بيده لينظر أمامه، طاوعه مكرهًا.. وقال بصوتٍ متعب بعدما تنحنح كأنه سيُلقي خطابًا أمام العامة:

- قبل عشر شهور أو أكتر يا بيه يعني كده قبل نص الليل، متآخذنيش يا بيه في اللي هقوله، كنا شاربين وطافين، كنت أنا والواد عبد الرحمن وصابر، وكان الشارع ضلمة، وحصلت معانا حاجة غريبة يا بيه، يعني كده زي ما تقول هيجنا كلنا مرة واحدة، واقترح علينا صابر ندور على بنت نتسلى عليها، وفجأة طلع إبراهيم من جيوبه شرابات حريمي ووزعها علينا، طبعًا أنا كنت بحب المغامرات يا بيه، مين فينا مش بيحب المغامرات..

وضحك في سذاجةٍ مفرطة كان يتحدث بكل وقاحة، كأنه يروي اعترافه على قسٍ ويطلب منه الغفران والتوبة، على أثرها نهض ماهر مُسْتَفَزًا وضربه على قفاه بكل قوة.. مما أجبر خالد أن يتقدم خطوتين نحو مكتب حسام وتملكه الدوار للحظات وتقافزت أمامه نقطٌ لامعةٌ متوهجة سرعان ما تلاشت وهو يتحسس قفاه الساخن مكان ضربة ماهر، وقال ماهر في حدة:

- إياك أشوف سنانك تاني بلاش أخليك تلمهم سنة.. سنة، مفهوم؟

أومأ رأسه في خنوعٍ موافقًا.

طلب منه حسام متابعة اعترافه، فتابع قائلًا وهو يسترق النظر بطرف عينيه للخلف تخوفًا من ضربةٍ جديدة مباغتة:

- لبسنا الشرابات، وصابر لبس قناع اسود يا بيه، وفجأة طلع فوقها وربط إيديها، أنا فارت النار في عروقي الواد عبد الرحمن كان بيراقب المكان علشان لو حد ظهر فجأة، وبعدين مسك صابر بكيس زبالة وسخ وحشره في بقها، واستنينا لحد ما قفل الراجل العجوز الدكانة، وبعدين ضربتها على راسها وفجأة غابت عن الوعي.

صرخ حسام قائلًا:

- فين القهوة؟ كمللل.. انت متقفش خالص.

بلع خالد ريقه بصعوبة خوفًا من صوت حسام الذي هز الأرجاء وتابع:

- بعدين سحبناها لمقلب الزبالة، حتة ضلمة.. وبعدين صابر هجم عليها وشق توبها واغتصبها وأنا اغتصبتها والواد عبد الرحمن عراها من صدرها.

- غور من قدامي.

صرخ به حسام.

وفي داخل الحبس، كان الجميع في انتظاره..

طلب من سمير إحضار صابر..

تملكت سمير الحيرة عندما رأى صابر وقد تغيرت ملامحه، كان وجهه ملطخًا بالدماء، وأنفه مكسور، وحالته يُرثى لها، فقد أذيع الخبر بين جدران السجن، أن مغتصبي الفتاة التي انتحرت موجودون داخل السجن، لو دبت الروح في الجدران لانقضت هي الأخرى عليهم واعتصرته كما يُعتصر الزيتون.

كان صابر يسير كسيارة ثُقبتْ إطاراتها، يعرج على قدمه اليسرى..

هاتف حسام مديره وأخبره بآخر المستجدات بخصوص التحقيق في جرائم الاغتصاب، وأن الأمور أوشكت على الانتهاء، طلب منه مديره الحضور طرفه في حال انتهائه من التحقيق.

- تعالى يا صابر.. انت مش أبوك في السجن في قضية مخدرات؟

- أيوه.

- شكلكم عيلة كلها سوابق وبتحب السجن، انت عارف إن البنت اللي اتسليتوا عليها انتحرت.

ظل صابر ساكتًا.. كان الأنين الصادر عنه نتيجة جرحٍ غائر في قدمه يتردد صداه في المكان، أخذت قدمه السليمة تتأرجح وتميل بسبب طول مدة وقوفه عليها، أصابت قدمه الإرهاق والتعب فأجلسه سمير بعدما أذن له حسام، انتشرت الخرابيش في وجهه ورقبته، وحرقٌ صغير فوق حاجبه الأيسر، كما لو كان عقب سيجارة قد غُرِس في جبينه، وكانت ثيابه ممزقة، ومن أسفل ملابسه الممزقة ظهرت تقرحات ودمامل ذات رؤوسٍ بيضاء مقرفة، كان منهارًا داخليًا ومحطمًا، وشعوره بالضعف يزيد من قهره، كان مستسلمًا جراء حمى أصابته، عصفت به، تحدث دون وعي، كان يهز رأسه كلما تحدث إليه حسام، واجهه حسام باعترافات خالد وعبد الرحمن، فلم ينكرها، بل إنه أضاف بأنها لم تكن الجريمة الأولى.

صمت صابر ولم يستطع الحديث.. وكلما مر الوقت كان صمت صابر يزيد من غيظ وضيق صدر حسام، إذ لم يعد لديه صبر لسماع قصص أخرى، كان متلهفًا لاطلاع مديره بما أنجزه، يعلم أن مديره ينتظر على أحر من الجمر القبض على هؤلاء المغتصبين.

- اللي قابلك كانوا شاكين، مش عارفين كام مرة اغتصبتم مع بعض بس انت هتقول عددهم بالضبط.

لم يذكر أي من المتهمين السابقين أي شيء عن جريمةٍ أخرى، ولكنه لن يظهر نفسه بمظهر الجاهل بالأمور كيف وهو المتحكم المتنفذ في المكتب، فكذب على صابر ليخدعه، فقال صابر كسكران:

- كانت تلات أو أربع مرات، بس صدقني يا بيه أنا مش فاكر أي حاجة.

نهض حسام وتقدم نحوه وحدق إلى قدمه كمن يرسل له رسالة تهديد قبل أن يزداد حنقه وسخطه، لم يهتم صابر لنظراته ورمقه بنظره غريبة لا تدل على شيء، أقدم على تهديده.. ضغط بقدمه على جرحه الغائر حتى يتذكر.

سحب قدمه وهو يئن وقال:

- اغتصبنا تلات بنات يا بيه.

- مين انتم، اتكلم قول؟

- أنا وخالد، وإبراهيم، ورابعنا كابوس.

- كابوس؟

حدق إلى ماهر غير مصدق بفمٍ فاغر..

- أيوه يا بيه.. كابوس، أبو جرح في رقبته، اللي شبه المصارعين، أكيد تعرفه؟

تمتم بصوتٍ يكاد يكون مسموعًا:

- هو مش انتحر؟

- لا يا بيه، منتحرش، وينتحر ليه! ده بيعمل اللي هو عاوزه ومحدش بيحاسبه.

- كمل يا ابن الكلب.

دفع بجسده عنه تجنبًا لرائحته الكريهة وانتقل وجلس خلف مكتبه وحدق لماهر الذي احنى ظهره واسند كوعه على ركبته محبطًا مما كانت تتلقفه أذناه من بشاعة.

- وبعدين؟

قالها حسام.

- أبدًا يا بيه، كنا بنغتصبها واحد ورا التاني.

- وكابوس اش دخله على شغلكم؟

- أبدًا.. كابوس كان بيمهد الطريق قدامنا، يعني كان يجهز الجثة، يضربها أو يشممها المنوم ويربطها واحنا نكمل شغلنا، ويفضل من بعيد يراقب لحد ما نخلص.

لم يكن صابر يملك الطاقة على لجم لسانه أو التحكم في حركاته رأسه ورقصات يديه، كان يتباهى بما يقول كأنه لم يعد يهتم بأي عقاب يهبط عليه من السماء أو يأتيه من البشر، وربما للحمى دور في هذيانه، وتابع يقول بكل فخر:

- بس عارف يا بيه، آخ لو تجرب الاغتصاب!

رفع رأسه ماهر وحدجه بغضب، أشار له حسام بأن يجلس قبل أن يُقدم على فعلٍ أهوج ورفع سبابته إلى فمه إشارة منه بالسكوت، امتثل له ماهر حتى أنه أغلق خلفه الباب وغادر المكتب، تابع صابر:

- لو كنت جربت الاغتصاب ولو لمرة واحدة عمرك ما تسيبه، إدمان.. أه والله، بتحس برجولتك وبعظمتك وهي تحتك بتنازع، زي الفرخة قبل ما تدبحها، بتحس بطاقة وقوة ملهاش حل وخصوصًا لما تلبس القناع، بتحس إن محدش طايل راسك، بتحس إنك أقوى من كل الناس، عارف البت الأخيرة اللي اغتصبناها؟ أنا عرفت إنها انتحرت مزعلتش عليها، عارف ليه؟ لأنها انبسطت قبل ما تنتحر، حد يقول للمتعة لا يا بيه، وبعدين الستات ربنا حللهم، نعمل فيهم اللي احنا عاوزينه، خليني أكملك.. أحلى ما في الموضوع إنك لما تغتصب واحدة بِكْر يا بيه، جديدة كده وإنت أول واحد يلمسها تخيل المتعة.. أه والله، جربها ومش هتندم، هتدعيلي.

ثم ابتسم في نشوةٍ وسعادة..

- خده يا سمير من قدامي.

فتح حسام في غضب بعض الملفات الملقاة أمامه، تفحصها بسرعة، لقد قرأ اعترافًا بأوصاف تشبه أوصاف كابوس، أخذ يقلب الصفحات بكل تركيز، لم ينسَ موعده مع مديره سالم توفيق، وصل في الملف الذي يقرأه إلى جملة تقول: "راجل طويل القامة ووجهه مخيف مفزع ضربني على رأسي، ومن بعدها لم أر خير".

دون رقم الملف على ورقة خارجية، تناول ملفًا آخر، قرأ فيه نفس الوصف تقريبًا، ولكن طريقة فقدان الوعي مختلفة، "كان يحمل في يده منديلًا وضعه على أنفي وأفقدني الوعي".

استخرج ثلاث ملفات أخرى، كلها بها نفس الوصف.

توقف أمام الباب وقرأ على لوحة نحاسية، المقدم "خالد توفيق، مدير المباحث جنوب الجيزة". طرق بخفة وسمع صوتًا جهوريًا في الداخل دعاه للدخول، جلس أمام مديره "سالم توفيق" ذي الواحد والأربعين عامًا، شعره كالعشب المجزوز، توجد ندبة على صدغه الأيمن، يمتلك عينين واسعتين قريبتين إلى لون السواد تلمعان بثقة وذكاء، ثيابه أنيقة، جاد، رزين، قليل الكلام.. في أثناء تناولهما القهوة، حدثه حسام عن آخر التطورات، كان سالم يستمع إليه بكل تركيز، لم يغفل حرفًا واحدًا، تركه ينهي حديثه، ثم قال له:

- أكيد يا حسام عنده معلومات كتير، حاول تضغط عليه، حاول تخليه يطمن لك، يعني قوله هنخفف عليك الحكم لو تعاونت معانا، فاهمني؟

هز رأسه مبتسمًا.

- وبعدين كابوس شكله بينقل الأخبار لحد.

- مش فاهم يا بيه؟ قصدك إيه؟

- يعني شكله يا بيشتغل مع حد يا الراجل عنده مرض نفسي، لازم نقبض عليه علشان نفهم.

- قال حسام في سره: "وابن الكلب ده نلاقيه في أنهي مخروبة.

- يلا عشان اللواء مستنينا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5

كانت نسمات الهواء تلهو بورق الشجر وتنقله من رصيفٍ إلى آخر، وقرص الشمس تحدق إليه دون أن يصيبك بالدوار، كانت سيارة المرسيدس تقف منتظرة كأسدٍ رابض، تمنى حسام واحدة مثلها ليتباهى بها أمام أصدقائه وتزيد من هيبته أمام الناس، خطا خلف مديره بخطواتٍ واثقة لم يشعر بها من قبل كما لو أن مديره زاده عزةً وشموخ، كان حسام حائرًا في سبب تلك الزيارة المباغتة وأخذ يتساءل: "هو عوزني ليه؟ معقولة علشان لساني السليط؟ معقولة في حد نقلهم كلامي اللي بوصف بيه جبنهم؟ هتنكر يا حسام ولا هتثبت على كلامك؟ أنا حسام ومش هنكر اللي قلته، هقولهم كل اللي بفكر فيه واللي يحصل يحصل، هقولهم ليه قفلتوا قضية البنك؟ القضية انقفلت زي القبر، محدش بيتلكم عنها، كأنها محصلتش، هما خايفين من إيه؟!".

من صفات حسام أنه صريح؛ صراحته تصل إلى حد الوقاحة أحيانًا وإصابة من أمامه بالغضب، لا يخشى أحد ولا يتهاون في قول الحقيقة مهما كلفه الأمر، لطالما لام نفسه على وقاحته في قول الحقيقة؛ كلفته كثيرًا، كانت سببًا في نفور الناس منه، حاول كثيرًا أن يتحكم في كلامه، ولكن دون جدوى، كان كلامه يخرج دون سابق إنذار وليحدث ما يحدث.. استغنى عن الناس كلهم بماهر، كان صديقه الوحيد الذي تحمَّل تصرفاته التي كثيرًا ما تخرج عن المألوف، رغم نصحه المكثف والمستمر له فلم يكل ماهر أو يمل من حسام.

ولكنه مع النساء رجلٌ آخر، رجل من عالم آخر، شاعر فيلسوف يخطف قلوبهم بالكلام المعسول الرقيق، يتسلل إلى قلوبهن كالنسمة وينال مراده كالطفل المُلِح.

جلس بجوار مديره، وأخذ يجول بناظريه في أرجاء صالون السيارة الفاخر، طربته رائحة جلد المقاعد، كما لو كان عطرًا أنثويًا، قارن الراحة بين مقاعد سيارته الفيات وبين مقاعد المرسيدس، قال في سره: "سيارتي زي اللي بينام مع واحدة رجليها والقبر والمرسيدس زي اللي بينام مع واحدة ست عندها عشرين سنة وشتان بينهما، لم يشعر بالطريق ولم يسمع صوت المحرك، كان كل شيء صامتًا هادئًا عدا عقله.

وصلا إلى مبنى مديرية الأمن، انتفض قلبه الذي لا ينتفض إلا نادرًا، وشعر بألم في معدته كأن أحدهم وجه إليه ضربةً قوية، وسرعان ما تلاشت الثقة وحل محلها التوتر والشك، تملكه شعور بأنه ذاهب إلى التحقيق. صعدا عدة درجات دون وعي، ودلفا إلى داخل المبنى.. رأى حسام وجوهًا لم يألفها، بدت كأنها لم تذهب إلى كلية الشرطة! وجوه ناعمة مبتسمة لا يليق بها العمل مع العامة، ولن تتحمل حرارة الشمس، عدل هندامه، توقف جانبًا وتناول منديلًا من جيبه بصق عليه ومسح به مقدمة حذائه.

بجوار الباب نهض العسكري ما أن رأى المقدم متوجهًا نحوه.. فتح العسكري الباب وحَيّاه، دخل حسام، ووقف بجوار سالم، لاحظ فرق الطول بينه وبين سالم الذي كان أطول منه بعدة سنتيمترات، تقدم سالم وصافح والده، وكذلك فعل حسام وهو يحاول إخفاء ارتباكه، صافحه اللواء بحرارة وشد على يده بقوة، وربت على كتفه بلطف وطلب منه الجلوس وهو يبتسم بصدق.

وقال بصوتٍ خشنٍ مبحوحٍ اكتسبه من كثرة الدخان، وأخذ يعدل من وضعية مقعده:

- أعرفكم على رجل الأعمال "حسين" صاحب شركة المقاولات المعروفة.

مد حسام يده مصافحًا، شعر بنعومة ولزوجة وكأن يد رجل الأعمال من مخاط، أو كأنه أمسك بقنديل بحر! كان وجه حسين الأسمر الداكن المربع يفصح عن حماقة وعَتَه، كان خشن الشعر، عريض الجبهة، عريض الحاجبين، غليظ الشفتين، وشفته السفلى متدليه كأنها قطعة زائدة، وعينه اليسرى بها بقعة دم حمراء تتحرك كلما تحركت حدقة العين، أفطس الأنف، وبارز الفك وأسنانه بنية اللون، ابتسامته كانت تحمل نوعًا من أنواع البلاهة والعَتَه، وكانت رائحته كريهة.

سأله اللواء بنبرة تشي بسعادةٍ ممزوجة بقلق:

- إيه أخبار الشغل يا بطل؟

أجابه حسام:

- الشغل تمام، الحمدالله، لـ...

قاطعه اللواء وهو يتناول سيجارة من علبة المالبورو قائلًا:

- قول لي إيه أخبار قضايا الاغتصاب؟

جاوبه حسام بعدما تنحنح وجلس على طرف المقعد لينظر إلى اللواء الذي يجلس أمامه لأول مرة:

- لسه شغالين معاليك.

سأله اللواء:

- المتهمين اللي قبضتم عليهم؟

حدق ماهر للشرر المتطاير من فوهة القداحة متخيلًا نفسه يجلس مكان اللواء.. وسرعان ما تلاشى الشرر وأنصت لكلام اللواء:

- اعترفوا بكل القضايا؟

- اعترفوا معاليك، بس لسه في متهمين بندور عليهم.

- كويس أوي يا حسام، قول لي يا بطل، اللي قبضتم عليهم إيه أوضاعهم؟ مسجلين خطر ولا لسه جداد؟

- كلهم مسجلين خطر ماعدا شخص واحد...

صمت، ثم حول نظره إلى رجل الأعمال حسين، الذي كان يحدق إليه بنظراتٍ مريبة بلهاء، لاحظ قدمه التي تهتز في انفعال، ويديه متشابكتان فوق كرشه المتدلي.

سأله حسين:

- سكت ليه يا بيه؟ كمل؟ ولا كلامك سر؟!

نظر حسام إلى اللواء، وكأنه يريد أن يأخذ الإذن في استكمال كلامه، بعد إيماءة من اللواء، تابع كلامه:

- في واحد اسمه خميس، ولقبه الكابوس.

كان حسين ينظر إلى الأسفل عندما قال بصوتٍ خشن مبحوح:

- اسمه "خميس عطية".. ثم رفع نظره إلى حسين في تحدٍ وابتسم في مكرٍ مفضوح وتابع: ولقبه كابوس، وفي جرح في رقبته، جرح طويل.

حول نظره إلى اللواء وأضاف:

- هو ده اللي قلت لك عليه، هو اللي سرق مصنعي وسرق خزنتي، لازم نقبض عليه يا حسام، فاهم؟

أطلقت عينا حسام رصاصاتها التي أصابت حسين في مقتل، لكم أراد أن ينهض ويشبعه ضربًا.

رفع اللواء يده تجاه حسين طالبًا منه السكوت.. وقال:

- شكرًا ليكم يا رجالة. اتفضلوا انتم.

بمجرد خروج حسام من المكتب، أشعل سيجارته في نرفزة شديدة، وسحب منها عدة أنفاس متلاحقة سريعة باضطراب، كان ينفث دخانه كقطار يسير خارج القضبان، تساءل: "من أنت يا حسين؟".

سمع صوت إغلاق باب، نظر خلفه فوجد حسين وقد ترك اللواء وحيدًا وقد كشف عن قصر قامته وبدانته، وبدلته غير المتناسقة على جسده الممتلئ، كانت أكبر منه حجمًا، ومترهلة كأنه ارتدى ثوب عملاق.

أكمل حسام سيره في عصبيةٍ وما زاد من عصبيته أقدام حسين المتلاحقة التي كانت تضرب الأرض بشدة، محاولًا اللحاق بهما. لم يعره انتباها، وواصل هبوط السلالم حتى خرج من المبنى، كان سالم مشغولًا مع أحدهم.. توقف حسام عند بداية الدرج وانتظر حسين، وحين اقترب، حدق فيه حسام كما لو أنه لم يرَه قبل دقائق:

- جاي بتاكسي ولا مشي يا حسين؟

- حسين بيه لو سمحت.

- شكلك يفكرني بخدام أو بواب كان بيظهر في المسلسلات.

- انت مش خايف أطلع للوا وأقول له إنك بتبهدلني؟

- إذا انت مش قادر ترد على إهانتك، يبقى انت فعلا زي ما قلت.. وبعدين البدلة دي انت شاحتها من حد، دي بتاعة فيل!

حدق حسين في وجه حسام بقرف كمن غاص في الوحل، وغادر دون كلمة، متمايلًا كالبطريق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مهجة.. كانت تتنقل كالنحلة لا تكل ولا تمل، تحاول إشراك نفسها في أي حديث حتى تبتعد عن أي ذكرى يمكن أن تعكر صفوها، كانت تفرغ طاقتها المكبوتة داخل الكوافير، طاقة مظلمة سكنتها من يوم وفاة جدتها، كانت تهرب من العبوس أمام الزبائن، تبتسم رغمًا عنها حتى لا تفقد مكانتها المهمة وتجنبًا لخوض أي محادثة عن سبب عبوسها، حاولت الاستمتاع بيومها وكانت سوزان تنصحها بوضع أحمر شفاه ليخفي تشققات شفتيها ولكنها كانت ترفض في كل مرة، حتى أنها رفضت وضع مساحيق تجميل لتخفي شحوب بشرتها، امتنعت عن وضع الكحل في عينيها حتى لا يختلط مع أي دمعة حبيسة تخرج دون استئذان، بعض أوقاتها كانت تمر بسرعة وبعضها كانت تمر بطيئًا وأحيانًا كانت تستأذن للمغادرة باكرًا لقضاء أمرًا ما، كانت تأنس بحضور منى، كانت تجد فيها مثال المرأة المثابرة والكادحة والزوجة الوفية، كانت مثالًا لها وتأخذ برأيها في بعض الأمور الجامعية.. نصحتها بدراسة القانون لتعمل معها في يومٍ من الأيام.

على حين غرة راودها تساؤلٌ غريب، لا تعلم سبب هذا التساؤل ولماذا هذا الوقت تحديدًا راودها؟ هبط عليها كزائر يأتي دون سابق ميعاد أو معرفة حتى، ذهبت إلى الحمام حتى لا يسألها أحد عن شرودها المفاجئ وأغلقت الباب خلفها وقالت: "ازاي سوزان فتحت صالون التجميل؟ منين جابت الفلوس؟" خاصةً أنها تعلم حالة عائلتها المادية الصعبة، وتعلم طبيعة المرض الذي أصاب والدتها واستنزفهم ماديًا، وكل ما تركه لها والدها شقتها التي تسكنها، "في حاجة غلط في الموضوع، بس إيه هي؟ معقول استلفت من حد؟ بس مين اللي هيسلفها؟! كل أهل الحي على باب الله، والوحيدة اللي ممكن تسلفها هي جدتي الله يرحمها".

استغفر الله العظيم يا رب.. حاولت جمع شتات أفكارها وخرجت من الحمام ولكن دون فائدة.. وظل سؤالٌ وحيد مسيطرًا على تفكيرها:" كيف وفرت سوزان المال اللازم لافتتاح الصالون؟" كانت في حيرة من أمرها، وسيطرت عليها أفكارٌ ووساوس لا حصر لها.

استأذنت مهجة في الانصراف متعللة بإرهاقٍ شديد أصابها، استقلت سيارة أجرة عائدة إلى بيتها وهي في قنوطٍ شديد، فتحت حقيبة يدها التي بداخلها القليل من النقود وبطاقتها الشخصية وكذلك كيس من المناديل، وشريط مسكن للآلام، وزجاجة عطر، ودبابيس للشعر، ولوح شوكولاتة - تعشق الشوكولاتة - وصورة لوالدتها وهي في ليلة زفافها، ما زال الفستان في خزانة والدها يحتفظ بذكرى تلك الليلة ويحمل عبقها.. ستجري عليه بعض التعديلات وترتديه يوم زفافها، ستكون مفاجأة جميلة جدًا لوالدها، كان في الصورة جدها "غنام" وجدتها "فريدة"، وجدتها "مهجة" والدة والدها وجدها "مأمون"، لا تتذكر جدتها مهجة، فقد توفيت بعد الزفاف بشهر، وسمعت من الجيران أن جدتها مهجة كانت تداوي جميع أبناء الحي ويقول البعض إنها مَن علّمت "الست أم حسن الداية" التوليد، وأنها كانت طباخة ذات صيت، وخصوصًا في الحلويات، وقد ورثت عنها مهجة ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نظر ماهر إلى ساعته التي طالما اعتنى بها فقد ورثها عن جده لأمه، والذي فضله عن باقي أحفاده لأنه حمل ملامح وجهه وبعضًا من طباعه، إبزيمها من الجلد الأسود وعقاربها ذهبية اللون، وإطارها أيضًا، ولكن بعض الخدوش ظهرت على سطحها الزجاجي.

تلقى قبل ساعة تقريبًا مكالمة من حسامٍ طلب منه أن يلتقيه في شقته، تشير العقارب إلى الخامسة والنصف مساءً فقرر المغادرة فلم يتبقَ على موعده مع حسام سوى نصف ساعة، قبل مغادرته المكتب هاتف زوجته واطمئن عليها وأخبرها أنه سيتأخر بسبب ظروف العمل، وفكر في مهاتفة والدته التي لم يسمع صوتها منذ فترة طويلة.. اتصل ولكن لم يجِب أحد على الهاتف فتناول ولاعته وعلبة سجائره وغادر مكتبه.

توجه إلى منزل حسام، في وسط البلد، المنطقة التي يسكنها حسام هادئة رغم وجود عدد لا بأس به من المقاهي حولها، انعطف يمينًا إلى مدخل العمارة التي يسكنها حسام وصعد الدرجات بسرعة، طرق على الباب.. كان الباب موارِبًا، فدخل ونادى على حسام، جاء صوته بعيدًا كما لو كان في قبو، كان حسام يغتسل تحت الدش، تاركًا للماء البارد أن يخمد حرارة جسده.

خرج ماهر إلى الشرفة المطلة على الشارع، على يمينه كانت تقف نخلة، مد يده محاولًا أن يلمس سعفها، ولكنه لم يستطع، خُيل له أنها قريبة ولكنها كانت بعيدة، أشعل سيجارة واتكأ بيديه على الدرابزين الحديدي، وبعد دقائق من انشغاله بمراقبة سرب من الحمام يحلق في سماء تلبدت بالغيوم فجأة، جاءه صوت حسام من الداخل، وظهر وهو يلف جسده ببشكير وقطرات الماء تتساقط من على جسده تاركة أثرًا على البلاط:

- نعيمًا يا عريس، شكلك كنت مشغول؟

- انت عارف إنه تضييع الوقت مش في قاموسي، خصوصًا إن الشتا ع الأبواب.

- قول لي إيه الموضوع المهم؟

توقف حسام بجواره، تحدث حوالي عشر دقائق متواصلة أخبره فيها عن رحلته اليومية:

- خزنة؟ سرق خزنة؟

- أنا سألت زمايلي عن أي شكوى ضد خميس عطية بس ملقتش، ممكن حسين يكون بيكدب.

- وإيه اللي يخليه يكدب؟ مش يمكن مقدمش شكوى من أصله، خصوصًا إنه كان بيشكي للوا، وبعدين إيه اللي يخلي اللوا يسأل عن قضايا الاغتصاب، يعني شغلاه أوي حكاية الاغتصاب وحكاية المتهمين يا حسام؟

- قصدك إيه؟

نظر إليه من طرف عينيه في شك:

- قصدي إن ممكن يكون في حاجة احنا مش عارفينها، يمكن يكون سرق خزنة فريدة.

- خلاص انسى فريدة وقضيتها، انت اتحرمت منها.

- أنساها؟!

- اسمعني يا ماهر.. أنا جعان هغير هدومي وبعدين نتكلم.

لا يستطيع حسام أن يفكر وهو جائع، فإذا حدثته ومعدته فارغة ستنتزع منه الكلام انتزاعًا.. يكون جسده وعقله في وضع الخمول، بعد تناول الطعام ينطلق كما الرصاصة، تحين ساعة العمل والجد وتتفتح عيناه وتشتعل، ويشتغل عقله وتعود له ذاكرته، لا يحب الحديث عن القضايا كثيرًا، فهناك أمور أخرى مهمة.. المزاج أهمها، أحيانًا يُفرط في تناول الكحول وعندما يصل إلى تلك المرحلة التي تتلاشى عندها حدود كل شيء، يصبح حسام في أوج نشاطه وحماسه وتدب فيه حياة أخرى.. حياة لا قانون لها ولا حدود تحكمها، كل شيءٍ فيها مباح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلس يحيى على المقهى ينتظر عودة سوزان من "سبائك الحرير"، لم يفارق مخيلته ذاك الجسد المثير، المشدود، كان خياله قد قطع شوطًا لا بأس به في رسم صورة عن جسد سوزان، زارته عدة مرات في منامه وكانت تنهي أحلامه نهاية سعيدة كما كان يرجوها، وعلى إثر تلك الأحلام كان يغتسل وتاركًا المجال لعقله لإعادة بقايا حلمه مرارًا وتكرارًا، كم أراد أن يتحقق هذا الحلم، يطرق إصبع يده بقوة على الطاولة، وعينيه تراقب المارة تتوارى خلف قناع، طالت جلسته وكلما طالت كلما ارتفع مؤشر التوتر لديه وزادت طلباته من بين شاي وقهوة - وهو في طبعه بخيلًا - احتسى شاي وفنجان قهوة وتناول فنجان القهوة بعدما أقنعه الصبي أنه على حساب المقهى، بدأ يدب الشك في قلبه: "معقول رجعت من غير ما انتبه؟"، صعد الدرجات مسرعًا، طرق على باب شقة صالح، انتظر وانتظر.. أطلت مهجة من خلف قضبان الحديد وأخبرته أن سوزان ما زالت في العمل.

عاد وجلس مكانه، حدق إلى فنجان القهوة، كان فارغًا، ضرب على الطاولة بيدٍ من حديد، تملكه الغيظ.. "خلص امتى؟".

كان يتلفت يمينه ويساره كالمخبر وينظر هنا وهناك، فكر أن ينهض ويتفقد الشارع ولكنه تراجع وخاف أن تأتي في لحظة غيابه، زاد توتره وحيرة أمره: "هي فين بنت... بلاش نشتم أمها، ربنا يرحمها خلفت فرسة"، ثم حدث نفسه مبتسمًا: "بس لازم أبهدلها وتعرف حدودها كويس، أنا مش طرطور". تناول سيجارة قد أخفاها في جيب قميصه، تناولها في حذرٍ وعدل ثنيتها وأشعلها وأخفاها في راحته، كان يسترق أنفاسها خوفًا من أن يراه صالح، ينفخ دخانًها بين قدميه، لم يمضِ الوقت سريعًا حتى احترقت بسرعة، شعر بدوارٍ لطيف خفيف في رأسه وراودته فكرة.. نظر حوله، ولما كان الجميع مشغولًا، تناول كأس الماء وصب القليل منه في فنجان القهوة، ارتشف رشفة من فنجان قهوته: "يا حيوان القهوة سادة وأنا طلبتها مظبوطة"، سرعان ما حصل على فنجان جديد! أخفى ابتسامته في مكر.. بعد لحظات ظهرت سوزان.. بلع ريقه..

اقتربت سوزان وهي تتبختر، كانت أعين الجالسين تلتهمها، فار صدره، واضطرب تنفسه.. تملكته الغيرة، لم يستطع إبعاد أعين الناس عنها، اكتفى بالتحديق إلى الرجال وهو في حيرة من أمره.

دخلت سوزان إلى العمارة لتطمئن على مهجة، نهض خلفها، استوقفها في منتصف السلم وقال في تلعثم:

- الوقت... أه الوقت.. وبلع ريقه وتابع متجنبًا النظر إلى عينيها التي زادت من ربكته: الوقت نص الليل.. كنتِ فين؟

صمت تكاد من خلاله سمع أنفاسه وضربات قلبه القوية، فقالت بما تجيده من دلال:

- أنا كنت في الشغل.

- طيب.

رفع نظره للحظة إليها، كانت تقف أعلى منه بدرجة.. كم كانت قريبة هذه المرة، كاد وجهه أن يُغرس في صدرها لولا أنه نزل درجة محمر الوجه ومتعرق الجبهة، استدار فجأة ولم يعد يقاوم التوقف بجوارها فقد كانت كالرمال المتحركة تبتلع كل شيء.

- قال بلهجةٍ آمرة: البسي هدوم واسعة، وبلاش الروج اللي على... توقف لهنيهة ومن ثم أضاف: متتأخريش مرة تانية.

- استنى؟

خفق قلبه وكاد يُغمى عليه عندما طلبت منه التوقف.

- انت مالك ومال لبسي؟ ألبس زي ما أنا عاوزه؟

قالتها وهي تحاول سبر أغواره.

- يعني عجبك الرجالة وهي بتبص عليكِ؟

لم يلتفت إليها وزفر زفرة قوية.

- كل الرجالة بتبص حتى لو لبسنا شوال، ولا انت مش راجل؟

- أنا بألف راجل.

- يعني بصيت ألف عين.

تقدم خطوتين ولما لم يسمع منها أي خطوة قال:

- هستناكِ عشان أوصلك، عيب تمشي لوحدك في الضلمة.

ابتسمت وتابعت صعودها، ثم طرقت سوزان على باب بيت مهجة، انتظرت للحظات قبل أن تفتح لها، دخلت وتوجهت إلى أريكتها التي احتلت وسط الصالون.. جلست أمامها مهجة وقالت في تردد واضح:

- سوزان.. أنا كنت عاوزه أعرف حاجة كده شغلاني.

- يا ساتر يا رب، قولي في إيه؟

سكتت مهجة مترددة في طرح سؤالها خوفًا أن يُسبب لها حرجًا، تنهدت وهي تفرك يديها وقالت:

- "سبائك الحرير"؟

- ماله؟ في حاجة مضيقاكِ؟ نغير اسمه؟ في حد مزعلك؟

- لا لا، الموضوع مش كده، أنا كنت عاوزه أعرف انتِ... يعني أقصد... فتحتيه ازاي؟

أغمضت عينيها لبرهة من الوقت، تعلم أن الوقت سيحين لمثل هذا السؤال، حتى أنها كانت تنتظره منذ فترة ولن تستطيع إخفاء الجواب، ولكنه سؤال سيقلب عليها الأوجاع والذكريات المؤلمة التي عاشتها، فتحت عينيها على نملة حمراء صغيرة تسير فوق بلاط الصالون، كم مرة تعرضت للقرص من مثل هذا النمل في صغرها، ليتها ظلت صغيرة تُلدغ أهون عليها من أن تُلدغ من الذكريات، ظلت تراقبها للحظات حتى اختفت في شق بين البلاط.. تنهدت في ألم ونظرت إليها في خوف من ردة فعلها وقالت:

- اوعديني إنك تحافظي على السر يا مهجة؟

- وعد مني يا سوزان، لو مش عاوزه تقولي بلاش.. ولكن عقلها كان يتمنى ألا تتراجع سوزان عن قول ما تخفيه، وتابعت: سرك في بير يا حبيبتي.

- أنا اتجوزت عرفي من واحد ابن كلب ضحك عليا.

ضربت مهجة على صدرها بقوة:

- يا مصيبتي.. وكادت أن تخرج عينيها من مقلتيها: عرفي يا سوزان؟!

وأجهشت سوزان في البكاء..

ساد صمتٌ ثقيل، لم تجرؤ واحدة منهما على الكلام، مضت برهة من الوقت محملة بالذكريات المريرة على سوزان التي حاولت جاهدة أن تزيح عن كاهلها هذه الذكرى المؤلمة لكنها لم تنجح، نجحت الذكرى في اعتصار قلبها، أخذت ترتعش كما لو أنها فجأة أُصيبت بحمى.. دنت منها مهجة وربتت على كتفها بحنان أم، شرعت في تهدئتها، تمنت مهجة لو لم تسألها أو حتى أجلت الموضوع، لكن فضولها كان أقوى من كل شيء.

قالت سوزان وهي تتنهد وتحاول السيطرة على بكائها:

- لو تعرفي الموضوع أثر فيه قد إيه؟ كنت فاكره نفسي هقدر عليه، بس طلع داهية، عشمني وقال لي هكتبلك سبائك الحرير وهعلن جوازي لكل الناس، صدقته.. ضحك عليا!

ظلت سوزان للحظات تتنهد، عرضت عليها مهجة أن تبيت بجوارها، فرفضت وخرجت من البيت وأسرعت تجاه بيتها أسفل قطرات الماء الهادئة التي هبطت في صمت، وفي سكون الليل الذي يخفي الحي تحت عباءة مظلمة سوداء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أمام المقهى كان يحيى ينتظر مبتهجًا أحس أن الدنيا في عيد، وفي زاوية المقهى كان يجلس شابٌ في مثل عمره تقريبًا وحيدًا "هلال بن العطار"، لم يكن هلال يحب مخالطة الناس، ولكن العلاقة التي بينه وبين يحيى كانت في طور التكوين، وعلى الرغم من أنه يفضل الوحدة، لم يكن لديه مانع أن يشاركه يحيى جلسته من وقتٍ لآخر.. كان يحيى بالنسبة إليه شخصًا عصبيًا ومندفعًا، تتحكم به انفعالاته.. رآه يحيى فأقبل عليه مبتسمًا، وجلس على المقعد الخالي، ثم سأله:

- تعرف تلعب طاولة؟

- معرفش يا حريف.

بالمناسبة.. المرة اللي فاتت انت كنت قولت لي إنك بتعرف تقرا العيون؟ اقرا عيني يلا.

فتح عينيه على آخرهما بطريقةٍ مضحكة: عجبك الفنجان اللي شربته على حساب الصبي، فاكر نفسك حدق لما تصب الميه في فنجان القهوة، انت فاكر دي فهلوة؟ ده اسمه نصب.

- انت بتراقبني؟

- كز على أسنانه بقوة وخرج الكلام من بينهما: انت شيطان.

- أنا مش شيطان، أنا فاضي وبراقب الناس الرايحة والجاية، وبسمع ده بيقول إيه، يعني بسمع أخبار الناس.

- انت شكلك أمن دولة أو مباحث؟

- بس يا عبيط، أمن دولة إيه وهباب إيه، بس خليني أخمن سبب انبساطك.. سوزان، صح كده؟ بس خليني أقولك قبل ما تجاوبني، إن في ناس كتير استنت واتمنت سوزان ومقدرتش توصل لها، عارف ليه؟ عشان هي ست مكارة وبتعرف تلعب بالرجالة.

- وانت إيش عرفك بكل ده؟

- ده أصله كلام ستات يا يحيى، وأنا من الصبح عند عمتي في السوق، بسمع أخبار الشقق... بس شكلها وصلت البيت؟

- مين هي؟

- سوزان، خرجت بسرعة قبل دقايق، سيبك منها بلاش تلحقها، مش هتعرف بيتها.

أصابه الخبل ونهض في كدرٍ وضيق وترك الشاب وحيدًا يمارس هوايته، أخذ يضرب أخماسًا في أسداس كأنه فقد عزيز، كانت تمطر والليل اشتد سواده فزاد ارتباكه، أخذ قلبه يقفز في صدره يمينًا ويسارًا كمسجونٍ يود الخروج من زنزانته يريد الاطمئنان عليها، فكر في تتبعها، ولكنه لا يعلم أين تسكن! فكر في الذهاب إلى مهجة وسؤالها، لكنه تراجع عن الفكرة خوفًا أن توبخه وحتمًا ستغلق الباب في وجهه.. تساءل: "فيها إيه لو جبت عنوانها وزرتها في البيت، هقدر أخبط على باب بيتها؟".

صعد إلى غرفته مهزومًا، محبطًا، مكبل اليدين، تقلب على فراشه كأنه يتقلب على جمر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أسفل الأضواء التي أطلت عليها شاحبة من الشرفات ومن نوافذ انبعثت منها الأضواء باهتة ومن أعمدة ذات إنارة ضعيفة، شقت سوزان طريقها أسفل قطرات المطر، انعطفت يمينًا وواصلت سيرها لمدة ثلاث دقائق أو يزيد، ثم انعطفت يسارًا في شارعٍ فرعيٍ مظلم، كانت عمائر الحي متقاربة، حيث أنك تستطيع أن تقفز من بيتٍ إلى آخر من خلال الشرفات.

في العادة يستغرق الطريق من سوزان عشر دقائق من السير، ولكنها قطعته في مدةٍ زمنية أقل بثلاث دقائق، كانت تنثر التراب خلفها كالخيل الهائج، لم تهتم لرذاذ المطر، عصفت بها ذكرى مريرة مؤلمة لم تستطع التخلص منها، تركت فيها جرحًا عميقًا، أثرًا لن يزول بسهولة.

لتتخلص من هذه الذكرى لا بُد وأن يكون هناك شخص في حياتها، شخص يحبها، يجعلها تفرح وتنسى أحزانها، رجل بسيط يتزوجها فتنتهي مأساتها للأبد، يقيم لها حفل زفاف حتى لو كان من مالها الخاص، تقدم لها الكثير، لكنها رفضتهم خوفًا من أن يفضحوا أمرها، وقعت عينيها على يحيى الساذج البسيط، لم يكن بالوسامة التي كانت ترجوها ولكنه مقبول، ستطلب منه ترك الحدادة وفتح بيت والده، وتجديده.. ستطلب منه الكثير، ولكن قبل كل ذلك لا بُد وأن يقع في شباكها كما تخطط، وأن تتأكد أولًا من العلاقة التي بين يحيى ومهجة، فقد سمعت بعض الأقاويل عن وجود علاقة جادة من طرف مهجة وأن صالح يريد أن يزوجها يحيى، لن يجد أفضل منه، فقد رباه على يديه وهو يثق به كل الثقة.

كانت شقتها التي ورثتها عن والدها تقع في ثاني عمارة على يمينها، صعدت الدرج حتى الدور الثالث، أدارت المفتاح في الباب وفتحته ليصدر عنه أزيزٌ حاد، أغلقت الباب خلفها بقدمها المرهقة، مرت من أمام أريكة حديثة التنجيد، وُضعت وسط الصالون وتتمركز وسط الشقة، وأمامها مباشرةً وُضعت مائدة مستطيلة اجتمعت حولها مقاعد جلدية جميلة، على منتصفها وضعت مزهرية نحاسية عتيقة من الخارج زينتها النقوش.

خلعت حذاءها، وأخذت تخلع ملابسها قطعة تلو الأخرى حتى سقط آخر خيط عن جسدها تمامًا، سارت في مياعة تهز فيها مؤخرتها وتتحسسها بأناملها، توقفت أمام مرآة الحمام وأخذت تحدق إلى جسدها الخامل الساكن، اكتسب جسدها لونًا داكنًا ككتابٍ كَسَاه التراب وينتظر من ينفض عنه التراب ويفتحه ويترجم محتواه، ألقت بجسدها أسفل الماء الساخن الذي سلق جلدها، غمرها البخار وشَكَل طبقة كثيفة ثقيلة، بعد لحظات ارتخى جسدها، أسندت ظهرها للجدار الدافئ وأغمضت عينيها، وأخذت تتحس جسدها بأطراف أصابعها، أمسكت أطراف شعرها وحكت به رقبتها بلطف ومررت يدها من فوق صدرها وداعبته بأطراف شعرها، بيدها اليسرى داعبت عضوها واستمرت بالمداعبة حتى ارتعش قلبها، وهاج جسدها، وشعرت برجفة قوية نتج عنها تأجج وتوهج، غلى ماؤها ودارت بها الدنيا، ثم سكنت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

6

وضع ماهر ملفات القضايا فوق الطاولة التي تحتل وسط الصالون، اعتاد أن يحضر الملفات إلى البيت ليناقش منى فيها، ثم يعيدها في صباح اليوم التالي، ذهب ليستحم، فقد كانت تفوح منه رائحة كريهة.

خرجت من المطبخ ممسكة بصينية عليها فنجانان من القهوة، كانت تسير على مهلٍ بسبب انتفاخ في كعب قدمها اليمنى من كثرة وقوفها في المحكمة، ووجها اكتسى بمسحة من الصفار ستزيد من قلق ماهر عليها، وضعت الصينية فوق الطاولة وابتسمت ما أن رأت الملفات، أراحت جسدها على الأريكة وتناولتها في حماس حتى أنها نسيت ألم قدمها للحظة.. سرعان ما نهضت عندما أحست باختناق وبقلة هواء الغرفة وتعكره، فتحت باب الشرفة واستقبلت الهواء المنعش الرطب ودفعته إلى رئتيها مما زاد من انتعاشها، جلست على كرسي خشبي وتحسست بيدها غلاف الملف كأنها تتحس كتاب أصدرته باسمها لتو.. كانت تتعامل مع ملفًات القضايا التي تقع في حوزتها بكل اهتمام، كأنها قطعة من جسدها أو كأنها قطعة نادرة، لأنها تحوي هموم وأحزان الناس، وأسرارهم ومشاكلهم، كانت تتعامل مع أوراق تنبض بالحرقة والتعاسة والمآسي، كدكتور نفسي يحاول يعالج مرضاه، لطالما أثارت فضولها القضايا وساعدت ماهر على حل الكثير منها. رغم المطر المتساقط إلا أن الجو كان جميلًا، ارتشفت من قهوتها وعينيها مثبتتان على الملفات، فتحت الملف الأول ذو الغلاف الأزرق العتيق، كان يحمل رقمًا قرأته على مهل ثم قرأت التاريخ وانتقلت إلى المحضر، لفت انتباهها قلم ماهر الذي وضع خطًا تحت بعض الجمل.. أخذت تقرأ تلك الجمل بصوتٍ منخفض: "رجل طويل عملاق، مقدرتش أقاومه، ربطني من إيدي، واحد منهم إيده محروقة، لابسين أقنعة، ريحتهم مقرفة.. وبعدين صحيت ولقيت نفسي جنب السور". أكملت قراءة باقي أوراق الملف ومن ثم أغلقته، تنهدت بألم وحسرة، شعرت بغصة تكبر في حلقها وانقبض قلبها.. تناولت كأس الماء بعجل وشربت قدرًا كافيًا ليزيح تلك الغصة التي كادت أن تخنقها، عادت إليها السكينة بعض مُضِي وقت، تشجعت وتناولت ملفًا آخر، قرأت رقم الملف وتاريخه، فتحت عينيها على مداهما اللتان تنقلتا بين الكلمات كجهاز ماسح ضوئي، لم تصدق ما وجدته، تساءلت: "انتبه ماهر ولا لا؟" قرأت الاعتراف؛ كان قريبًا إلى ذلك الذي قبله، غير أن الفتاة التي اغتُصبت وصفت يد أحدهم وقالت: "واحد إبهام إيده مقطوع، وكلهم لابسين أقنعة وفجأة شوفت واحد طويل وفي إيده منديل، وأغمى عليه".

أغلقت الملف وتناولت الثالث، قرأت الرقم والتاريخ، لم تكن صدفة، قالت: "نفس التاريخ؟ مش ممكن يكون صدفة؟"، لاحظت أن نفس الشخص العملاق مشترك في القضايا الثلاث، صاحب الإبهام المقطوع مشترك في اثنتين، مما يؤكد أنه عمل منظم وليس صدفة.

بعدما أنهي ماهر حمامه، فكر في إراحة جسده المجهد، تراجع عن فكرته عندما شاهدها منهمكة في الملفات تركها وجلس على الأريكة يراقبها في سعادةٍ مطلقة.. كان يندهش من قدرتها على ربط الأحداث وقدرتها على الاستنباط واكتشاف الغموض، توقعت حدوث بعض الأحداث لبعض القضايا، ولا ينكر أنها ساهمت في حل الكثير من القضايا، هاجم النعاس جفينه فجأة، حاول فتح عينيه بصعوبة ولكنه استسلم لتعبه الشديد، لم يمض وقتٌ طويل على نومه ربما غفا لنصف ساعة أو أقل ولكنها

كانت كافية لتريح جسده وتبدد إرهاقه، نهض مترنحًا وبخطواتٍ ثقيلة توجه إلى الشرفة، كانت قد ألقت من يدها الملفات وجلست ترتقب حركة السحب السوداء التي تنذر باقتراب عاصفة مطرية، جلس أمامها متدثرًا بروبٍ شتوي يقيه نسمات الهواء الباردة، أشعل سيجارة وأعاد فنجان القهوة مكانه بسبب برودته، قال بصوتٍ خاملٍ وهو ينفخ هواء سيجارته عاليًا:

- طمنيني، لقيتِ حاجة مهمه؟

نظرت إليه بعينين مرهقتين وتنهدت ثم قالت:

- انت قريت الملفات؟

لوح بيده دليل نفيه قراءته للملفات وهو يفرك عينيه.

- طيب، شوف يا سيدي، تواريخ الجرايم كلها يوم 5 أكتوبر، يعني دي جرايم...

- متسلسلة.

- شاطر.. وبعدين في الراجل الطويل اللي اشترك في تلات جرايم، وصاحب الإبهام المقطوع اشترك في جريمتين بس.

حدق إليها في صمت، أحس بوجود خطب ما، كان وجهها مائلًا للاصفرار، كأنها مهمومة أو حزينة أو متعبة، لم يستطع أن يحدد تجهم وجهها، لم تلتقِ نظراتهما ولم تكن تهتم لنظراته التي تفرست فيها، طلب منها النهوض لتستريح ولكنها رفضت.. تناول كأس القهوة الباردة في قرف، لم يحب قهوته باردة يومًا، ولكنه لم يجرؤ على طلب فنجان قهوة جديد، وضعه بجواره على سور الشرفة، دفع سيجارة أخرى إلى فمه بعدما ضم طرفي الروب ليغطِ صدره العاري، لن يسألها عن سبب حزنها أو شرودها، لن تجيبه ولن تريحه، اعتاد على مثل هذه التصرفات الصبيانية منها، من عادتها أن تخبره عما كان يحزنها أو عن سبب شرودها بعد يومين أو ثلاثة.

- طالما إنك مش عاوزه تنامي خلينا نفكر بصوت عالي، ممكن يكون في حد بيحرض المجرمين أو بيخطط لهم؟

- قصدك إيه؟

- شوفي يا ستي.. ثم ارتشف من فنجان قهوته رشفةً بسيطة على مضض وفي تقزز وتابع: النهارده قبضنا على مجموعة اعترفوا إنهم اغتصبوا بنت والبنت دي انتحرت، أكيد انتِ فاكرة حكايتها اللي ملت الجرانين؟

أومأت برأسها بقوة.

- كويس أوي، وقال لنا المتهم إن الراجل الطويل اللي اشترك معاهم في الجرايم مشاركش في الاغتصاب! بس كان بيكتفهم أو يجهزهم للاغتصاب..

صمت للحظات ليراقب عينيها الشغوفتين بمعرفة باقي الاعترافات وأنهى كلامه قائلًا: كان بيراقب من بعيد.

صمتت لبرهة من الوقت وعقدت حاجبيها وفجأة ظهر بريقٌ في عينيها، وقالت بصوتٍ منخفض محدثة نفسها: "كان يراقب يعني في حد باعتهم.. وممكن يكونوا قاصدين البنت اللي هيغتصبوها.. يعني العمل أكيد متخطط له.. يعني دول مش مجرد متهمين وخلاص.. دول ناس بيتحركوا بنظام.

- طيب ويراقبهم ليه؟ ده اللي مش قادر أوصله؟

- لأنه هو كبيرهم وهو المسؤول عنهم، هو البداية.. يخدرها أو يضربها ضربة تخليها تفقد وعيها، لأنها لو صرخت محدش هيكمل وهيتفضحوا، عشان كده لازم واحد يبدأ الخطوة الأولى صح.. خليني أسألك يا ماهر، لو انت عاوز تراقب حد، تبعت محمد ولا العسكري اللي واقف على الباب؟

- هبعت محمد طبعًا.

- ليه؟

- لأني بثق فيه وهيعمل اللي أنا عاوزه.

- شاطر.. وهو كابوس مصدر ثقة الناس اللي بتبعته، والباقي الفاضي منهم ممكن يشترك.

- فعلًا يا منى، كلامك سليم، والدليل إن الراجل اللي صباعه مقطوع شارك في جريمتين وصابر... صمت للحظات وتساءل: معقول يكون صابر عارف الراجل اللي صباعه مقطوع؟

قرر مقابلة صابر ليعرف مدى صحة احتماله.

في صباح اليوم التالي كانت الغيوم متناثرة كأوراق الخريف، وفي الجو رائحة غريبة أصابت حسام بالدوار، لم يشعر بهذا الإرهاق الذي شعر به ذاك اليوم، أراد أن يسير قليلًا ولكن عبثًا حاول، كان مرهقًا، وبالكاد تحمله رجليه. على الرغم من أن ليلته انتهت كما خطط لها، ممتعة ومنعشة إلا أن منبه أصابه بالكدر والضيق. هكذا هو، تجده تارة سعيدًا نشطًا وتارة خاملًا لا يطيق العمل، لم يكن هوائيًا، ولكن يمكننا القول إنه كان يُسعَد لأتفه الأسباب ويحزن لأتفهها أيضًا.

ما آلمه وسبب له النكد الصباحي الذي أرق يومه ولوث مزاجه، أنه تلقى مكالمة هاتفية متأخرة من مديرة دار الأيتام تفيد بأن أحد الصبية أراد توديعه قبل أن ينتقل إلى أسرته الجديدة.. ولكن فكرة توديعه للصبي كانت تقفز أمامه كلما خلا إلى نفسه، كان الصبي يحمل نفس اسمه، علاوة على تعلُّقه به، ربما وجد حسام سعادته بين الصبية الذين كان يحن للتواجد بينهم لأنه أحس بمرار فقد الوالدين، فكان يحاول بقدر استطاعته أن يعوضهم عما فقدوه، ومن ناحية أخرى كان ينسى كل أشجانه ومشاغلة بينهم، كان يجد الفرح بينهم وفي ضحكاتهم البريئة.

توجه حسام إلى عمله متثاقلًا. لم يكن راغبًا في الذهاب إلى العمل، ولكن كابوس أصبح وقوده وطاقته التي تدفعه للعمل، وصل المكتب وطلب من سمير استنفار الجميع وطلب منهم أن يجمعوا كل المعلومات المتوفرة عن كابوس، انصرف الجميع في البحث، لم يستطع الانشغال بأي شيء كي

يخفف من انزعاجه وحيرته، يعلم حسام أن مثل هؤلاء الأشخاص لا يمكن العثور عليهم بسهولة، يتطلب الأمر البحث المكثف.. فكر في إحضار صابر لعله يجد ما يخفيه في جعبته، ولكنه عدل عن الفكرة بسبب إصابته بالحمى، نظر إلى الملفات التي تكدست أمامه، فكر في فتحها وقراءتها من جديد ولكنه قد قرأها من قبل ناهيك عن مزاجه السيّئ المتعكر، كانت بعض الأفكار تقفز إلى سطح عقله.. أفكار مشوشة لم يستطِع تصفيتها حتى يخرج بفكرة مفيدة، شعر بجسده يضعف وبقواه تتهاوى بسبب عقله الذي لا يهمد، حدق في الأريكة، توجه نحوها ليمدد جسده لعل عقله يستسلم.

استيقظ على أثر ألم في رقبته وخدر في يده اليمنى، نفضها بقوة، سمع طقطقة جسده المتيبس، نهض متثاقلًا وغسل وجهه العبوس وأفرغ مثانته التي أقلقت نومه.

بعد دقائق من إفاقته، أحس براحة في بدنه ونشاطٍ في عقله، أشعل سيجارة وطلب فنجان قهوة، ارتشف رشفة فتنبهت حواسه، طرق سمير باب المكتب ودخل.. كان الاضطراب باديًا عليه، وأخبر حسام أن كابوس انتحر.

- انفجر حسام: امتى؟

- شافوه بعض المشردين وهو بينط من فوق الكبرى.

اقترب منه مُسْتَفَزًا وقال:

- انت متأكد يا سمير؟

- أيوه يا باشا.

بعد دقائق توافد باقي الطاقم تباعًا، وأكدوا كلام سمير، عدا واحد لم يؤكد انتحار كابوس، أصاب حسام الشك والحيرة، هل انتحر أم لم ينتحر؟ تساءل: "لو انتحر يبقى خلاص، لكن لو طلع خبر انتحاره إشاعة ده معناه إن في حد عاوز يداري عليه.

- سمير، لازم نتأكد والليلة، فاهم.

- هرتب معاد معاه يا باشا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في ظهيرة نفس اليوم كان صابر في زنزانته يستنجد من شدة الألم، زادت درجة حرارة جسده ارتفاعًا شديد، كان يطرق باب زنزانته بكل ما أوتيَّ من قوة ولكن طرقاته لم تصل إلى مستوى طرقات صبي في الخامسة من عمره، كان ينادي.. ويسعل كعجوز مدخن شره، بعد طرقه وسعاله الذي كان يستنفذ طاقته كان سرعان ما يغوص بين ظلمات الزنزانة، ويفيق مرعوبًا من طرقات السجان على الباب بين الحين والآخر ليبقيه مستيقظًا، وإن غابت طرقات السجان كانت تراوده كوابيس على أثرها كان ينهض مضطربًا متوجسًا فاقدًا لتركيزه، غارقًا في عرقه، وكان بين الفينة والأخرى يستجمع قواه وينادي على الحارس، ولكن ما من صوت يخرج ولا سجان يجيب، كانت زفرات صدره مؤلمة، عميقة كأنها صدى داخل كهف.

ناجى ربه ليخلصه من هذا الألم، كان قلبه يخفق بعنف ويئن، كان يسند ظهره للحائط الرطب الذي أوشك أن ينز ماءً، كانت طاقته ضائعة بين مقاومة البرودة وبين عذاباته، سحب قدميه بصعوبة، وضمهما إلى صدره وأحاطهما بذراعيه الضعيفتين، تحسس ظهر يده بأنامله المرتعشة، كانت مليئة بالتشققات والجروح الطازجة. كان يحدق إلى الفراغ بعينين سكنهما الذعر، لم يعتَد هذه الظلمة، ظلمة قاسية بعثت في نفسه الفزع والوحدة، اعتاد الحركة والتنقل بخفة بين الأزقة وفي الشوارع وبين الناس والقفز من حافلة إلى أخرى، كانت له سلطة على من هم أصغر منه سنًا وعلى بعض من هم أكبر منه سنًا، الآن لم يكن يملك سلطة لطمأنة نفسه من الخوف الذي سكنها ولا لطرد تلك الكوابيس التي تزوره كلما أغمض عينيه ولم يعد يملك طاقة لطرد تلك الأصوات التي تهمس في أذنه.. عاود المناجاة من جديد، وبعد لحظات من الطرق الهين الضعيف على الباب، جاءه الحارس وفتح كوة الباب وسأله بصوتٍ غليظ:

- مالك يا حمار؟ في إيه؟

تمسك بالصوت كأنه حبل نجاة وقال:

- عاوز اشوف البيه؟

- البيه مرة واحدة؟ ليه عاوز تشوف البيه؟ عاوز تاكل ولا تشرب ولا تلعب معاه؟

- قول له صابر عاوز يقابلك وهو هيفهم.

- هيهه، يفهم؟! انت فاكره بيفهم أصلًا؟ ده مش بيفهم غير في الضرب والزعيق، خليك هادي وبلاش قرف، قال بيه قال.

- اسمعني.. قول له صابر عارف مكان كابوس، وعارف حاجات كتير... هاتلي كوباية ميه، أبوس إيدك بلاش اشوف البيه.. بس عاوز اشرب.

- طيب هشوف واجبلك ميه، ده انت شكلك هتموت، خليني اكسب فيك ثواب يا معفن.

انصرف الحارس، واستيقظت حواس صابر من جديد بفعل كلمات الحارس المطمئنة.

في الردهة عُلِّق مصباح أشبه بمصباح نادي ليلي تنبعث منه إضاءة خافتة ومترددة في إضاءة عتمة الزنازين، كانت تتسلل من الكوة أعلى باب الزنزانة، وكان يجلس بالقرب منها طوال فترة سجنه، يستمد منها الأمل، أمل ضعيف كشعاع شمس يتسلل من بين غيوم الشتاء.

حدق صابر إلى سقف الممر، لطالما كره طنين الذباب وأزعجه، ولكن في تلك المرحلة وصل به الحال بأن يستأنس بطنين الذباب العالق في شباك العنكبوت، كانت الذبابة الكبيرة تفلت والصغيرة تعلق، لم يكن يسمع صوتًا آخر، ولكنه تساءل: "ازاي وصلت الدبانة لهنا؟"، رد عليه همس في أذنه: "كل روح وليها رزقها".

مر وقت لا يعلم مدته، ربما ساعة أو أقل، بين الحين والآخر كان يمسح قطرات العرق التي تنبت فوق جبينه، يمسحها بكف يده أو بسرواله الممزق، مد أصابع يده تجاه جرحه الغائر في كعب قدمه،

تحسس بطرف أصابعه الجرح، واشتم رائحة نتنة لم ينتبه لها من قبل، كانت رائحة جرحه، لقد أصابه العفن، ضرب بقدمه على الأرض بقوة متوهمًا أن العفن سيزول ولكنه لم يجنِ سوى الألم، سمع وقع خطوات قادمة، حشد قواه ونهض مترنحًا وأحضر الدلو ووقف على طرف أصابعه يسترق النظر من الكوة.

- اقترب رجل وسأله عبر الكوة: انت صابر؟

جاوبه فرحًا كمن عثر عليه في الصحراء:

- أيوه، أيوه أنا صابر بشحمه ولحمه.

فُتحت زنزانته، دخل رجل لم يستطع قراءة ملامحه بسبب السواد، ناوله زجاجة ماء فتجرعها بسرعة، وفجأة أغلق الرجل الباب خلفه ودفعه ناحية ركن الزنزانة، فسأله بصوتٍ مرتجف مرتبك حزين:

- في إيه يا باشا؟

- سأله الرجل بصوتٍ مزيفٍ غليظ: عاوز تقول إيه؟

- قال صابر بصوتٍ مبحوح: يا بيه... أصل... عاوز اعترف، سعل ثم أكمل بصوتٍ متقطع: هقول لك على كل حاجة يا بيه، راسي يا بيه، هيتفرتك.

لم يعلق الرجل واقترب منه ووضع يديه اليسرى حول عنقه، وشد عليها وكاد أن يعتصرها، فحاول نزع يده ولكن دون جدوى، يعلم أن حياته بلا أي قيمة، لكنه لا يريد أن يموت.

فجأة تعرف إلى الرجل، ولكن عقله لا يستطيع أن يستوعب ما يراه بأم عينيه:

- ليه عاوز تقتلني؟ أنا خادمكم!

داس الرجل على قدم صابر الجريحة، لم يعد يتألم، لم يعد عقله يستوعب الألم، إنه فقط مرعوب، لم يستطع الصراخ ولا حتى المقاومة، كانت قواه تنهار وتذوب بين جدران الزنزانة واستنفذتها الحمى والبرودة والأوجاع، ازدادت يد الرجل انقباضًا على عنقه، رفع نظره صابر ولأول مرة يرى سواد الزنزانة يغلف عينيه.. كان سوادًا لا حدود له.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يغفر ماهر لمديره استبعاده عن القضية، مما زاد من سخطه وحنقه عليه، وها هو يجلس أمامه غير مبالٍ، حتى أنه لم يصافحه، وتركه وسط عجرفته، ظل المدير صامتًا، حتى طرق الباب طارقٌ، فارتفع صوته بالسماح لمن يطرق الباب بالدخول، دخل ضابط لم يكن يعرفه ماهر فعرَّفه إليه المديرُ باسم الضابط "إسماعيل"، وحاول تلطيف الأجواء المتعكرة بينه وبين ماهر قائلًا:

- ماهر بيه من أكفأ الضباط يا إسماعيل، أراهن إنك هتتعلم منه كتير.

لم ينبس ماهر بكلمة، حدق إلى إسماعيل للحظات وسرعان ما رفع نظره عنه، مد يده إسماعيل وصافح ماهر بقوة، لمس ماهر في يده قوةٍ وصلابة، هز يده دليل ترحاب، وقال:

- أنا الضابط إسماعيل.

- أهلًا وسهلًا يا إسماعيل بيه.

ابتسم إسماعيل ابتسامة كشفت عن أسنانٍ بيضاء متراصة بشكلٍ جذاب، ولديه عينان مستديرتان واسعتان جريئتان، كان الصلع منتشرًا في مقدمة رأسه ليكشف عن جبهة عريضة، أنفه مائل إلى الأسفل ومدبب، وذقنه مسحوبة إلى الأمام، شفتاه كالخيط رفيعتان.

في بادئ الأمر لم ترحب عينا ماهر بهيئة إسماعيل، لم يستسِغه، ولكنه سيعتاد عليه وعلى طوله الأقرب إلى عمود إنارة، وكذلك إلى جسده الضخم.

- قال المدير: طبعًا يا ماهر، مش هوصيك على إسماعيل.

- قال ماهر مبتسمًا بشكلٍ متعب: أكيد طبعًا، استأذن عشان عندي شغل.

بعد دقائق كان إسماعيل يطرق باب ماهر.. دخل ووجد ماهر منهمكًا في بعض الملفات يتفقدها، دون أن يرفع ماهر رأسه عن الملفات، طلب من إسماعيل أن يجلس.

أجال النظر في أرجاء المكتب، لم يكن يتوقع أن يكون المكتب بمثل هذا المستوى البسيط، توقع أن يكون هناك مكتبين في الغرفة، ومقاعد جلدية كالتي في المديرية العامة، ظن أن المكتب سيكون أكثر هيبةً وفخامة، تساءل: "فين الحمام؟" نظر خلفه فوجد الحمام يطل على الغرفة وقد فُتح بابه على مصراعيه، جدران الحمام من الأسفل دهانها متساقط، ويبدو ذلك من آثاره على الأرضية.. خاب ظنه، حدق إلى الأريكة، لاحظ تقشر جلدها الأسود من الأسفل، والخزانة المنتصبة إلى جوارها تحمل على رفوفها ملفاتٍ مكدسة، وخلف مكتب ماهر نافذة على جانبيها عُلقت ستائر شفافة.

طرق العسكري الباب ودخل حاملًا القهوة إلى إسماعيل وماهر، قبل أن يغادر استوقفه إسماعيل وسأله:

- ازاي تدخل من غير ما تسمع كلمة ادخل؟!

تدخل ماهر وأذن للعسكري بالانصراف، وقال موجهًا كلامه إلى إسماعيل:

- دي مش بداية جميلة خالص، ما دمت أنا بالمكتب مينفعش تسال أي حد دخلت ليه وعملت كده ليه، انت هنا عشان تتعلم، والعسكري عارف نظامي كويس، انت متعرفش نظامي؟ أقولك أنا، مش بحب الكلام الكتير، ولا بحب حد يقاطعني خالص، ومحدش يصدر تعليمات طول ما أنا هنا، وأخيرًا العسكري ده واقف هنا عشان خدمتك وهو عارف كويس يدخل امتى ويخرج امتى. كلامي واضح؟

هز راسه مصدومًا، لم يتوقع أن تكون بداية عمله توبيخًا.

ألقى ماهر أمامه مجموعة من الملفات قائلًا:

- عاوزك تفحص الملفات دي كويس وتشوف إيه المشترك بين القضايا؟

- مش فاهم؟

قالها مندهشًا رافعًا حاجبيه مما شكل خطوطًا غائرة وعريضة على جبهته.

- افرز كل قضية حسب تاريخها، ومين اللي ارتكبها ومواصفاتهم، ونوع الجريمة. أظن كده الأمور وضحت؟

- تمام، بس دي قضايا كتيرة؟

- عشان تتعلم.

بعد لحظات دخل محمد، اندهش عندما وجد الملفات مكدسة أمام إسماعيل، جلس قبالته في سكون، لم يُكوِّن فكرة بعد عن سبب تجمعها بهذا الشكل.

- محمد هيساعدك في فرز القضايا، ركزوا كويس، مفهوم؟

وتناول سترته المعلقة على ظهر الكرسي وقال: استخدم كل صلاحياتي يا إسماعيل، كلم المديرية باسمي واعرف كل القضايا اللي حصلت في شهر أكتوبر.

وغادر في عجالة.

طلب إسماعيل من محمد تتبع القضايا التي أمامه ونهض يهاتف الإدارة العامة، ما أن جلس خلف المكتب حتى أحس بتلك الطاقة التي سكنت نفسه، طاقة زادت من حجم جسده إلى الضعف كما لو أنه قد تحول إلى الرجل الأخضر، شعر بقوةٍ وسلطة وبمذاقٍ حلو أثناء الحديث، نادى على العسكري:

- فنجان قهوة وكوباية مية بسرعة.

اندهش محمد من تصرفه، فقال إسماعيل بلهجةٍ آمرة:

- اوعى تضيع أي تفصيلة، ركز كويس؟ فاهمني، أنا مش ناقص أتبهدل في أول مهمه أقوم بيها.

هز محمد رأسه إذعانًا لأوامر إسماعيل التي لم يعتَد عليها من ماهر.

- انت بتهز لي راسك؟ اتكلم معايا.. كلامي مفهوم ولا لا؟ ركز كويس، مش عاوزك تسهى عن أي معلومة مهما كانت صغيرة، أنا المسؤول هنا.

- حاضر يا باشا...

- متقاطعنيش، انت فاهم ولا لا؟

هز رأسه.

- متهزش راسك؟ فاهم؟

- حاضر، ممكن اشتغل؟

- أنا اللي أحدد تشتغل ولا لا، مفهوم؟

- طبعًا.

- اشتغل.

أنصت محمد إلى نبرته وهو يتحدث عبر التليفون، كانت نبرته استعلائية آمرة، بها نوعٌ من الاحتقار، وكان صوته مستفزًا، أجش، تساءل: "ازاي نفسك مستحملاك؟"، هو مش شايف غباءه وكلامه المستفز ومنظره المقرف؟

جلس محمد كثيرًا على هذا المقعد - مقعد ماهر - ولكنه لم يتحدث إلى أحد بهذه النبرة مطلقًا، حتى إنه عمل مع العديد من الضباط، وكانوا مثل ماهر في طباعهم، بسطاء متواضعين يُقَدِرون من يعملون معهم ويثقون بهم وصوتهم لا يعلو، تردد في جمع الملفات والخروج بها إلى أي مكتبٍ آخر، ولكن سرعان ما تراجع عن قراره حتى لا يثير حفيظة أحد، خاصةً المدير، إذا وصل له الخبر سيعنفه بشدة، أكمل عمله كالقنبلة الموقوتة التي يمكن أن تنفجر في أي لحظة.

أسند إسماعيل ظهره إلى المقعد وحدق إلى السقف واضعًا قدم فوق الأخرى وحذاؤه الأسود اللامع يتحرك بشكلٍ دائري في الهواء فوق المكتب وبعض الأتربة تساقطت أسفل حذائه، وسماعة الهاتف على أذنه، بين الفينة والأخرى، كان يسمعه يقول: "تمام، تمام". وبعد لحظات من الانتظار، أخذ يدون على ورقة بيضاء بعض القضايا التي وقعت في شهر أكتوبر، مر الوقت ثقيلًا على محمد الذي لم يكن يستسغ إسماعيل هذا.

أخذ إسماعيل يقلب الملف متصنعًا التفكير والتأمل في الأوراق، إلا أنه كان يحدِّث عقله وهو يرفع نظره بين الفينة والأخرى ليراقب محمد: "انتم شوية ناس زبالة، لازم تتبهدلوا كل شوية عشان محدش فيكم يرفع راسه، احنا لينا الأوامر والتعليمات وانتم ليكم التنفيذ والممات".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقف حسام أمام زنزانة صابر، ووقف خلفه سمير يسترق النظر من فوق أكتاف حسام إلى داخل الزنزانة، أضاء بمصباحه اليدوي الزنزانة، لم يكن يتوقع حسام أن تكون الزنزانة قد سكنتها هذه الرائحة، رائحة رطوبة مختلطة برائحة العفن الذي يفوح من قدمه، لم يتحمل سمير الرائحة وأوشك على التقيؤ، أنارت بقعة الضوء أرضية الزنزانة السوداء التي أصابتها الشقوق على طولها، لم تكن الزنزانة تتسع لأكثر من شخصين يقفان متجاوران، لمح حسام قدم صابر، جلس القرفصاء وحدق إلى قدمه التي أصابها العفن، كانت الرائحة نفاذة أصابته بالغثيان، وضع يده على فمه، والجرح كان عميقًا بمقدار عقلة إصبع.. رفع المصباح رويدًا رويدًا، لمح ثيابه البالية الممزقة التي أظهرت بعض من التقرحات والإصابات، ويده التي أصابتها الشقوق والجروح الملتهبة التي استقرت فوق بطنه، رفع نظره ببطء حتى وصل إلى صدره، وجد بقعة دائرية من المخاط على قميصه متصلة بخيطٍ رفيع من لعابه تدلى من فمه، رفع المصباح حتى كشف عن وجهه الذي سقط على جنبه الأيمن، كانت عيناه تنظران إلى الأسفل، وقطرات العرق تجمدت فوق جبينه.

نهض وخرج مسرعًا توجه إلى الحارس الأصلع كثيف شعر الأذن، عيناه ذابلتان حمراوان وأنفه برزت منها شعيرات تشابكت مع شاربه الأبيض الذي تحول منتصفه إلى اللون الأصفر من كثرة التدخين وسأله:

- مات ازاي؟

- والله يا بيه، من ساعة ما وصل وهو يتوجع، وكنت بحاول أصبره، وكل ما كان يطلب مني ميه كنت بشربه، وقبل ما يموت رحت أجبله ميه ولما رجعت لقيته زي ما حضرتك شايفه.

- مقالش حاجة قبل ما يموت؟

- لا يا بيه، بس كان بيقول إنه عاوز يزور الدكتور...

رفع يديه في غيظٍ لإسكات السجان، وطلب من سمير أخذ إفادته كاملة، توجه إلى مكتبه مغتاظًا مستاءً، أشعل سيجارته في اضطرابٍ وحيرة، لام نفسه على إهماله لصابر، حمل نفسه مسؤولية موته، عندما أدرك الورطة التي أوقع نفسه بها، حاول الحفاظ على أعصابه وعزيمته وقوته، تساءل: "ليه معرضتوش على الدكتور؟ كنت هخسر إيه؟ مش يمكن كان عنده معلومات ممكن تفيدني؟ بس لو عنده كان قالها، أنا قصدت أخليه يتعذب ويدوق طعم الوجع، يلا... خليه يريح الناس منه ومن شره، يغور في ستين داهية".

بعد مرور نصف ساعة تقريبًا، في تلك الفترة تواردت عليه الأفكار والاحتمالات التي زادت من تعكير مزاجه وحدته وعصبيته، لم يقدر على حبس انفعالاته ولا كبح عقله عن التفكير المستمر، كان يذرع المكتب ذهابًا وإيابًا في توترٍ شديد.

- دخل عليه ماهر غاضبًا وقال: اللي سمعته صحيح؟

- تأفف وقال: أه، اللي سمعته صحيح.

- وحصل ازاي، وإمتى؟

- من شوية.

صمت للحظاتٍ وابتلع ريقه وأوضح: في علامات على رقبته.

- علامات؟! يعني في حد قتله؟ في حد دخل السجن؟ حققت مع السجان؟

- مكنش موجود، راح يجيبله ميه.

- انت لازم تعرضه على الطبيب الشرعي وتحقق مع السجان، متسكتش على الموضوع يا حسام، مستني إيه؟

- رمقه بنظرة انفعال وقال: مش هعرضه على الطبيب الشرعي، يغور في جهنم، مات وريحنا.

- ليه يا حسام؟ تقرير الطب الشرعي هيكشف إذا كان مات مخنوق ولا مات موتة طبيعية.

صمت حسام للحظة، ثم سحب نفسًا عميقًا وقال بصوتٍ منخفض كأنه يرجوا أحدهم:

- صابر كان عيان جدًا، وتقرير الطب الشرعي ضدي لأني معرضتوش على دكتور يا ماهر، التقرير هيضرني، فاهمني؟ وصمت هنيهة وهز رأسه في عنفٍ محاولًا طرد الأسى الذي حل به والندم الذي شعر به وأردف: ومين هيهتم بيه، يغور في داهية، أنا مش ناقص وجع قلب.

- براحتك يا حسام.

أدار ظهره لماهر ولوح له بيده وطلب منه المغادرة، وما أن خرج ماهر من الغرفة وأغلق الباب خلفه حتى سمع ملفات تتطاير في الهواء وكرسي يرتطم بالجدار، فكر للحظات في العودة ولكنه أكمل طريقه مغادرًا المكان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عاد ماهر إلى نقطة البداية، مات صابر الذي كان من المحتمل أن يكشف عن الرجل ذي الإبهام المقطوع، فكر في الذهاب إلى مكتبه ليباشر البحث مع إسماعيل ومحمد، لا بُد وأنهم وصلوا إلى نتائج قيمة، فلابُد من وجود قضايا ذات صلة أو مشابهة.

عرج على أحد الأكشاك وابتاع علبة سجائر، جلس خلف عجلة القيادة وأشعل سيجارته، كان فاقدًا لأعصابه ومنفعلًا بشدة؛ ضرب عدة مرات على عجلة القيادة بقوة، سأل نفسه: "مين اللي قتل صابر؟ وازاي دخل السجن؟ أكيد حد ساعده؟ يمكن السجان ويمكن مش هو؟ يمكن حد استغل غياب السجان ونفذ جريمته، بس مين؟ وأكيد صابر كان عنده معلومات مهمة لازم تندفن معاه، بس ينفع في إيه العناد بعد الخسارة، آخ.. لو حسام معاندش وعرضه على الدكتور كان كل حاجة خلصت دلوقت".

أصابه الكدر والإحباط، أخذ يفكر في كيفية عرض الجثة على الطب الشرعي، خطر له للحظة أن يبلغ سالم بيه، وليحدث ما يحدث، ولكنه في المقابل سيخسر صديقه.. فتملكته الحيرة.

توجه إلى مكتبه لعله يجد شيئًا ذا قيمة، أصابت زوجته، لم يكن يتوقع أن تكون بهذه الفطنة، كانت تتوقع أن يحدث شيئًا لصابر، خاصةً أنها سألته عن مكان حبسه، كان يظن أن صديقه تدبر أمره واهتم به، لم يكن يعلم أن صديقه تسبب في موته: "هنعمل إيه دلوقتِ؟ لازم ندور من أول وجديد، لازم نحرك الميه عشان نصحي التماسيح".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7

في المساء، عادت كل من مهجة وسوزان من "سبائك الحرير"، كانتا تسيران متجاورتين متلاصقتين، تبتسمان بوداعة كالأطفال، لم يؤثر على علاقتهما ما حدث البارحة، كأن شيئًا لم يحدث.

كانت سوزان تعلم كيف تخفي غيرتها، كانت تجيد التحكم بكتمان مشاعرها، تحدثت مهجة إلى سوزان عن يحيى وعن عرض والدها بأنه سيوافق إن أقدم يحيى على خطبتها، حدثتها عما يدور في عقلها من أفكار ومشاعر متناقضة لم تكن قد نضجت بعد، كانت كالبذرة التي تنتظر الجو المناسب لتنمو، ولكن سوزان كانت لها بالمرصاد، كانت كالعاصفة التي اقتلعت البذرة من تربتها ودفنتها وسط الصحراء.

حاولت سوزان هدم أي علاقة يمكنها أن تنشأ بين مهجة ويحيى، زرعت الشكوك في قلبها، اخترعت قصص لا صحة لها، قصص تُنفرها من يحيى، يدخن ويحتسي الخمر ولا يهتم لعمله، أخبرتها أن مشاعرها تجاهه ما هي إلا أحاسيس مراهقة عاشتها أغلب الفتيات من قبل، طلبت منها عدم الاهتمام بأمر يحيى فهو ما زال شابًا في طور التكوين، جاهل، وأبله: "لا يستحقكِ ولن يحافظ عليكِ، لا يملك شيئًا، لا يملك بيتًا ولا مال ولا حتى مشاعر تهتم بكِ، لا يملك خطة للغد، حياته متعثرة وفقير في المال والحظ، لا تنتظري منه أن يمنحك الحب والحنان، إنه زير نساء من الدرجة الأولى، وعمله هذا لا يطعم ولا يغني من جوع"، قالت لها بكل ود ونصح:

- قولي لأبوكِ إنك لسه مش مستعدة للجواز وقدامك حياة لازم تعيشيها، اهتمي لجامعتك وشغلك، ومشاعرك متسعجليش عليها، بكره ربنا يرزقك واحد أحسن منه ويخرجك من الحي المقرف ده.

توقفت سوزان لتبتاع زجاجتي عصير لها ولمهجة.

سألتها مهجة وهي تفتح زجاجة العصير:

- حبيتِ قبل كده يا سوزان؟

- حبيت واتنيلت على عيني.

- ومين هو اللي حبك وحبتيه؟

دفعت بفوهة زجاجة العصير إلى فمها وقالت بعد أن شربت منها القليل:

- اللي ضحك عليه هو اللي حبيته بس للأسف مكنش بيحبني، عشان كده بقلك متستعجليش الحب، انتِ مش بتحبي يحيى، خالص.. ده يمكن إعجاب، أو حتى مجرد تهيؤات يا مهجة..

ثم حدقت إليها وابتسمت وأضافت: ده انتِ تستاهلي واحد أحسن منه ألف مرة.

- ربنا يسترها علينا يا سوزان، المهم اللي اتجوزتيه ده اتعرفتِ عليه ازاي؟ شكله كان غني صح؟

- أيوه طبعًا، وغني جدًا كمان، انتِ مش شايفة الصالون، الحاجة الوحيدة اللي طلعت بيها منه.

- اتقابلتم ازاي؟

- أبدًا، كنت بدور على شغل، وأنا كنت بحب المكياج وحاجات الستات، كنت وأنا صغيرة أجيب بواريك شعر واقعد قدام المراية والبسها وأجيب غيرها وأحط مكياج، كنت مجنونه مكياج، لحد ما في يوم وأنا بدور على شغل لاقيت صالون كبير يا بيت يا مهجة، قد صالوني تلات مرات، أه والله، المهم.. مكانش عندي امل إني أشتغل فيه بس كان نفسي اشتغل فيه، معرفش ازاي الحظ لعب معايا، قابلت صاحبة الصالون وشغلتني فورًا، أولها اشتغلت ببلاش وبعدين خدت مرتب عادي، والمفاجأة إن صاحبة الصالون كانت حاطة عينيها عليه لأخوها وعرفتني بيه..

ارتشفت من زجاجة عصيرها رشفة طويله وتابعت: كان شاب وسيم، طويل كد زي بتوع السيما، تنهدت وأضافت: وبعدين اقنعني بالجواز العرفي، رفضت طبعًا أولها، وبعدين كتبلي سبائك الحرير عشان أصدقه، وكنت مغفلة، ضحك عليا وقال لي هنعلن جوازنا وهيعملي فرح كل مصر تتكلم عنه، وقال لي إن احنا لازم نتجوز عرفي ولما يرجع من السفر هينفذ اللي اتفقنا عليه، بس كان كداب.. صمتت للحظات وأضافت: كل اللي عاوزاكِ تهتمي بيه هو شغلك وجامعتك، فهماني يا مهجة؟ سيبك من الأوهام ومن الحبال الدايبة.

أخذت بنصيحتها، ولكن في صدرها غم لما حدث لسوزان، أشفقت عليها وعلى ما أصابها، كل هذا بسبب أطماع مراهق غني متهور، وليعلم الله كم فتاة قاست مثل سوزان! لقد سَلَب سترهن وتركهن عاريات، أشبه بمتسولاتٍ للعفة وللشرف، لقد حرمهن من الفرحة التي تحلم بها كل فتاة.

كان يحيى ينتظر سوزان.. كان الجو معتدلًا كما لو أن الشتاء لا يود الحضور، لم يبتعد عن سور السطح إلا عند قضاء حاجته، لم يجد مكانًا أفضل من السطح ليكشف الشارع الطويل الممتد أمام ناظريه، لا يريد الانتظار في القهوة، لا يريد أن يدفع قرشًا من أجل فنجان صغير من القهوة سرعان ما ينتهي، ولا يريد أن يراه هلال حتى لا يمطره بتحليلاته المستفزة والتي تكشف فضح مشاعره، من هنا سيراقبها جيدًا.. حتى لو ذهبت إلى بيتها سيكتشف ذلك، كان يراقب الشارع بكل حواسه، رغم حلول الظلام والضوء الخافت الذي سيطر على شوارع الحي، إلا أنه يستطيع أن يميز مهجة وسوزان في حال اقترابهما، أشعل سيجارته بكل ثقة، لن يكتشف أمره أحد، فهو بعيد كل البعد عن صالحِ الذي غادر الحي باكرًا مع أحد أصدقائه، بين الحين والآخر كان يسترق النظر على النوافذ التي فتِحت أمامه على مصراعيها..

في إحدى النوافذ توقفت أرملة توفى زوجها في حادث قطار، كانت تقف خلف ستارة شفافة، تظن أنها محجوبة عن أعين الناس، ولكن عين يحيى كانت بالمرصاد.. أخذت تخلع ثيابها رويدًا رويدًا، حتى غدت عارية عدا من ملابسها الداخلية، وقفت أمام مرآة تتفقد جسدها المهجور، دارت عدة مرات حول نفسها، تفقدت مؤخرتها وهي تحركها بقوة لتهتز، قفزت عدة مرات، خلعت حمالة صدرها وأخذت ترفع ثدييها بيديها بلطف، كانا متوسطي الحجم، فجأة.. دخلت عليها والدتها وهي تتحسس جسدها، تعاركتا وعلا صراخهما.

لم يكتشف يحيى أن سيجارته احترقت دون أن يشهق منها نفسين، كان فكه السفلي مرتخيًا وكاد لعابه أن يسيل، لم يرمش سوى مرات معدودة وهو يحدق في شهوة ينتظر أن يفرغها، رفع رأسه غير

مصدقٍ لما رآه، تحسس عضوه الذي انتصب كقضيب من حديد، هز رأسه ليفيق مما شاهده، قاطعت خلوته صرخات والدتها المزعجة، ظل محملقًا للحظات لعلها تعود، ولكنها لم تعد، حول بصره على نافذة أخرى لعله يرى ما يكمل به استمناءه سريعًا، أي شيء يغذي به حرمانه.. وجد سيدة مرتدية قميصًا شفاف، كشفت عن ترهلات جسدها فتقزز مما رأه، وحول بصره إلى الشارع يترقب سوزان، تأخر الوقت.. لا بُد وأنها تعطلت بسبب عملها، أشعل سيجارة أخرى عوضًا عن الأولى التي لم يهنأ بها، وبعد أنفاسٍ معدودات أمسك نفسه عن الصراخ وقال: نورتِ.

ابتسم وهبط الدرجات مسرعًا، توقف عند المنتصف، ظل ينتظر حتى رآهما في الداخل أخذتا تصعدان، اصطنع الهبوط البطيء، مرت من جواره مهجة، شمت رائحة الدخان المنبعثة منه، تقززت وتأففت وأكملت طريقها صعودًا.

توتر لما رآها تقف أمامه، تلاقت النظرات لبضع ثوان، أراد أن يعلم ما سبب انصرافها البارحة دون مقابلته.. تنحنحت، مدت يدها ودفعته من خصره، ارتجف، ارتبك، تعرق، التصق بالجدار، لمحت أذنيه الحمراوين، ووجنتيه اللتين توردتا خجلًا، تقدمت وأكملت طريقها صعودًا، ظل واقفًا مكانه، لم يبرح، التفتت سوزان خلفها وابتسمت بمكر.

لم ينتبه لمغادرتهما، تحسس خصره الذي لمسته سوزان قبل قليل، لم يصدق ما حدث له؟ أحس بحرارة تجتاح وجهه، ابتسم بنشوةٍ وسعادة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وصل ماهر إلى مكتبه، وجد محمد عاكفًا يقلب صفحات الملفات التي أمامه، كان منهمكًا ومهتمًا بما يبحث، رفع رأسه ووقف احترامًا لماهر، كان محمد كالح الوجه أمامه منفضة السجائر ممتلئة بأعقاب سجائر وفنجان قهوة فارغ، وكثافة الدخان حجبت الإضاءة وأضفت عليها حالة من البؤس والغموض، كما أن رائحة الهواء الغير متجدد زادت من امتعاض ماهر فتوجه بعجلة وفتح الشباك على مصراعيه، أثارت نسمات الهواء سحابة الدخان المستقرة عاليًا وبددتها بعد دقائق.. خلع ماهر سترته وهو يحدق إلى وجه محمد مليًا محاولًا كشف ما سبب تلك الملامح المتخشبة، سحب المقعد وجلس عليه مبتسمًا:

- شكلك اتخانقت مع إسماعيل؟

ألقى القلم من بين يديه وعدل ظهره قائلًا:

- أبدًا يا بيه، بس تعبت من كتر الملفات، وإسماعيل بيبلغك تحياته وبيقولك عنده مشوار ضروري.. نهض وفي يده ملف ناوله لماهر موضحًا: ده التقرير اللي اشتغل عليه، باشا.. احنا ليه بنحصي الجرايم؟

تناول الملف وأجاب أثناء فتحه له:

- لأن كل القضايا حصلت في نفس الشهر ده إن مكانتش في نفس التاريخ.

- باشا لقيت قضية اغتصاب حصلت من خمس سنين في نفس التاريخ.

- غير التلاتة القدام؟

- أيوه يا باشا، وكمان قضيتين قتل، قضية "فريدة عبد العظيم" اللي من أسبوعين، وقضية حصلت من خمس سنين لرجل أعمال في نفس التاريخ.

- جريمة الاغتصاب... والقتل... حصلوا في نفس السنة؟

- بالظبط يا باشا.

أشعل سيجارة متحمسًا رغم الضجر الذي نزل به وطلب فنجان قهوة وسأله:

- في متهم في قضية قتل رجل الأعمال؟

- لا، اتسجلت ضد مجهول.

- والاغتصاب؟

- برضو ضد مجهول.

- كويس أوي، روح انت يا محمد.

غادر محمد.. وجلس ماهر وحيدًا في مكتبه فوق الأريكة التي كادت أن تبتلعه بسبب نعاسه الذي حل عليه فجأة، انتصب في جلسته متثاقلًا كسولًا محاولًا طرد النعاس، خطر له في إحباط أنه لا يستطيع جمع أفكاره التي غزت عقله، أفكارًا لا حصر لها واحتمالات لا نهائية.. دخل العسكري حاملًا فنجان قهوة، قبل أن يتناوله استنشق رائحته وأغمض عينيه للحظات مستمتعًا بتلك اللحظة الجميلة التي على إثرها استيقظت حواسه مؤقتًا، نهض يحاول طرد الإرهاق والتعب اللذان استنفذا طاقته، أخذ يخطو بتثاقلٍ في غرفته ذهابًا وإيابًا.

حدق إلى الفنجان، كان هناك خيطًا رفيعًا من القهوة سُكب على ظهر الفنجان، تأفف واغتاظ، مسح الخيط بطرف أصبعه. مد يده قبل أن يكمل التليفون رنته الثانية ورد في ملل:

- أهلا يا حسام.

- فاضي؟

- أيوه.

- استناني قدام القسم بعد خمس دقائق.

لا يعلم أين سيذهب برفقة حسام وتمنى ألا تكون نزوة من نزوات حسام الطائشة.

تناول ملفات القضايا وبشكلٍ سريع وضعها كلها داخل مظروف ورقي وحشرها تحت إبطه، وارتشف قهوته على جرعتين لم يشعر بسخونتها ومن ثم هبط وتوقف أمام القسم منتظرًا..

كان الشارع ساكنًا عدا من حفيف أوراق الشجر الذي يُساق من قبل الريح، ومصباح إنارة يصدر ومضاته في تقطع مستمر.. لمح من بعيد قطة تعبر الشارع وقد ألقت القبض على فأرٍ مشاكس طازج

ما زالت قدمه تعافر لعله ينجو من بين فكيها.. اختفت أسفل السيارة، رأى من بعيد ضَوء سيارة قادم تجاهه، كان حسام وسمير هو من يجلس خلف عجلة القيادة، انطلقت بهم السيارة.

- سأله ماهر: على فين المشوار يا حسام؟

- هنزور "أبو الليل".

قالها وهو يسترخي في مقعده بشكلٍ يوحي بعدم الانبساط:

- كويس.

- انت مشغول بعد الزيارة؟

- لو رجعت على خير هكون فاضي.

ابتسم حسام شامتًا، لطالما كره زيارة المدعو "أبو الليل" شيخ البلطجية:

- متقلقش يا ستالين، هتعدي على خير.

سأل سمير مستنكرًا:

- ستالين؟

أجابه حسام قائلًا:

- لقب ماهر باشا في الكلية.

ابتسم سمير في سخرية..

- فسأله حسام: مش عاجبك ولا إيه يا سمير؟

- أبدا يا بيه، بس تخيلته بيتكلم روسي.

تدخل ماهر قائلًا:

- طلعت بتعرف تضحك زينا، وأنا اللي كنت فاكرك من غير سنان.

- مش قصدي يا بيه.

طلب حسام من سمير التوقف جانبًا بسبب بطئه في القيادة.

انطلقت السيارة مسرعة تخترق الطريق كالبرق، كان يراوغ كما لو كان في سباق، اعتادا على سرعته في القيادة فلم يعترضا، انعطفت السيارة إلى طريقٍ فرعي ترابي وعر مليء بالحفر، من فرط السرعة كانت السيارة تقفز من مطب إلى آخر وهم في داخلها كأنهم على ظهر ثورٍ هائج، على جانبي الطريق كانت أعمدة الإنارة متوقفة عن العمل، في استراحة دائمة، كان بعضها محطم والآخر مسروق مصباحه، على حافتي الطريق ارتفعت أسوار كُتب عليها بالخط العريض "مدافن عائلة

إسماعيل"، "مدافن عائلة الدمنهوري"، "مدافن عائلة الخياط"... على حين غرة من فوق السور قفز شابٌ وبعد لحظات تبعه شابٌ آخر، يحملان في أيديهما أكياس سوداء، سرعان ما اختفيا في الظلام.

- قال سمير: صراصير الليل.

- قال حسام: أنا مش عاوز أندفن هنا، أنا مش مستعد حد يلعب في دماغي بعد ما اموت.

- قهقه ماهر وقال: متقلقش، حط حارس على قبرك.

ساد صمت للحظات، وانشغل كل منهم في مراقبة الطريق، وظهرت قطط تلمع عينيها وسط الظلام.

سأل حسام ماهر:

- ليه ربنا مخلقناش بعيون زي عيون البوم والقطط؟

- وانت عايز عيون قطط وبوم ليه؟

- عشان نشوف في العتمة.

- وإيه الحاجة اللي عاوز تشوفها في العتمة؟

- لو عندنا عيون قطط كان ممكن نشوف المستخبين...

- بس خلاص، أنا كده صدقتك.

ساد صمتٌ ثقيل داخل السيارة، لم تعد تسمع شيئا وبالكاد ترى خلفك شيئًا، سأل حسام سمير:

- ها يا سمير! وصلنا ولا لسه؟

- لما تسمع صوت الكلاب يبقى وصلنا يا باشا.

بعد لحظات، دوى نباح الكلاب وتردد صداه بين القبور وبين الصخور الصماء والجدران العالية، توقفت السيارة بسبب صخرة ضخمة أغلقت الطريق.

- يلا يا رجالة.

قالها حسام مندفعًا خارج السيارة.

لم يكن القمر حاضرًا بضيائه ليضيء الرجاء بإضاءته الواهنة، فقد توارى خلف السحب مستريحًا، كانت الرياح تمر بين من بين الصخور مصدرة صفيرًا حادًا يبعث في النفس الرعب.. تناول سمير مصباحًا من جيب الباب وكذلك حسام، لم يكن هناك مصباح لماهر، خرجوا تباعًا.. كان ماهر يسير خلف حسام ويهتدي بضوء مصباحه، حاول كشف المكان الشاسع الذي لم تستطع المصابيح بلوغ نهايته، كان المكان مهجورًا مكفهرًا، صخور فوق صخور، وبيوت خاوية خالية، لا أبواب ولا نوافذ ولا حتى أسقف، مجرد أحجار متراصة وجدران تآكلت، للحظة انتاب ماهر الذعر عندما قفزت من أمامه قطة.

قال حسام بصوتٍ مرتفع تردد صداه في الأرجاء:

- احنا هنا يا أبو الليل، ليه كل الدراما دي، اظهر وبان عليك الأمان.

بعد دقائق من السير المرتقب بين الصخور وفوق الحصى تردد صوتٌ مبحوح مُنَفِّر قائلًا:

- كل مرة كنت تشرفنا لوحدك يا حسام...

- حسام باشا يا "مليجي"، فين معلمك؟

تمتم سمير مخاطبًا ماهر:

- على الأغلب "أم مليجي" نكحها رجل لو بلع ريقه هيموت من كتر السم اللي في دمه.

رفع حسام كشافه اليدوي لمصدر الصوت ليكشف عن رأس مربع مليء بالغضون الغائرة المتقاطعة ولحية بيضاء قصيرة، وشعر خشن يشبه صوف الخروف، وأنف أشبه بأنف التيس وعينين صغيرتين ثاقبتين ذواتا جفنين متهدلين، قريبًا من الأرض – قصير - لم يخطُ أبو الليل خطوة دون أن يستشير مليجي الثعلب، فهو يعده ذراعه اليمين.

- يا راجل نفسي اشوفك لابس جلابية عليها العين، إيه؟ مش ناوي تنضف وتريح مناخيرك من ريحتك المعفنة، ولا اتعودت عليها خلاص؟

- باشا، ياريت تلزم حدودك.

- حدودي مش معاك ولا مع غيرك يا مليجي.

- انت عارف...

تدخل أبو الليل وظهر من بين الظلام، اقترب منهم وصافحهم بيدٍ قويةٍ صلبة ما زالت محتفظة بشبابها، من خلفه اشتعلت مصابيح سيارة من نوع جيب، صرفت الظلام لفترة لن تطول.. أبو الليل، كان ذو عينين ذكيتين تشعان نشاط، وجفن أحمر، وشفة سفلية رقيقة، وجبين مرتفع ملتصقًا بصلعته، كث اللحية، ملامحه توحي بأنك أمام رجل ذي هيبة وتواضع، حول رقبته لف وشاح أسود من الصوف ويرتدي جلابية سوداء ثقيلة وفوقها معطف أسود من الجلد بياقةٍ من الفرو.

- اتفضل يا حسام... بيه.

- فين كابوس يا أبو الليل؟

- وأنا إيش عرفني، انت عارف إنى اعتزلت الشغلانة من زمان، ومماليش خُلق أعرف مين ده ولا ده بيعمل

إيه، أنا خلاص بطلت البلطجة.

- شبعت منها، ولا الموج عِلي عليك؟

- لا، الحرام محدش يشبع منه، والبلطجة بتحقق حلم الناس الغلابة اللي زينا.

- أبو الليل.. انت عاوز تقول لي إنك متعرفش كابوس فين؟ مستحيل يكون واحد زي كابوس صيته مسمع وإنت متعرفش عنه حاجة؟

- أنا سيبت الكار ومقولتش إنى مسعمعتش عنه حاجة.

- طب قول لي انت سمعت إيه، ولا خايف منه يطلع لك في المنام؟

- أنا مخافش من حد، والخواف ميعش بينا، بس عشان أريحك وأريح اللي معاك عشان شايفهم مستعجلين، وأنا بصراحة معنديش وقت لكلام ميدخلش عليه مصلحة، خليني اقولك إني سمعت إن كابوس مات أو انتحر.

- انت متأكد م اللي انت بتقوله؟

- انت اللي متأكد من سؤالك؟!

وتابع بعد برهة...: أشوف وشكم على خير يا باشوات.

لم ينبس أحدهم بكلمة طوال الطريق، أراد ماهر أن يخرج اليأس الذي حل به عندما علم أن كابوس انتحر، عاجلًا أو آجلًا ستُغلق القضايا وستسقط مع الزمن، ولن يُلقي القبض على إبراهيم والرجل ذي الإبهام المقطوع، سيضيع حق بسبب إهمال وعناد حسام، لو اهتم بصابر لما حدث هذا كله، احتمالات لا حصر لها راودته في تلك اللحظة وفرضيات لا حلول لها، كل ما أراده في تلك اللحظة هو أن يطرد أفكاره، حاول طردها دون جدوى، تساءل: "معقول تكون قضية فريدة مرتبطة بقضايا الاغتصاب؟ ولكن الرابط بينهم بس التاريخ، لو بس نعرف إذا كان كابوس مشترك من عدمه؟ معقول يكون قد اشترك معاهم في جريمة القتل؟ ولكن آثار الخشب الدولاب المكسور بتدل على إيد قوية نزعته من مكانه، طيب وجريمة القتل اللي وقعت من خمس سنين؟ القاتل مجهول، وفي نفس التاريخ، معقول يكون في رابط بين كل القضايا ولا مجرد صدفة؟ بس نتأكد ازاي؟".

فكر، هل يعتذر من حسام ويذهب إلى بيته ليقرأ الملفات، ولكن ماذا لو لم يصل إلى نتيجة، ماذا لو لم يجد شيئًا ذا قيمة يفيد التحقيقات في القضية؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8

جلس يحيى على المقهى، وحاول تفسير ما حدث؛ لماذا أصابته تلك الرعشة؟ ما سببها؟ هل سيشعر بها مرةً أخرى أم أن حدتها تخف كلما اعتاد الأمر؟ كانت رعشة جميلة هزته وغمرته بسعادةٍ ونشوة لم يتوقعها، كانت يدها الناعمة أول يد تلمس جسده الثائر، مما زاد إصراره على السير خلف سوزان، ازداد تعلقه بها، رغم إنها تكبره بعام إلا أنه لم يهتم، كل ما يفكر به هو إرضاء قلبه والوصول إلى قلبها، ليس فقط الوصول إليه، وإنما الفوز به وامتلاكه.

لم يكن يعلم أنه يسقط في براثنها دون علم، لم يكن يعلم أنها تريد شخص يشبع رغباتها التي عصفت بها وأهلكتها وينقذها من عارها الذي جعلها تلجأ لشخصٍ مثل يحيى، أما روحها فلن يشبعها شخص مثله.

لمح هلال ابن العطار يجلس في مكانه المعتاد فاتجه إليه في لهفةٍ وسعادة. كان هلال نحيل الجسد والوجه، متوسط الطول متوسط الجمال، واسع العينين وأهدابه مستقيمة، يملك عينين كعيني الفيل، مريض بمرض المعرفة والبحث في شؤون الآخرين، يراقب الجميع دون كلل أو ملل، لديه ذاكرة قوية، كان آخر شخص يغادر المقهى، أطلق عليه والده البومة بسبب عودته متأخرًا، كان قليل الحديث حتى في بيته، ويعرف الكثير والكثير عن أهل الحي ولا يعرف أحد عنه شيئًا.

جلس يحيى أمامه مبتسمًا في سذاجة:

- تعزمني على إيه؟

- المفروض انت اللي تعزمني، بس مش مهم خليها عليا المرة دي.

طلب عصير فراولة.

- يحيى، خليني أحكيلك حكاية.. لو عرفت بطلها هعزمك كل يوم، اتفقنا؟

هز يحيى رأسه في سعادةٍ بالغة:

- شوف يا سيدي.. في راجل كبير في السن، ربنا رازقه وموسع عليه حاله، بس مش مخلي ست من شره، كل ما تعجبه ست لازم يطولها، وهو شاطر ولسانه معسول وحلو، شفت عنده أكتر من ست في مختلف أعمارهم، حتى إني مرة شوفت عنده الست فريدة، متستغربش يا يحيى، وكانت كلمة السر بينهم عين العفريت... وضع الصبي كأس العصير وانصرف، وتابع هلال: يعني الست تيجي وتطلب عين العفريت وتنزل تحت في الدور التحتاني، أنا صادفت أكتر من مرة إني اشوفهم وهما بيعملوا... استغفر الله، وكان بعد ما يخلص يطلع من جيبه كام قرش ويرميهم للمحتاجين، عرفته؟

حدق يحيى كالأبله للحظات قبل أن يقول:

- لا معرفتش، بس عندي سؤال... الست فريدة عمرها أخدت منه فلوس.

- الست فريدة عمرها ما نزلت تحت يا يحيى، بص وراك يا يحيى، سوزان...

حدق خلفه، كانت تسير مسرعة تجاه شقتها..

- سأله: أعمل إيه؟ أمشي وراها ولا إيه؟

- انت عاوز إيه يا يحيى؟

سأله هلال وعيناه تتابع اختفاء سوزان خلف ستارة الليل..

صمت، لم يجد إجابة لسؤاله، تساءل: "أنا عاوز إيه؟"، إنه لا يعلم ماذا يريد حقًا، لم يفكر يومًا في هذا السؤال، ماذا يريد منها؟ بدا مشوشًا تائهًا، حدق إلى هلال للحظات، لم يَعِ سبب نظراته الجافة المبهمة تجاه هلال؟ لربما بسبب الإرباك الذي سببه له، لم يجد في وجه هلالَ النحيل إجابة تشفي صدره وتنزعه من حيرته، ما وقع به كان أمرًا خطيرًا، لم يسعفه شروده ولا تفكيره في الأمر، ماذا يريد وهو لا يملك من إرادته شيئًا. حتى إنه لم يستطع أن يقرر هل يذهب خلفها أم يظل هنا بجوار بن العطار أم يذهب إلى غرفته؟ لعله تفاجئ بأنه لم يستخدم عقله طيلة الأيام الماضية، لذلك لم يكن عقله مهيئًا لتلك الجلبة التي حدثت في رأسه.

قطع شروده هلال، وقال ناصحًا:

- اللي انت عاوزه سيبه يستوي يا يحيى، وهيقع لوحده.

- قصدك إيه؟

- هو الواحد لازم يوضحلك كل حاجة، اعمل اللي انت عاوزه، يلا مع السلامة.

أفرغ كأس العصير في معدته ونهض مستفزًا، حاول أن يفهم ما يقصده بن العطار، ولكنه لم يصل إلى نتيجة تشفي صدره، لا يحب يحيى التفكير في الألغاز، ولا يحب التفكير في أي شيء، عقله كساه الصدأ من قلة الاستعمال، يتمتع بثقل في استيعاب ما يدور حوله، جاهل، مغفل، تواجده في الورشة بشكلٍ دائم جعل من عقله كتلة من الحديد الصلب التي لا تستجيب سوى بالطرق، كان وجهة نظره في ابن العطار أنه شخصٌ عديم القيمة وقليل الحيلة ولا فائدة منه.

صعد على مهلٍ إلى غرفته وانزوى في أحد أركانها وأشعل سيجارة لتشاركه ظلمته ووحدته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ترجل حسام وماهر من السيارة وسارا باتجاه الكازينو، قرأ ماهر اليافطة التي كُتب عليها "كازينو القمر" كان جديدًا وكانت أغلب السيارات المركونة تحمل لوحاتٍ جمركية.. تقدمه حسام وفتح لهما حارسان الباب الزجاجي، أخذا يسيران في ممر عُلقت على جدرانه صور لبعض المشاهير، توقف ماهر ونظر إلى صورة تحمل سيدة جميلة:

- بص يا ماهر، بص الحلاوة والشقاوة، دي لو كانت في نفق هتنوره، يا مارلين مونرو انتِ أجمل ست شافتها عنيا.

قال حسام، وهو يعض على شفتيه.

تمتم ماهر بكلماتٍ غير مفهومة، واستمرا في السير.. بجوار الجدار وقف شابٌ وسيم يرحب بالقادمين بابتسامة عريضة مزيفة وعيناه تفضح إرهاقه وتلعن وقفته الرخيصة المُذلة، كانت هيئته توحي بأنه شخصٌ متعلم، وقف ينحني للقادمين في استياء.

جلسا على طاولة في إحدى الزوايا البعيدة عن الراقصة، كانت الراقصة ترقص وتتمايل بابتسامة مصطنعة، كان الإرهاق باديًا عليها، ويدها تتحرك في الهواء بطريقةٍ غير متناسقة وعشوائية غير منسجمة مع الموسيقى، كان كبير النُدُل يطوف على الطاولات ويوزع ابتسامته المزيفة على الحاضرين ويسجل ملاحظاتهم، ويسير خلفه اثنان من النُدُل يجمعان الزجاجات الفارغة، بعد نظرة سريعة، متفحصة للمكان، انتبه حسام إلى طاولة هي الوحيدة التي وُضع عليها ورود مختلفة ألوانها، يجلس عليها ثلاث رجل وامرأة، كانت تبعد عن ماهر وحسام مقدار عشر خطوات أو أقل، خالية من أي نوعٍ من أنواع الخمور، كان اثنان ينظران تجاه الراقصة، والثالث يجلس وظهره تجاه ماهر وحسام، والسيدة جميلة في منتصف عقدها الرابع.

أحضر النادل زجاجتين بيرة كستهما قطرات الماء كشخصٍ تصبب عرقًا، بدأ المكان يتحول إلى سوق عندما نزلت الراقصة لتتمايل بين الطاولات وتجر خلفها اثنين يجمعان المال المتساقط من أيادي السكارى، حضرت إلى الطاولة التي استقرت الورود عليها، وأخذت تتمايل وتغمز أحد الجالسين الذي كان يرتدى بدلة سوداء وشعره مصبوغ بالأسود، كانت رؤوس الحاضرين تتبعها أينما ذهبت.

أشار بيده حسام إلى ماهر قائلًا:

- اللي هناك ده.. فاروق صاحب الكازينو.

كان الرجل في منتصف الأربعين، كثيف الشيب، عيناه واسعتان حمراوين، غليظ الشفاه وضخم الأنف.

- مين اللي حواليه؟

- معرفش، يمكن صحابه أو ناس بينهم شغل.

بطرف عينيه الداكنتين لمح فاروق تركيز حسام وماهر عليه، فمال برأسه على شخصٍ يجلس بجواره وهمس في أذنه، بعد لحظات التفت الشخص وألقى نظرة على ماهر وحسام وسرعان ما نهض، وتقدم نحوهما ملوحًا بيده في الهواء.

- أهلًا وسهلًا يا حسام بيه.

- أهلًا بيك، انت...

- أيوه، بالظبط، أنا حسين صديق اللوا توفيق.

- صديقي ماهر بيه.

- أهلًا وسهلًا شرفتونا، المكان نَوَر، كنتم بلغونا وكنا عملنا معاكم الواجب؟

- مكناش ناوين...

- مش مهم المرة دي، بس المرة الجاية ضروري تبلغني، اتفقنا؟

- شكرًا يا...

- ده واجبي يا باشوات.

- انت شريك اللي...

- أيوه، أنا شريكه، والست اللي هناك "ليلى هانم" هي الكل في الكل، اسيبكم براحتكم، والمشاريب علينا أصل انتم ضيوفنا.

تنهد حسام كمن أزاح عن صدره همًا ثقيلًا، قائلًا:

- ده اللي قابلته عند اللوا، ده رجل الأعمال يا ماهر.

- ده حمار من الطراز الرفيع، المهم خلينا في المفيد.

- ارحمني يا ماهر، ريح عقلك شوية وسيبك من إدمان التفكير في القضايا، أقولك فكر لوحدك وسيبني استمتع بالهبلة اللي مش عارفه ترقص.

- انت بس اسمعني خمس دقايق.

أشعل حسام سيجارة وهو يحدق إلى ماهر الذي عكر مزاجه بسبب تفاهات العمل التي لا يؤجلها:

- امبارح طلبت من محمد وإسماعيل البحث في ملفات قديمة، واكتشفنا قضايا قديمة عمرها خمس سنين، جرايم اغتصاب وقتل كلها في نفس التاريخ.

- وبعدين؟ تناول زجاجة البيرة في استفزاز وارتشف منها على مضد.

- الواضح إنه الجرايم كلها مرتبطة بشكل ما، يعني ممكن تكون كلها تنفيذ نفس العصابة.

- صدفة.

قالها كمن يقول: "خلاص كفاية لحد هنا".

- ويمكن مش صدفة، ركز معايا شوية وبعدين هسيبك.

- طيب.. قال مجبرًا وفي ملل: إيه السبب اللي يخليك تقول إنها مش صدفة؟

- مش عارف، بس التاريخ واللي ارتكبوا الجرايم كلهم نفس المواصفات، وده معناه إن العمل ده في حد مخطط له.

- يعني في حد بينتقم منهم؟

- ممكن.

- شوف يا ستالين.. أطفأ سيجارته داخل علبة البيرة التي لم يذق لها طعمًا وتابع: الانتقام بيكون في القتل، بس الاغتصاب فين الانتقام فيه، مجموعة من الكلاب ينهشوا البنات والستات وخلاص على كده، فين التخطيط لكده؟ التاريخ مش مبرر.

بعد مُضي نصف ساعة قضاها كل منهم في عالمه الخاص المكبل بالقضايا، كان حسام يسترق النظر إلى الطاولة التي بجواره يريد معرفة من يجلس عليها، كان يجلس عليها شاب وسيم جذاب في مقتبل العمر، قابله أو رآه من قبل ولكنه لا يذكر أين وفي أي مناسبة؟ يرتدي بدلة سوداء أنيقة وقميصًا أسود من الحرير، على ما يبدو إنه مجبر على تواجده، كانت يديه متشابكتين ورأسه منكس في خنوع، وكان بين الفينة والأخرى يتنهد بألم ويسترق النظر إلى ساعته ويجول بنظره في الأرجاء بسرعة دون أن يعلق في ذهنه شيء، وبعده بمقعد كانت تجلس السيدة "ليلى"، جميلة تتمتع بشخصية قوية حازمة، ثيابها فخمة أنيقة، حول عنقها علق عقد من الألماس، كل من مر بجوارها كان يقبل يدها وينحني لتحيتها خوفًا وتقربًا منها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عاد ماهر إلى بيته وكله يقين أنه سيجد ما يسره بخصوص القضايا عاجلًا أو آجلًا، رغم اضطراب باله وتشتت أفكاره، كان الشك يفتح أمامه أبواب لا حصر لها، ويولد تساؤلات يبحث لها عن إجابات، في لحظة كلها أمل أدرك أنه يستطيع كشف خيوط الجريمة وتتبعها، ولكن قبل أن يستعجل هذا التفاؤل لابُد له أن يقرأ تلك الملفات حتى تصبح شكوكه يقينًا.

كانت منى تجلس في الشرفة ولفت جسدها بروبه، كان وجهها متوردًا وابتسامتها أشرقت في وجهها، طبع قبلة طويلة على جبينها أحس بدفئه، أقبل عليها كالمدمن، أدمن حبها وأدمن حضنها، ولكن هذه الليلة لن يكون هناك وقت للمداعبة، هناك وقت فقط للبحث، جلس أمامها وألقى الملفات على الطاولة، تناولت الظرف وكأنه رواية تنتظر صدورها، فتحته بسرعة وتناولت الملفات وألقت بالمظروف أرضًا، أحبت البحث داخل الملفات وبين الأسطر.

- كلها في نفس التاريخ، وفي جريمتين قتل، الست فريدة والتاني رجل أعمال، وجريمة اغتصاب من خمس سنين، كلها في نفس التاريخ، 5 أكتوبر.

- تمام، روح استحمى وريح نفسك شوية.

- لا مش هنام.

- على الأقل مش عاوزه أشم ريحة البيرة.

- طبعًا، ده من حقك.

قال منحنيًا معتذرًا كممثل محترف يقف فوق خشبة مسرح.

- انت بتعطلني وسيب كوباية القهوة مكانها.

- افتكرتها سخنة، وانتِ عارفه إني مش بحب القهوة الباردة.

نهض وتركها بين الملفات، العلاقة التي كانت بين ماهر وزوجته لم تكن علاقة زوج وزوجة أو علاقة بين رجل وامرأة، كانت علاقة متينة بين صديقين، تقاعس عن الذهاب إلى الحمام وعن إعداد القهوة، مدد جسده فوق الأريكة ليريح ظهره.

شرعت منى في قراءة الملفات، بدأت بأقدم قضية.. قضية القتل، التاريخ السابع من أكتوبر، رقم القضية (٣٨٨٧- ج)، وبدأت تقرأ أقوال المحامي "محمد فتحي سيد":

"كان "عبد الحليم صبحي" رجلًا وقورًا رصينًا، سريع التأثر والانفعال، بلغ من العمر الثالثة والأربعين، إن رجل الأعمال عبد الحليم صبحي، كان عائدًا من الخارج، فهو صديقي منذ الطفولة، سافرت بصحبته ولكني عدت بسبب مرض والدي رحمه الله، علاقتي به لم تنقطع، غاب عن البلاد حوالي خمسة عشر عامًا، كان مهندس مدني، أراد أن يفتح شركة استشارية، وكلني بأن أقوم بكل الإجراءات، استغرق الأمر حوالي شهر، لم يخبر أحد من عائلته بقدومه، في الماضي استغلوه أبشع استغلال، لقد كنت مطلع على الكثير من أموره العائلية، تزوج مرتين وطلق، ترددت عليه في شقته التي استأجرها، زرته مراتٍ عدة، حتى إنه زارني في بيتي كثيرًا وتعرف على زوجتي وأولادي، كانت تجمعنا علاقة ممتازة، أحيانًا كنا نجلس على مقهى العندليب، نستذكر ذكريات الطفولة، لم يكن لديه أصدقاء كثر، كان ينتقيهم انتقاءً، دائمًا كانت هناك هالة من الغموض حوله كان قليل الكلام، ولكنه استشارني في أحد الأيام وأخبرني أنه يتمنى أن تكون لديه شركة خاصة، شركة مقاولات، لم يحقق حلمه ذلك المسكين، العلاقة التي نشأت بيني وبينه كانت فريدة من نوعها، لم تجمعنا أي مصلحة، كانت صداقة بحتة، كم افتقده! قبل ثلاث سنوات لم أكن أملك مالًا، شكوت إليه أن والدتي تتمنى عمرة قبل وفاتها، بعد أسبوع هاتفني.. كان قد حجز لي ولوالدتي، لقد أهداني عمرة في شهر رمضان، رحمه الله وأحسن إليه، في ذاك اليوم، كان سيزورني، كنا سنذهب إلى أحد الأصدقاء، وعندما تأخر الوقت ذهبت إلى شقته فلم أجد البواب، صعدت إلى بيته وجدت أفراد الشرطة هناك، في الشقة".

لم تجد شيئًا ذا قيمة، قرأت محضر التحقيق مع البواب، لحظة وقوع الجريمة لم يكن البواب في المكان، كان في السوق، وعليه أُغلِق المحضر في تاريخه وساعته.

ابتسمت باستهزاء، سمعت صوت شخير ماهر يرتفع ويرتفع، نهضت في تثاقل وتباطؤ، جلست بجواره تتحسس جسده القوي، همست في أذنه: "قوم يا ماهر" فتح عينيه بصعوبة بعد عدة همسات ومداعبات هنا وهناك، لم يمضِ على نومه ساعة أو يزيد، ساعة من النوم كانت كفيلة أن تريح جسده المرهق ولكنها زرعت في رأسه طنين ذبابة، نهض متثاقلًا، صفع خديه بلطف وتثاءب بقوة، جلس أمامها وأشعل سيجارته، نظر إلى الكأس لم يجد في قعره سوى بقايا البن الجافة، أدار رأسه يمينًا ويسارًا بسبب ألم تمدد أسفل رقبته، سألها:

- لقيتي إيه يا منمن؟

- محضر مقتل رجل الأعمال محضر صوري، مفيش فيه أي معلومة مفيدة، ومحضر جمع الاستدلالات مش مذكور فيه ازاي مات الراجل، وتقرير الطب الشرعي مش موجود..

فرك عينيه براحة يديه، لسع عينيه خيط الدخان الذي اصطدم بهما، فتابعت: أعتقد إن في حد رفع تقرير الطب الشرعي، ولازم نعرف إيه اللي حصل في بيت القتيل.

لم يكن عقله يستوعب ما تتحدث به تلك السيدة الجميلة ذات الصوت الموسيقي العذب، قال متثائب:

- يعني انتِ قصدك إن احنا لازم نلاقي تقرير الطب الشرعي؟

- صح كده، يعني لازم تزور "الدكتور أسامة"، أكيد عنده نسخة.

- الدكتور أسامة... امممم... طيب.

- لو افترضنا الغرض من القتل هو السرقة، يعني لازم يكون في حد مراقبه، بس المحامي قال إنه مالوش قرايب، والوحيد اللي كان بيزوره هو المحامي، يا إما المحامي كداب أو في حد من...

استنشق دفعه من الهواء اتسع صدره واستفاق عقله واتضحت رؤيته وسألها:

- مين؟ مالك سكتِ؟

ردت وهي تحدق في الفراغ:

- معقول يكون في حد من موظفين البنك كان بيراقبه؟ أو عرف إنه سحب فلوسه...

رفع قدمه ووضعها تحت فخده وأسند ظهره واستدار إليها وهو يمد يده إلى وجهها ليديره صوبه وقال:

- لحظة عشان افهم يا منى، لو فرضنا إن موظف البنك عرف إن الراجل سحب فلوسه، إيه اللي يخليه يعرف إنه حطهم في الشقة، أو مش يمكن حطهم في بنك تاني؟

- سؤال يا ماهر، لو انت عاوز تعرف أي حاجة من قسم شرطة في محافظة تانية هتعرف ولا لا؟

- أكيد هعرف.

- هتعرف ليه؟ علشان انت راجل شرطة ولا علشان في زميل ليك هيساعدك؟

- مش ممكن يا منى، معقول يكون موظف البنك اتصل على صحابه وسأل عن الراجل؟

- ممكن، بالمناسبة أنا سيبت شغلي النهارده مش قادرة أكمل.

- كويس جدًا، أحسن حاجة عملتيها، نسيت أقولك.. صابر مات في زنزانته.

- ازاي وامتى؟

حدقت إليه في غيظٍ وسألته، أجابها وهو يفرك عينيه المرهقتين الناعستين:

- إهمال حسام.

رن التليفون، نهض ماهر متثاقلًا، كان حسام على الطرف الآخر، كانت نبرة صوته هادئة ولكنها تخفي توتر وغضب، أخبره حسام بأن مديره سالم أمر بتحويل جثة صابر إلى الطبيب الشرعي وأغلق السماعة في هدوء، فرك عينيه بلطف قبل أن ينهض، تنهد حزنًا على صديقة حسام خوفًا أن يطاله مكروه، أخبر زوجته بما أخبره به حسام وذهب لينام.

كانت عيناها تقع على الملفات بين الحين والآخر، ترددت.. تناولت علبة سجائره وأشعلت واحدة، كانت تدخن كما لو كانت متمرسة، لم تكن هذه أول سيجارة تسرقها من زوجها، شعرت بدوار خفيف وزغللة بسبب أنفاسها المتلاحقة، أسندت رأسها بلطف وأغمضت عينيها للحظات وانتابها شعور بالضيق، استاءت من نفسها، شعرت أنها ستضر طفلها وتؤذيه، فتحت عينيها وألقت بالسيجارة في كأس القهوة، نظرت إلى الملفات مرة أخرى، قالت محدثةً نفسها: "ذنبهم إيه؟ ذنبهم انهم ستات!".

أحست بالمسؤولية ملقاة على عاتقها وبضرورة استكمال البحث، كما لو تبنت إحداهن، خُيل لها أنها تحضر لمرافعة أمام القاضي لتدافع عن هؤلاء الفتيات أمام من سلبهن حقهن متعمدًا، أحست بوجعهن، كما لو كانت تعرف إحداهن.

ظلت تتفحص القضايا التي أمامها حتى مطلع الصباح، انتابها شعورٌ قوي، مثل ذاك الشعور الذي انتابها في أول مرافعة لها وهي تدافع عن سيدة اتُهِمَت ظلمًا، بعد انتهائها من القراءة والتدقيق توصلت إلى نتيجة أن كابوس هو الشخص المشترك في جميع القضايا، جميع المواصفات كانت تشير إليه، رجل ضخم الجثة كبير اليدين، والرجل ذو الإبهام المقطوع مشترك أيضًا، في إحدى القضايا قالت الفتاة إنها لاحظت وجود بعد التشوهات على ذراع أحدهم، وصلت إلى نتيجة مفادها أن ثمة تشابهات عديدة بين كل تلك الجرائم، ولكن من يا ترى المستفيد منها؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد مرور يومين اجتمع سالم مع حسام، وكان ثالثهما التقرير الذي أمسكه سالم بيده، لوح به في وجه حسام، لم يكن يعلم ما بداخله رغم محاولاته الفاشلة في استمالة الطبيب أسامة - دكتور الطب الجنائي- إلا إنه لم يصل إلى أي شيء، كان كل همه هو تأجيل أي عقاب حتى يحصل على رتبته، لم يكن يعلم أنه سَيُوبخ على فعلين.

نهض سالم من خلف مكتبه وجلس أمام حسام:

- شوف يا حسام، أنا بحبك وبحترم فيك رجولتك وتصرفاتك الشجاعة وقراراتك اللي كان نفسي أشوفها في ظباط كتير، بس ده ميمنعش إنك تبلغني لما تقرر تزور أبو الليل، لو حصلك أي مكروه، هنكون خسرنا ظابط عنيد زيك، وأنا عندي كام ظابط عنيد، دي حاجة، الحاجة التانية اللي يا ريت تتعلم منها، لما تقبض على أي حد متعور أو متنيل على عينه ياريت تعرضه على الدكتور، احنا مش ناقصين وجع دماغ من المفتشين وبعدين مش هتخسر حاجة، احنا خسرنا شاهد قوي بعنادك اللي ملوش أي مبرر، والسجان أنا شكلت لجنة عشان تشوف موضوعه.

تنهد بغضبٍ وتجرع قليلًا من الماء وأكمل حديثه: المهم، لقينا آثار لأظافر على رقبة صابر، واللي قتله شمالي، في حد ساعده في دخول المكان، في خاين عندنا، لازم اعرف مين هو، انت ملكش أي

دعوة، خليك بعيد، فاهم؟ ومش عاوز حد يعرف أي حاجة بنتيجة التشريح، أي حد يا حسام؟ اسمعني...

قاطع حديثه جرس التليفون، فالتقط السماعة ورد:

- أهلًا وسهلًا معالي الباشا.. تحت أمرك! ملف الورق المتساقط قضية...؟! لم يكمل جملته وهو ينظر إلى حسام من طرف عينيه.. أيوه، فاكره كويس.

جلس حسام صامتًا مترقبًا، ولكن جملة "ملف الورق المتساقط" أثارت انتباهه بشدة، فأنصت بتركيز إلى مكالمة سالم باشا:

- متقلقش معاليك، المعلومات اللي عندنا سليمة مية في المية، مش هتحصل أي مشاكل، هنرفع الملف للنائب العام... أنا متأكد معاليك... تمام معاليك، مع ألف سلامة.

ما أن أغلق سالم السماعة، حتى باغته حسام بسؤال:

- باشا، إيه هو ملف الأوراق المتساقطة؟

- حسام، القضية دي على درجة عالية من السرية، أقسم بالله إذا حد عرف أي حاجة عن اللي سمعته ما حد هيجردك من رتبك غيري.. مفهوم؟

قبل قليل كان مسجونًا داخل عالم من الفوضى والاضطراب، هاجت وساوسه كعش الدبابير، جالت في خاطره أفكار عن عقابه الذي سيحل به لما ارتكبه من مخالفات قانونية لا تغتفر، ظن أنه سينقل من مكانه، إنه سيحال للتحقيق، وأن رتبته ستتأخر وسيخصم جزاء من راتبه، ولكن بفضل مديره الذي اكتفى بتحذيره، خرج حسام منتصرًا، تبدد القلق الذي عصف به والأفكار التي ثبطت عزيمته، شعر بحرية.. كما لو كان مقيدًا وكُسر قيده، لم يكن يتوقع أن يكون هذا مقدار عقابه، تحذير.. توقع أن تكون الأمور أسوأ، هدأ أخيرًا، وأُزيح ثقلًا كان يجثم على صدره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9

في هذه الأثناء كان ماهر يصعد الدرجات التي تقوده إلى الطبيب أسامة دكتور الطب الشرعي، وصل إلى مكتب الطبيب، كان باب الغرفة مواربًا، طرق عدة طرقات بلطفٍ وخفة، جاءه صوته من الداخل كمن ينادي من قاع بئر، دخل مترددًا خوفًا من أن يكون قد قطع كتابته لتقرير، فكم اعتذر منه الطبيب على الهاتف بسبب انشغاله، حتى أنه أحيانا يرفع السماعة ويغلقها دون أن يعلم من على الطرف الآخر.

وجده جالسًا خلف مكتبه يحدق إلى شاشة الحاسب الآلي، ونظارته الطبية ذات العدسات السميكة معلقة على أرنبة أنفه الكبير العريض، وجهه مستدير ممتلئ، وجسد قوي البنية تشعر كأنه صُمم خصيصًا لمواجهة أرواح الموتى، نظر بطرف عينيه من فوق النظارة وقال: تفضل يا ماهر بيه.

جلس ماهر في سكون، انتاب ماهر شعورًا غريبًا كأن طريقة الترحاب فاترة أو أنه حضر في وقتٍ غير مناسب، تعامل مع ماهر كما لو كان ساعي بريد أو صبي القهوة، لم يكن ماهر من أولئك الأشخاص الذين يستغلون مناصبهم للوصول إلى ما يرغبون فيه، كان الصمت هو المسيطر على أجواء الغرفة وبين الفينة والأخرى كان صوت نقرات أصابع الطبيب على لوحة المفاتيح تكسر حاجز الصمت، وبطرف عينيه لمح إصبعي السبابة المتدليان ينقران في بطء كشخص مبتدئ.

أشعل سيجارة ومد أخرى للدكتور، نظر إليه من خلف العدسات التي زادت من حجم عينيه وقال:

- شكرًا، معايا.

أيقن أنه جاء في وقتٍ غير مناسب، اعتاَد تصرفات الطبيب الجافة الغير مؤدبة أحيانًا والغير متوقعة أيضًا، ترك الطبيب ما في يده، أشعل سيجارة بدوره، ونادى على أحدهم.. فدخل مسرعًا وطلب منه فنجاني قهوة، واحدة مضبوطة والأخرى سكر زيادة، ابتسم ماهر، فلم ينسَ الطبيب قهوته المضبوطة.

نظر إليه الطبيب من فوق نظارته وسأله بنبرةٍ هادئة رقيقة اعتادت الحديث إلى الموتى:

- بتبص على إيه يا ماهر؟

تابع الطبيب شعاع نظر ماهر فالتفت كانت هناك صورة فوق مكتبه وتابع يقول مبتسمًا: اها، "الدكتور ريتشرد شيبرد"، تابع حديثه مستهزئًا: طبعًا انت متعرفش مين "ريتشرد شيبرد"؟

- بس شكله دكتور مشهور جدًا.

قال ماهر محاولًا إخراج نفسه من الورطة التي زُج بها.

- فعلًا، هو من أشهر أطباء العلم الجنائي، هو اللي شرح جثة "الملكة ديانا"، أكيد عارفها اللي كانت مع الشاب المصري "مصطفى" اللي ماتوا في لندن سنة...

- 30 أغسطس 1997.

- ده تاريخ وفاة مصطفى، بس ديانا ماتت تاني يوم، طب خد عندك دي يا ماهر، مج نفسًا طويلًا من سيجارته وتابع بأنفاسٍ محملة بدخان سيجارته خرجت أثناء حديثه: انت تعرف إن هو اللي باشر التحقيق في أحداث 11 سبتمبر، طبعًا مكنتش تعرف يا ماهر.

صمت للحظات قبل أن يسأل مساهر عن سبب حضوره.

أجاب ماهر محاولًا تفادي تلاقي عينيه بيعيني الطبيب لمنظرهما البشع من خلف النظارات:

- في قضايا قديمة بنحقق فيها.

خلع نظارته ومسحها بطرف مريوله الأبيض وأعادها مكانها وقال:

- يعني انت عاوز تقرير الطب الشرعي اللي كان موجود في القضية ولا عاوز حاجة تانية؟

- أنا عاوز التقرير، أصل...

- مش لازم اعرف السبب يا بيه، دي مشاكلكم انتم، رفع نظارته إلى مستوى عينيه وحدق إليها تجاه ماهر الذي ظهر من خلفها برأس كبيرٍ وعينين جاحظتين كعيني فرس النبي ونزع عن العدسة شعرة سوداء عالقة بها وأضاف: مع أني أعتَقد إن في حد تعمد إخفاء التقرير، أصل النهارده في ظباط بنت ستين في سبعين، مع احترامي ليك انت ظابط أنا بحب اتعامل معاه، ممكن رقم القضية وأي سنة؟

أخرج ورقة دُون عليها رقم وسنة القضية.

- سنة ١٩٩٦ ورقمها ٢٧٧٩- ج.

- تناول الورقة وقال وهو يغرس سيجارته في المنفضة الممتلئ قعرها بالرمل الأصفر:

- اتفضل معايا.

نهض ماهر في اندفاع ونشاط، توقف أمام يافطة نحاسية عتيقة حُفر عليها إلى الأرشيف، تبعه في هبوط الدرج الأسمنتي الدائري، تدلى في منتصفه مصباحٌ عتيق تجمعت فوقه أتربة خففت من وهج المصباح.

دفع الطبيب بيده باب شبكي من الحديد، أصدر عنه أزيز حاد ومزعج، مد الطبيب يده اليسرى ليتحسس مفتاح المصباح، أضاء ممر طويل مهجور، تجمعت على كلا الجانبين ثلاث غرف مغلقه بأبوابٍ خشبية عتيقة، تقدم الطبيب وتبعه ماهر الذي سعل بمجرد أن أخذ يسير في الممر الذي نشطت فيه ذرات الأتربة كأنها استيقظت من غفوتها، أصابت المكان رائحة عطنة محملة بالرطوبة والأتربة.

توقف الطبيب أمام غرفة بابها بني اللون وذات خشبٍ سميك وكوة أعلى الغرفة، فتح الباب ودفعه بقوة ليصدر عنه أزيز شديد، أشعل الطبيب مصباحٍ معلق وسط الغرفة ليضيء غرفة تجمع في زواياها بيوت عناكب فارغة ومهجورة، كانت الغرفة بها رفوف خشبية مهترئة مثبتة على الجدران وتحمل قضايا لا حصر لها.

توقف وسط الغرفة وأجال بنظره على الملفات بسرعة، يتفحص الأرقام التي كتبت على غلافها الخارجي، وصل إلى ملف يحمل رقم ٩٦- ج.

- ماهر، الملف اللي هناك ده هاته، الكرسي مش هيتحملني، ضحك بصوت ٍمرتفع وتابع: يلا يا رشيق.

أزاح ماهر الكرسي بيده، وصعد فوقه وتناول ملفًا تجمعت عليه طبقة غبار سميكة كأنها تريد طمس الحقيقة.

تناول منه الطبيب الملف ونفخ عليه بقوة ليتناثر التراب مشكلًا سحابة أسفل ضوء المصباح، لوح بيده ماهر ليزيح التراب الذي سعل بسببه، ألقى الطبيب الملف فوق الطاولة لتخرج منه بقايا تراب عالقة بين أوراقه، فتح الملف وقد تحول الورق الأبيض إلى اللون الأصفر الغامق، أخذ الطبيب يفرد ثنايا الورق في زواياه العلوية، قلب الورق حتى وصل إلى رقم القضية، تناول عدة ورقات مجتمعة بفضل دبوس دباسة ما زال يحتفظ بلمعانه، بحث بينها عن القضية حتى وجدها، انتزع الدبوس بلطف أخرج الورقة، استدار بجسده الضخم خارجًا من الغرفة ذات الرائحة الكريهة وصعد بها إلى الأعلى.

كانت القهوة تنتظرهما فوق المكتب، لم تفقد سخونتها بعد، تلهف ماهر أن يلقي نظرة على التقرير، فحصه الطبيب بعينين سريعتين وهو يحتسي قهوته وقال:

- افتكرتها.. دي القضية اللي حقق فيها "شادي محمد"، هو لسه معاكم في الداخلية؟

- البركة في أبوه.

- مش هيدومله كتير وعند أي مطب هيخلعوه.

استدار الطبيب وأشعل ماكينة التصوير، بعد لحظات مرر الورقة أسفل ماسح ضوئي وخرجت الصورة مطبوعة، تناولها حسام في لهفة ثم طواها ووضعها في جيبه.

- اسمعني يا بيه، محدش يعرف إني اديتك التقرير ده.

- انهي تقرير؟! سلام.

صافح الطبيب وحَيَّاه وخرج مسرعًا.

جلس خلف مقود سيارته وأخرج التقرير الطبي، تنقلت عينيه بين السطور بسرعة.. "آثار سحجات في الجسد، وجروح وكدمات حول الأنف ومنطقة الذقن والناحية الأمامية للرقبة، وأكثر الجروح تجمعت في القسم الأيمن للرقبة ويُستدل من مظاهر الأضرار أن الجاني استعمل يده اليسرى، كما أن اللسان كان بارزًا، وسبب الموت هو الخنق باليد".

خنق باليد، باليد اليسرى، تساءل: "طبعًا انت قوي البنية، الراجل مش هيفلت من إيدك".

لمعت عينيه عندما قفزت أمامه فكرة، فكرة لابُد وأنها ستكون بداية طريق مليء بالعثرات والتغيرات، سيذهب إلى الخادمة في سجنها، لابُد وأن يكون لديها شيءٌ ذو قيمة.

أدار محرك السيارة وتوجه إلى مكتبه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان هلال ابن العطار يجلس مع عمته في السوق ليعوض النقص الذي تولد لديه نتيجة عدم وجود أصدقاء له، حتى أنه لم يهتم لوجود الأصدقاء، كان يقتل وقته ويسمع ما يدور بين النساء بنهم وشغف، كان يجد لذة في الإصغاء إلى حديثهن، كانت أسرار البيوت تُنشر أمامه كالغسيل، ولكن بطَبعه كان كاتمًا جيدًا للأسرار، وبسب عمته ذات اللسان العذب كان أغلب النسوة يلقين ما يعرفن في أذنها، كأنهن ينقلن الأخبار لها حصريًا، كانت تهتم بتلك الأمور تحب ما يحدث خلف الجدران وفي الغرف المغلقة.

تقدمت منهما سيدة عجوز بلغت من العمر السابعة والستين تقريبًا مرضها زاد من عمرها، تتكئ على عصا وتترنح، قصيرة القامة، محدودبة الظهر، وجهها ضامر ظهرت فيه غضون تحكي عن حياة قاسية مريرة وتكثر حول العينين والشفتين، عيناها كبيرتان تساقطت أهدابها، كانت تغمض عينيها بطريقة بطيئة تدل على تعب وإرهاق، وثيابها رثه مهلهلة.

قالت عمته ذات الوجه الأسمر بصوتٍ يشي بالسيطرة:

- وصلت الشحاتة.. وصلت الست القديمة، وهمست في أذنه: "البومة".

كانت تسير ببطء كالسلحفاة، توقفت أمام عمة هلال وقالت:

- يا "حسنية" احسني لي، حسنة تعوزيها في قبرك، ده ضلمة وانتِ معندكيش عيل ولا تيل يدعيلك.

- غوري في داهية، انتِ زي البير اللي ملوش قرار ميشبعش، هي نهيبة ولا نهيبة؟

- طيب، خلينا نتفق، إيه رأيك أديكِ سر وتديني أي حاجة، بس بشرط، السر على قد العطية؟ انتِ بتحبي الأسرار؟ ولا إيه رأيك يا ابن العطار؟

نظرت إلى هلال بجوارها، ابتسم ومد يده وتناول كيسًا ووضع به من أنواع الخضروات التي تكدست أمامه.

مدت "نفيسة" عصاها ليضع هلال الكيس في طرفها.

- على قد العطية.. نظرت إلى ابن أخيها وزمت شفتيها وتابعت: العطية كبيرة يا غولة، هاتي السر وريني؟ شكله مفيش حاجة يا فالح؟

اقتربت إليهما وهي تلتفت يمينًا ويسارًا وهمست في توجس:

- أنا عارفه مين اللي دخل بيت فريدة!

قهقهت حسنية وقالت:

- هتشوفي في الضلمة ازاي وانتِ يا دوب تشوفي قدامك مترين؟

- والله شفته.

- طيب، قوليلي مين هو؟

- العطية قليلة، هاتي كمان.

حاولت عمته منعه ولكنه أصر، وتناول كيسًا آخر ووضع فيه الكثير من الخضروات حتى كاد أن يتمزق، ووضعه بجوار نفيسة، اقترب منها ووضع في يدها خمس جنيهات.

- قوليلي يا نفسية كل حاجة؟ تابع يقول كأن الخمس جنيهات ستشتري له ما يبحث عنه من فقد: عاوز اعرف أي حاجة وكل حاجة تخص الموضوع.

- كان راجل طويل ولابس قناع.

- هههههههههههه، لابس قناع، أنا عارفه مش هيجي من وراكي غير الفقر.

- كملي يا نفسية.

طلب منها ابن العطار بلهجةٍ متوسلة، لا يريد أن تشمت به عمته.

- كان لابس قناع، طلع من فوق السور اللي ناحية البيت المهجور، وشوفتهم وهما خارجين، كنت جنب الحيط، كانوا اتنين، واحد طويل والتاني قصير، شايلين حاجة كبيرة، حاولت أجاريهم بس همَ كانوا أسرع مني، ورجع واحد كنت أول مرة اشوفه شال السلم وجري.. وبعدين قول لأبوك يعتق الستات، ربنا يريحنا منه، تعالى وصلني.

دفعته عمته بقوة وقد انتفخت العروق في رقبتها بشكلٍ منفر وقالت:

- تستاهل اللي يجرالك، وحياة أبوك لتدفع حق الخضار.

سار بجوارها لدقائق وهو حاملًا الأكياس وسألها في خجلٍ ووجل:

- هو كل الناس عارفه كل اللي قوليته عن أبويا؟

توقفت.. فهي لا تقدر على التحدث أثناء سيرها ورفعت نظرها إليه وردت:

- متخجلش من اللي بيعلمه أبوك ولا تفتخر، لأن اللي بيعلمه مش ذنبه لوحده، ذنب بنات وستات محتاجين، وربنا ياخده، هقولك إيه ولا إيه يا ابني.. امشي أحسن بلاش فضايح، أصل الفضايح لما تطلع بتكون ريحتها ملزقة في ناس انت ممكن تكون فاكرهم نضاف بس هما للأسف وسخين قوي.

أكملا سيرهما في توانٍ وملل وصمت، سألها بعد تردد:

- انتِ شكلك شوفتِ حاجة خليتك تدعي على أبويا؟ شكله...

- يوه بقى على السيرة المهببة، اسمعني.. أنا هقولك على اللي شفته عشان تحل عن نافوخي، لإن من الوضاح إنك لحوح، كنت في يوم عنده في الدكان بشتري حلبة، وفجأة دخلت ست منقبة.. سألته عن

عين العفريت.. قالها تحت يا مدام، نزلت المدام ونزل وراها، أبوك مخدش مني الفلوس وفضلت استنى لحد ما طلع وطلعت.. ويا ريتها ما طلعت.

- هي مين؟

- مش بقولك لحوح.

توقفت لدقيقة أو أقل وهي تحدق إلى الأرض، دون استئذان تدحرجت من عينها دمعة حزينة، مسحتها بطرف طرحتها التي كانت تغطي نصف شعرها الأبيض الأشعث، وتنهدت بقوةٍ وألم وحسرة، من الواضح أنها كانت تعاني من ذكرى مريرة في تلك اللحظة، حيث أنها ظلت مكانها لفترةٍ طويلة ساكنة، لم تتحرك، تابعت تحديقها إلى الأرض، كأنها تخاطبها في صمت، حتى أن هلال لم يشعر بالأكياس التي يحملها وهو يحدق إليها في استغراب.. فكر في ترك الأكياس أرضًا والهروب، فكر في نغزها ولكنه خاف أن تسقط أرضًا وتحدث أمور هو في غنى عنها، لم تكن تسمع همساته التي ارتفعت حتى تصل إلى حد الصراخ.. التفت إليه في ضيقٍ كأنه قطع خلوتها ورمقته بنظرةٍ حادة وجافة.

طوال الطريق لم ينبس بكلمة رغم أن عقله ألح عليه في معرفة من الست التي تحدثت عنها، فكر في كيفية معرفة تلك الست التي جعلتها تبكي وتشرد بفكرها بعيدًا، تمنى لو يدخل داخل عقلها لفتش عن تلك الحادثة وعن الصور المطبوعة داخل عقلها عن تلك الليلة التي قُتلت بها فريدة.

كان بيتها قريبًا ولكنه بعيدًا عليها بسبب بطئها، بدأ في مخيلته إحصاء الأشخاص الطوال، كانوا كثر، كان من ضمنهم يحيى وصالح، توصل إلى نتيجة أن الأشخاص لا يمكن حصرهم في عقله ولابُد وأن يعود بسرعة حتى يجمع شتات أفكاره على ورقة.

وصل إلى بيت نفيسة الذي يقع في نهاية زقاقٍ محشور بين عمائر متراصة، دخل للبيت من باب من المعدن يكاد يُغلق على نفسه، وتهبط خمس درجات أسمنتية مهترئة الحواف، ما أن تضع أنفك داخل البيت حتى تلفحك تلك الرائحة التي تشبه بيوت الخرفان، كانت رائحة كريهة نتنة يمكنها إخراج ما في المعدة بسهولة، على الجدار المقابل لمدخل البيت عُلقت مجموعة من الصور التُقطت منذ زمنٍ طويل، كانت باهته وتداخل اللونين الأبيض والأسود مع بعضهما ببعض، حتى أن بعض الوجوه لم تعد ملامحها واضحة.. كان البيت متواضع خالٍ من أي أثاث تقريبًا، وما وجد من أثاث كان باليًا مهملًا، الفراش ممزق وبه حُفر وعلى الأرجح تسكنه الفئران، كان بيت حزين سكنته الكآبة والتعاسة والحرمان والأتربة منذ زمن، تمددت الشقوق في الجدران حتى أنها طالت السقف وظهرت بعض القضبان الحديدية الصدئة، في أثناء مروره إلى المطبخ الذي لم يعد به أي أوانٍ ألقى نظرة خاطفة على غرفتها، تمدد بها سرير من حديد وفوقه فَرشة قديمة بالية، تساقط منها القطن، وبجوار السرير حجر تصعد عليه إلى سطح السرير، ومنضدة عتيقة وُضع عليها مصحف وفوقه تجمعت طبقة سميكة من الأتربة ونظارة خالية من العدسات ذات ذراعٍ مكسور.. لم يجد أبواب في بيتها، باعت الأبواب جميعها لتُسكت أنين معدتها، أغلقت الحمام بقطعةٍ قماش بالية مليئة بالثقوب، ناولته الخمس جنيهات قبل أن يغادر.

نفيسة سيدة فقيرة هدتها الدنيا، هجرها أولادها وتوفى زوجها قبل خمس سنوات، ظلت وحيدة بين هذه الجدران لا يزورها أحد، حتى جيرانها لم يعد أي أحد يطل عليها، وإن ماتت لن يعلم أحد إلا إذا انبعثت رائحة جثتها، نادرًا ما كانت تتواجد داخل بيتها لسببٍ بسيط، أنها لم تكن من عشاق الوحدة، كانت تقضي يومها متنقلة من سوق إلى آخر تقضي يومها في الشحاذة ونقل ما تسمعه من أخبار هنا وهناك، كانت تعود في وقتٍ متأخر إلى بيتها، لم يعرف الخوف لقلبها سبيلًا فليس لديها ما تخسره، كانت تسير وسط الظلام، تعلم أين تضع أقدامها.

في تلك الليلة التي قُتلت فيها فريدة كانت عائدة إلى بيتها عندما رأتهم يتسلقون الجدار بواسطة سلم خشبي، تريد أن تستغل الجميع بقدر المستطاع حتى تعيش، تبحث عن الأسرار وتخبر بها حسنية حتى تنعم عليها بأي خضروات تملأ معدتها، الآن لديها الكثير من الخضروات، ستبادلهم بسكر وشاي من أي بقالة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

توجه ماهر إلي بيت حسام، فقد ترك له الأخير رسالة تفيد بضرورة أن يلقاه في بيته، في أثناء صعوده الدرج لمح سيدة جميلة تهبط السلالم متدثرة بعباءةٍ سوداء وشعرها الأشقر يتطاير خلفها، ابتسامتها العذبة كشفت عن غمازتين زادتاها جمالًا، وجنتاها متوردتين، عطرها نفاذ، إنها الراقصة، النوع المفضل لدى حسام، طرق الباب، فتح له حسام وقد كان يرتدي ملابسه الداخلية، ويكاد يغلبه النعاس، سأله:

- شاي ولا قهوة؟

- قهوة.

كان يلوم صديقه كثيرًا بسبب نزواته، أراد لحسام حياة بها فتاة واحدة وليس عددًا لا حصر له، وهي لا تواعد أحدًا بعد الرقص، كانت إلى بيتها أو إلى بيته، اعترفت له ذات مرة أنها تُفضل أن تكون في بيتٍ واحد على أن تتنقل من بيتٍ إلى آخر، لربما كانت تحبه وهو لا يدري، لقد توقف حسام عن الحب منذ زمن، لم ولن يوجع قلبه مرة أخرى، ولكن إذا تتطلب الأمر فلما لا.

أحضر القهوة كنادل محترف دون أن تنسكب خارج الفنجان أي قطرة، وضعها أمام صديقه على طاولة احتلت نصف الشرفة، جلس أمامه عاري الصدر تمامًا، لم يهتم ببرودة الجو.

- سأله ماهر: طمني؟

- مجرد تحذير مش أكتر.

- كويس أوي، وإيه هي نتيجة التشريح؟

- مات صابر مخنوق، وإنت إيه اللي حصل معاك؟

أخرج من جيب سترته الداخلي التقرير، فتحه حسام وأخذ يقرأ، كان بين الحين والآخر يرفع نظره إلى ماهر غير مصدقٍ ما يقرأ، انتهى من التقرير مصدومًا:

- مش معقول تكون صدفة؟

- مش فاهم؟

- الراجل اللي قتل صابر، استخدم إيده الشمال.

- مش بقول لك أكيد في حاجة كبيرة احنا مش عارفين إيه هي؟ لازم نعرف مين اللي دخله الزنزانة؟

- سالم طلب مني مدخلش في التحقيق الداخلي، هو اللي هيتولى مسؤولية التحقيق.

- الجريمتين بنفس الأسلوب.

قال ماهر متباهيًا، فقد أثبت وجهة نظره أمام حسام.

حدق إلى حسام للحظات قبل أن يُفاجأ بمد يده ليقبض بها على عنقه، وبعد لحظات أفلتها.

سعل حسام بشدة وسب ماهر:

قول لي قبل ما تعمل أي حاجة، وضع يده حاضنًا عنقه في لطف وتابع وهو يسعل: كنت هتموتني.

- انت عارف أنا حسيت...

- مش عاوز اعرف.

لوح بيده في الهواء قائلًا:

- غور يا ماهر، وجعتني بجد، مش كده، انت هتجرب عليا ولا إيه؟

- عارف يا حسام، أنا حسيت بقوة وسيطرة وسعادة لما شفت في عينك الضعف والاستسلام، حسيت بحبالك الصوتية وهي بتتهز، كان نفسك تصرخ بس انت مكنتش قادر، كنت ضعيف، لو اتكيت شوية كنت هتموت.

- فعلًا.

نظر إليه بطرف عينيه وحاول أن ينظم أنفاسه وتابع: أنا كنت عاوز اصرخ بس مش قادر، المهم، خلينا نروح ناكل أنا على لحم بطني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رن هاتف سبائك الحرير، أجابت مهجة:

- أهلًا وسهلًا اتفضلي؟

- أنا منى يا مهجة.

- أهلًا يا ست الكل، ازيك؟

- الحمد لله، كنت فاضية قلت أكلمك لو فاضية تعدي عليا ندردش شوية.

- أنا فاضية، بس قلقتيني.. انتِ كويسه؟

- أيوه، هاتي سوزان لو فاضية؟

- لا، سوزان مشغولة مع ست رخمة، أنا هكون عندك مسافة السكة.

- فاكره العنوان؟

- طبعًا، سلام.

تناولت حقيبتها وهمست في أذن سوزان، رمقتها السيدة الجالسة بنظراتٍ سامة قاتلة، لم تهتم لتلك النظرات وأكملت طريقها إلى الخارج.

صبغت الشمس الأجواء بأشعتها الذهبية وتسلسلات من بين الغيوم كسهام من نار، استقلت سيارة أجرة وتوجهت إلى شقة منى، كانت الشوارع مزدحمة بالسيارات وبالناسً وبالمطبات أيضًا، كأن اليوم يوم عيد، لم تكن تسعد يومًا بوجود الازدحام، كانت رائحة التاكسي تعج بالبخور والعطور والدهان، كانت رائحة قوية نفاذة، استقرت في رئتيها وأخذت تلك الرائحة تنمو وتكبر حتى أحست بثقلٍ على صدرها، لجأت إلى النافذة وفتحتها بسرعة، كان الهواء كصدمتين كهربائيتين أنعشتا رئتيها، لمحها السائق في طرف مرآته، ابتسم ابتسامة باهتة وحدقها بنظرتين شهوانيتين عندما أخذ شعرها يهفهف خلفها كاشفًا عن عنقٍ طويل منحوت من الرخام الأبيض النقي.

أشعل سيجارة متحسرًا على تلك البغلة التي تجلس في البيت الأشبه بكنبة، تردد في فتح حوار معها، شك للحظات أنه سيكون حوارًا عقيمًا ينتهي بشتمه أو إهماله لأسباب يجهلها، ولكن لو نظر في المرآة لعلم السبب.

رفض التاكسي الدخول إلى الشارع، أراد أن يتفقد جسدها اللدن وهي تسير داخل الشارع، لم تكن ترتدي ملابس مثيرة حتى يراقبها السائق، كانت ترتدي بلوزة بيضاء من الصوف فضفاضة وكذلك بنطلون من الجينز واسع، وحذاء رياضي.. أكملت سيرها في الشارع والسائق من خلفها يبلع ريقه ويلعق شفتيه في شهية فاضحة، كان الشارع عريضًا نظيفًا وعلى جانبيه رُكنت السيارات بمختلف أنواعها، ورغم أن الأشجار كانت كبيرة وعملاقة إلا أنه من الواضح أنها كانت تحظى باهتمام كبير.. نادرًا ما لمحت أحد أثناء سيرها وبعد دقائق وجدت نفسها تقف أمام عمارة منى البيضاء ذات الخطوط البنية التي تحدد كل طابق، مرت في ممر فوقه أقواس من الحديد امتدت فوقه شجرة ياسمين بأزهارها البيضاء التي فاحت منها رائحة جميلة، ما أن رآها البواب قادمة نحوه حتى نهض وحياها، حيته بدورها.. توقفت أمام المصعد للحظات في حذرٍ وارتباك، كم كانت تكره الأماكن الضيقة خاصةً المصاعد، بعد صراع بين عقلها وقدميها هل تصعد أم لا؟ قررت أن تصعد، خطت خطوتها داخل المصعد في توجس، استقلت المصعد وأخذت تدعو الله ألا يسقط بها، أُغلق الباب أمام ناظريها مصحوبًا بأزيزٍ خفيف، أحست أنها ذاهبة إلى الموت بقدميها، طوال صعود المصعد وهي مغمضة العينين، أحستً بأن المصعد بطيء ويسافر بها إلى فضاءٍ مجهول، أخيرًا توقف المصعد وخرجت منه قافزة كأنها قفزت من سيارة مشتعلة، قررت أن تهبط مستخدمة السلالم.

توقفت أمام شقة منى ضغطت الجرس وانتظرت.. فتحت لها منى واستقبلتها بوجهٍ بشوش متورد، توجهتا إلى الشرفة كالمعتاد، وصمتتا للحظاتٍ قبل أن تكسر منى حاجز الصمت وتقول:

- ليه وشك أصفر؟ مخضوضة؟

- أبدًا، صمتت لبرهة... وأوضحت: أصلي بخاف من الأسانسير.

- وأنا أول ما ركبته خفت منه، وبعدين اتعودت عليه.

- بطنك كبر يا منى، ما شاء الله، بيتحرك؟

- قليل، انتِ قوليلي أخبارك إيه وأخبار الشغل إيه؟

- الجامعة كويسه الحمد لله، والشغل ماشي كويس، بس النهارده كان في ست مقرفه، مكانش نفسي أفضل في الصالون للحظة واحدة.

- مين الست دي؟

- "ليلى نيكوتين"، طول ما هي قاعدة سيجارة في سيجارة، حتى إني حسيت إن مناخيري نسيت الشم، واللي معاها يا لطيف منها، نقاقة، وبتعلق على كل حاجة.

كانت مهجة فكاهية وتحب المرح، تنشر السعادة والسرور أينما ذهبت، كانت جذابة إلى حد أنك لا تريد أن ترفع عينيك عنها، لا تمل من حديثها الطيب وكلماتها العشوائية التي كانت تخرج منها دون استئذان.

- مالها هي التانية؟

- "مريم اللدغة"، ست مهما استحمت هتفضل معفنة، ملهاش دعوة غير إنها تفضل تقول أوامرك يا ثيتي، اتفضلي يا ثيتي، وعندها دماغ يا لطيف.. ولا الكمبيوتر، تخزن كل كلمة بتسمعها وكل حركة وكل رمشة عين حتى، بخاف منها، بحس إن عينها قوية.

- قصدك إنها بتحسد؟

- أيوه، شوفي يا منى.. أنا عمري ما كرهت بس أنا كرهت ليلى مش عارفه ليه، بحس إن في بيني وبينها تار، بحس إنها متغاظه مني، ليه مش عارفه؟

- في ناس بتغير من الناس اللي قلبهم نضيف، هي ليلى دي شكلها حلو، مش كده؟

- حلوة جدًا، ده حتى مريم بتقول لها انتِ شبه "ليلى فوزي".

- عشان كده الحلو ميحبش حد أحلى منه، ليكِ عندي مفاجأة.

غابت منى لدقائق وعادت وفي يديها صندوق حياتها، صندوق يحمل كل ذكرياتها، طفولتها، ويحمل فرحها، وشهر عسلها ونزهاتها، وعائلتها وأصدقاءها، فتحت الصندوق الخشبي الذي أهداها إياه أخوها المهاجر، كان بحجم كتابين متجاورين، مصنوع من خشب الزان ونُقش عليه وردتان

وعصفوران متقابلين، فتحت الصندوق الشاهد على حياتها الجميلة، وأخذت تتناول ألبوم تلو الألبوم، أول ألبوم تناولته كان عن فرحها، أخذت تخرج الصور تباعًا ومهجة تنظر بلهفة وتنتظر تلك اللحظة التي ترتدي فيها الفستان الأبيض، كانت أول صورة جمعتها مع والدتها ووالدها، توسطتهما، كانت ترتدي الفستان الأبيض، وعلى رأسها وُضع إكليل مطرز بالورود البيضاء، وصورة أخرى كانت تقف بجوار ماهر، كم كان وسيمًا هذا الشاب، كانت الصورة كلها حياة، ماهر يضحك واضعًا يده على بطنه ومنى مالت إلى الأمام ضاحكة، أمامهما رجل يقفز كما لو كان قردًا.

- سألتها مهجة: مين ده؟

- ده حسام صديق ماهر وزميله في الداخلية.

وتابعتا تفحص الصور بشغفٍ وحماس، كانت مهجة في أوج سعادتها، لم تغمرها مثل هذه السعادة من قبل، حتى لم تهتم للوقت وقررت أن تلتقي ماهر قبل أن تغادر ولن يتركها تعود بمفردها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هناك في الصالون ذي الإضاءة الخافتة المنبعثة من مصباحٍ معلق بجوار مرآة، جلست سوزان المتعبة من يوم شاق على أريكة جلدية سوداء وفي يدها سيجارة مشتعلة، تحاول جمع تلك الأحاسيس المضادة التي نَبتت على مدار سنوات مضت، أحاسيس نبتت بفعل شخصيتها المركبة ذات آلاف الأوجه، أوجه لم تكن تليق بها ولا بجمالها، ولكن أحيانًا يلجأ الإنسان لأوجه أخرى ليخفي عيوبه وتناقضاته، كانت تملك لكل قضية وجه خاص بها، كان لطمعها الدور الأكبر فيما ارتكبته من جُرم بحق نفسها عندما قبلت أن تتزوج عرفي، تعلم أنها كذبت على مهجة عندما أخبرتها بان الرجل هو من عرض عليها الزواج مقابل الصالون، ولكن في حقيقة الأمر هي من عرضت على الرجل الزواج في المقابل أن يودع لها مبلغًا ماليًا في أحد البنوك، هي من نصبت له الشرك وأوقعته في شباكها، كسبت الصالون ولكنها خسرت شرفها وسمعتها، ولكن لن يدوم الصالون ولن يدوم جمالها إلى الأبد، فهي الآن تسعى جاهدة لإنشاء بيت يليق بها وبمكانتها، ولابد أن تضحي بكل شيء في سبيل أن تصل إلى هدفها، فهي الآن في منتصف العشرينات، رفضت كل من تقدم إليها من رجال لن يقبلوا على أنفسهم أن يتزوجوا سيدة تزوجت عرفي، لأنه لا يعلم أحد ماذا فعلت قبل أو بعد ذاك الزواج، كانت الغيرة تشتعل في صدر سوزان، وسرعان ما استحضرت الأنانية وظهرت على سطح أفكارها: "الأولى، إن مهجة تفضل جنبي أنا، أفضفض لها عن مشاعري، هي الوحيدة اللي بقدر أجيد عليها كل الوجوه"، في اعتقادها أن اللحظة لم تحن بعد بأن يمضي الليل دون أن ترى مهجة، اعتادت عليها وشعرت أنها جزء منها، تولدت لديها مشاعر كما لو أن مهجة أختها التي لم تلدها أمها، حاصرتها مشاعرها العمياء المضطربة الأنانية، أحست أنها تفقد مهجة.. ولكنها لن تستسلم لما هي مجبرة عليه، كانت تعلم أن الوقت سيأتي وستفترق عن مهجة للأبد، لا بُد وأن مهجة ستتزوج يومًا ما وستظل هي وحيدة - كما أنا دائمًا - لن تتغير ولن يتغير وضعها ما لم تحصل على يحيى، ستظل كالريشة لن تستقر على الأرض ولن تصل للسحاب، ولكن مهجة ستنعم بحياة ستشتهيها، تعلم ماذا تريد مهجة، فهي تسير على الأرض ثابته، وسوزان ذات المشاعر المشوشة، المشوهة المفككة: "يمكن مشاعري دي كلها بسبب إني نفسي اسمع كلمة ماما"، سكن الذعر حياتها وأصبح رفيقها، رويدًا رويدًا ستخرج

مهجة من حياتها وستغدو حياتها دون أي قيمة لو لم تنفذ مخططها، لا تقبل على نفسها أن تعيش في مستنقع الوهم والتعلق بخيوط لا وجود لها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10

في هذه الأوقات كان يحيى ينتظر عودة سوزان كالعادة، ولكن في هذه الليلة ارتدى أجمل ما يملك من ثياب، قميص أبيض وسروال من الجينز الأسود وحذاء رياضي أبيض قام بشرائه من محلٍ متواضع، كان أنيقًا إلى حدٍ ما، ما زاد من إعجابه بنفسه بروز عضلات كتفيه بوضوح، كان في كامل طاقته وحيويته، أغرق ملابسه بعطرٍ رخيص، مر الوقت ثقيل وهو جالس على المقهى، لم يلاحظ وجود ابن العطار، تساءل: "انت فين يا ابن العطار؟"، لم تمضِ دقائق على انتظاره حتى طلت سوزان، كانت ترتدي عباءة سوداء واسعة، ووجها صافي خالٍ من أي مكياج، عدا الكحلة التي لم تفارق عينيها قط.

اقتربت من المدخل ورمقته بنظرةٍ جانبية مثيرة زادت من انفعاله، نهض كالأسد وسار خلفها، صعد الدرجات، كانت تسبقه بفارق خمس أو ست درجات، صعد درجتين درجتين حتى اقترب منها وأصبحت عيناه في منتصف مؤخرتها، سال لعابه لما اشتهى، أراد أن يلمسها بأنامله، سمع صوت طرقعة لبان قوية صادرة من بين شفتيها الحمراوين المثيرتين، توقفت قبل أن تطرق باب مهجة، صعد وتوقف بجوارها، نظرت إلى عينيه مباشرة، كانت بيضاء نقية، لم تُلوث بالنظر إلى غيرها، لم تبق عيناه ثابتتان على أحدٍ من قبل هكذا، سارت في جسده رعشة داخلية ظهرت على وجنتيه، حاول إخفاء توتره بابتسامة سريعة، لكنه لم ينجح، ظلت سوزان تحدق كأنها تحاول قراءة ما خلف تلك العينين اللتان تواجهان النار ولا تستطيع مواجهة جرأة وجسارة عينيها المغريتين المثيرتين، شعر بأن هناك تحدٍ قائم، ولكن خوفًا على مشاعرها طأطأ رأسه، ظلت تحدق إليه وكلها يقين أن الفتى واقع في حبها ومتيم بها، لابُد وأن تُقدم على خطوة تكسر هذا الملل الذي بينه وبينها، وأن تثبت له حبها، لذلك طلبت منه أن ينتظرها على السطح.

صعد إلى السطح سعيدًا منتشيًا فخورًا بما نال، لم يصدق أنها قالت له: "استناني على السطح"، أحس بأنه ملك الدنيا وما فيها، خُيل له بأنه يحلق عاليًا في تلك السماء الصافية المزدانة بالنجوم كأنها قناديل محلقة، حلق عاليًا فوق حصانٍ أسود بجناحين عملاقين، بل هو كان الحصان المحلق في الفضاء، وكانت تجلس خلفه تربت على رقبته في حنانٍ وحب، لم يشعر بوجودها على ظهره فقد أصبحت قطعة منه من جسده، لا بل من روحه، طاف بها متنقلًا من قنديلٍ إلى آخر، من كوكبٍ إلى كوكب، وعندما أحس بألم في رقبته يسري إلى كتفيه بسبب تركيز نظره إلى الأعلى.. على حين غرة أخذ يذرع السطح ذهابًا وإيابًا، يريد للوقت أن يمضي بسرعة، لم يعد يحتمل الانتظار، كان يجلس على الأريكة ثم يستند إلى السور ثم يكرر ذهابه وإيابه، يذهب وينظر إلى الحمام الساكن الصامت النائم، بعد برهة من الوقت.. سمع باب يُغلق بقوة إشارة منها أنها تهم بالصعود، توجه مسرعًا إلى الدرج، وجدها تصعد في رشاقة وخفة، ابتعد عن الدرج واقترب من السور، استند عليه متصنعًا عدم الاهتمام.

توقفت عند بداية السطح، تراقبه وهو مستندًا على السور، ورأسه يلتفت يمينه ويساره، عند أسفل إبطيه لمحت بحيرة من العرق آخذة في التوسع، كان عريض الظهر ونحيل الخصر وذا رجلين رفيعتين. سارت بخطواتٍ خفيفة حتى اقتربت منه، باغتته وألصقت كتفها في كتفه، فتح عينيه على آخرهما غير مصدقٍ لما يحدث، ظل للحظات شاخصًا في الفراغ الممتد أمامه، ابتعد عنها، ولكنها

سرعان ما التصقت به بخفة وحماس وهكذا حتى توقف عن الابتعاد، أحست بحرارة تنبعث من كتفه، سرعان ما أصابتها تلك الحرارة بالدفء كأنها بجوار مدفئة، نظرت إليه في نشوة كانت سعيدة لرؤيته مرتبكًا، مرت من أمامها نظرات زوجها السابق، كانت في نفس مستوى الارتباك والخوف، كانت عيناها تسطعان وتلمعان وتبتسمان، احمر وجهه خجلًا، أراد الحديث ولكن عقله لم يستجب، كانت تعشق لحظات الضعف تلك، اللحظات التي تشعر فيها بقوة جمالها وأنوثتها الطاغية وقدرتها على إدارة تلك المواقف بحرفية عالية. لم يقدر على الحركة، كان مشلولًا، للحظات تجمدت أحاسيسه، شعر بأمان بالتصاقها به، وبقوة.. لم يشعر بأي خوفٍ ولا ذعر، قديمًا كان كلما تذكرها انتابه شعورٌ بالذعر وانقباض في القلب، أما الآن تبدد ذلك الشعور وحل محله نشوة وفرح.

ظلا للحظات صامتين، أرادت سوزان أن تسمع ارتجاف صوته وأرادت أن تراه يتلعثم ويبلع ريقه في قلق، كانت تستمد طاقتها من تلك الأفعال، كانت تتغذى على نقاط ضعف الآخرين، عندما أحست بأن يحيى لا يملك الجراءة وأن انتظارها سيطول إلى أجلٍ غير مسمى قالت:

- أول مرة اشوف الحي من هنا، من فوق.

لم يكن يحدق إلى الحي ولا حتى إلى تلك السماء المرصعة بالنجوم، إنما كان يفكر في كيفية إخفاء عضوه المنتصب، يخاف أن يفتضح أمره أمامها، حاول أن يخفي أصابعه المرتعشة، ولكنها سرعان ما دست أصابعها في راحة يديه الخشنة وقبضت على أصابعه خوفًا من أن ينتزعهم، قالت في دلال:

- تؤ تؤ تؤ، ميفعش كده يا يحيى، إيديك بتتنفض، في إيه مالك؟ اجمد اومال.

كانت لحظة تاريخية بأن تمسك يده بتلك الصورة التي لم يكن يتخيلها في يومٍ من الأيام.

- يحيى؟!

- امممم.

جاءت مكتومة من أعماق صدره، التفت إليها بسرعة، وحدق..

- يحيى، انت متوتر جدًا.

- متوتر؟!

- أيوه، انت مش شايف إيدك بتترعش ازاي.

سحب يده عندما أحس بتعرقها يزداد ومسحها في بنطلونه وابتسم في تشوشٍ وقال بصوتٍ منخفض متقطع، لم يفق من الخدر الذي أصابه بعد:

- فعلًا المكان من هنا جميل... صمت للحظات وتابع: أنا بطلع هنا كل يوم، أوضتي هناك.. واستدار خلفه.

كانت غرفة متواضعة في ركن السطح، ما إن استدار حتى شرعت في فك طرحتها لتكشف عن شعرها المتموج الأسود الكثيف اللامع، جمعته من فوق كتفها الأيمن وجعلته يسقط على صدرها.

حاول جذب طرحتها قائلًا:

- لا لا، مينفعش كده يا سوزان.

- ليه؟ انت بتغير عليا من الهوا ولا من النجوم؟

- لا... يعني... لو...

- محدش هيطلع، متخافش، عجبك شعري؟

- أه، حلو.

- جسمك حلو يا يحيى...

وقبل أن تكمل جملتها كانت يدها تتحس أكتاف يحيى المستديرة القوية، حاول تهدئة نفسه بينما كانت تتحسس ذراعه، شعر بأظافر يدها تخدش جلده وعروقه التي كاد أن يخرج منها الدم فائرًا.

فجأة رفعت يدها وقالت:

- آسفة، لازم امشي، اتأخرت.

لوت رأسها فلامست أطراف شعرها وجنتيه وكشفت عن عقدٍ من اللؤلؤ تجمع حول عنقٍ طويلٍ ونحر أبيض ناصع كالثلج فقال في تلعثم:

- لا لا محصلش حاجة، طب خليني أوصلك.. تمتم: حتى وانتِ متوترة حلوة.

تركته في حيرته وهبطت الدرج.

استمتعت عندما شاهدت البلاهة والتيه في عينيه لما حدق إلى شعرها، قررت أن تنتقل إلى الخطوة التالية لا تريد الانتظار خطوة أخرى لتقرب المسافات وترفع الحواجز، أرادت أن تبدأ بداية جديدة حتى لو كانت كاذبة أو مؤقتة، البدايات لا تُعوض على ما فات لكنها تشجعها على بث أمل جديد في حياتها التي خسرتها، ستقرر بعد عدة لقاءات متى تبدأ، ستغيب عنه يومًا وإثنين، ستثيره وتهيئه لما هو أت، لابُد وأن تجعله يسير خلفها كالأعمى، تريد أن تروضه كما الخيل البري، ستثير حفيظته بالبحث عنها حتى يأتيها حبوًا، كل حركة منها كانت مدروسة ومحسوبة العواقب، من الالتصاق به إلى الكشف عن شعرها إلى تحسس أكتافه، كل ما أرادته من تلك التصرفات هو ردة الفعل، كانت ردة فعله مسالمة وهادئة، كما لو كان مخدرًا.

هبطت الدرج في ثبات وكأن شيئًا لم يحدث، واخترقت الظلام وعادت إلى بيتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان هلال يجلس على القهوة عندما نزلت مهجة من سيارة ماهر، كانت الساعة الحادية عشر والنصف، كان والدها صالح، ينتظرها على المقهى، صافح ماهر بحرارة وشكره.

حملق إلى مهجة، لم يرها بهذا القرب من قبل، كان كثيرًا ما يلمحها في طفولتها في الورشة بجوار والدها، ونادرا وهي عائدة من الجامعة، كانت تجلس على الباب الورشة ولكنه لم يكن مهتمًا بها ولم تكن ملفتة كما هي الآن، ولكن عندما كبرت نضجت وظهر جمالها وبرزت ملامحها ونادرًا ما كان يلمحها في الشارع، لكنه سمع النساء يتحدثن عنها وعن جمالها، شغلت باله لأوقاتٍ قليلة، فهي كانت دائمًا في البيت أو في العمل، لم يرَ جمالًا كجمالها، كان صوتها وهي تودع الرجل الغريب صوتًا أنثويًا بحتًا، صوتًا كاللحن الموسيقي، لمست شيئًا عميقًا في أعماق قلبه الوحيد المنعزل عن العالم، أحس بأن صوتها أعاد قلبه للحياة من جديد، لم يشعر بهذا الإحساس من قبل، إحساس غريب تمنى لو كان هو يحيى حتى يتقرب منها.

تساءل: "مين الراجل ده؟ معقول يكون قريبها؟".

لم يفكر هلال في الجريمة من قبل، ولكنها أثارت فضوله، أراد أن يتحدى نفسه، يريد أن يثبت للجميع أنه قادر على فعل شيء، ولكن هل يستطيع أن يحل هذا اللغز؟ تناول الورقة التي وضعها أمامه ودَوَن عليها أسماء أطول الرجال في الحي، كان صالح ويحيى على رأس القائمة، قسم الورقة إلى أربع خانات، كتب في الخانة الأولى مدى قوة العلاقة، في الخانة الثانية التردد على البيت، الخانة الثالثة الأماكن التي كانت تتردد عليها فريدة، الخانة الرابعة وضع فيها مقدار شكوكه، تساءل: "طيب مش ممكن تكون نفيسة كدابة؟"، لازم أزورها مره تانية، يمكن أقدر أخد منها أي معلومة.

نهض في تثاقل وتوجه إلى بيته في استئناس، فتح باب بيت والده، كان مظلمًا وساكنًا كسكون المقابر، توجه إلى غرفته واستلقى بجسده المرهق على السرير الملاصق للنافذة، لمح نجمًا ساطعًا، لا يريد أن يحرم مقلتيه من التحديق في النجم المتوهج العابر وهو مغلوب بالنوم، ولكن عينيه لم تقاوما، فغلبه النوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وصل ماهر إلى بيته وأخذ يحدث زوجته عن المفاجأة التي حدثت اليوم، ابتداءً بتقرير الطب الشرعي الخاص بصابر وانتهاءً بتقرير رجل الأعمال.

كانت تذرع خطواتها في الصالون ذهابًا وإيابًا في صمت، وماهر في الشرفة يراقبها في سكونٍ وهدوء يحاول فتح عينيه التي غلبهما النعاس، لم يقاطعها، كان يترك لها المجال للتفكير والتركيز، على الرغم من الذكاء الذي يتمتع به ماهر إلا أنه كان يصل إلى طريق مسدود في بعض القضايا، كان يستعين بمن يثق بهم، قالت بعد صمتٍ دام لدقائق:

- كل القضايا اللي معاك، هي قضايا من المؤكد إنها من ارتكاب نفس الأشخاص، ولكن انتحار كابوس وصابر يدل على... صمتت مجددًا، وأخذت تفكر مليًا في انتحار كابوس، توقفت أمام ماهر وسألته: ماهر.. هو ممكن يكون كابوس انتحر؟

- أنا نفسي مش مصدق إنه... تثاءب وتابع: إنه انتحر.

- حلو قوي، انت بتفكر صح.. تحسست جنينها الذي ركلها وابتسمت للحظات ومن ثم أضافت: اللي زي كابوس أكيد ليهم سلطة على اللي بيشتغلوا معاه، غير كده أكيد بياخد فلوس كتير، وبيقابل ناس

كبيرة من رجال الأعمال ويمكن ناس من الداخلية، أنا بقول يمكن يا ماهر، أصل الظباط مش انبيا برضو، المهم وأكيد عندك عربية وبيت فاخر، معقول بعد كل المزايا دي تنتحر؟

أسند ظهره إلى المقعد وفتح عينيه في صعوبة ونظر إلى منى وقال:

- لا مش هنتحر، طبعًا لا.

- اسمع يا ماهر، لو قدرت توصل للبواب اللي شهد في جريمة قتل رجل الأعمال يبقى انت...

- فكرة حلوة يا منى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في صباح اليوم التالي كان محمد يجلس أمام ماهر، عابسًا وأسفل عينيه بحيرة من السواد، حدثه ماهر باقتضاب عن بعض الأمور دون التعمق في تفاصيلها، لم يعلق محمد، اكتفى بهز رأسه من حين إلى آخر، لم يكن مهتمًا بالموضوع حتى أنه كان يسمع نصف ما يقوله ماهر، كان جُل اهتمامه والدته التي كانت ترقد في العناية المكثفة بسبب جلطة مفاجئة في الدماغ، حكى لماهر عن والدته، وخرج مهمومًا حزينًا.

حضر إسماعيل مبكرًا، على غير العادة، جلس يحتسى قهوته في أوج نشاطه، وفي أبهى طلة:

- باشا، لقيت أي رابط بين جرايم الاغتصاب والقتل؟ ولا شغلنا على الفاضي؟

- عاوزك تجيب البواب ده.. وناوله ورقة مكتوب بها: "عطية طلعت عطية" وعنوانه.

- ده أكيد شاهد؟

- أه فعلًا شاهد، يلا بسرعة يا إسماعيل.

- أصبح على المدير وأروح أجيبه من قفاه ابن... سلام يا باشا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انطلق إسماعيل في رحلة تحري عن البواب، حتى وصل إلى مكان عمله، قطع مسافة كبيرة حتى يصل إلى مكان إقامته، ختمها بسيره على الأقدام لفترة زمنية تعدت نصف الساعة وهو يسأل عن عنوانه، كان البواب يسكن في منطقة نائية من ضاحية المدينة، لم يجد إسماعيل بها أي عمائر تشير إلى عمله، في بادئ الأمر ظن أنه أخطأ العنوان، ولكن عندما سأل عنه أحدهم أخبره أنه يعمل في إحدى الأراضي الزراعية ولم يشاهده أحد منذ يومين، حتى عائلته غادرت برفقته، وأخبره آخر أنه يختفي كثيرًا ولكنه سرعان ما يعود، كان إسماعيل متلهفًا على إلقاء القبض على البواب الذي بمقدوره أن يُغيِّر سير مجريات القضية وأن يرفع من رصيده أمام المدير وأمام ماهر، وليثبت لهم أنه شخص يمكن الاعتماد عليه.. لذلك ظل في المكان حتى مغيب الشمس، ولكن البواب عطية لم يظهر، فقفل عائدًا.

بعد يومين وُجِدَ البواب عطية مقتولًا ومُلقى في أحد مقالب النفايات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في ساعات المساء تقابل ماهر وحسام، وصل حسام إلى خيبة أمل لا توصف، مقتل البواب وَلَد لديه إحباطًا شديدًا، على عكس ماهر الذي وَلَد لديه انطباعًا بالتفاؤل، وعزمًا على بذل المزيد من البحث والتحري.

- يعني كده احنا وصلنا لطريق مسدود؟

- لا يا حسام، كلامك مش صحيح.

- ازاي والبواب اتقتل، والمحامي مسافر برة البلد؟

- صحيح، بس ده أكيد إن احنا ماشين صح ولازم نستمر، وبعدين أول مرة اشوفك قلقان؟

- مش عارف؟ عاوز أعوض عن قتل صابر يا ماهر، احنا كان في إيدينا صيد ثمين واحنا مش واخدين بالنا.

أشعل ماهر سيجارة وقال:

- ولا يهمك، مش ده المهم، اصبر عليا شوية، مج نفسًا عميقًا وتابع قائلًا: المهم إن ازاي وصلوا للبواب؟ محدش يعرف غير محمد وإسماعيل ويمكن إسماعيل قال للمدير، مين ممكن يكون سرب الخبر؟ يعني مين ممكن يكون عرف القاتل إننا بندور على البواب؟

- معقول يكون في حد ليه صلة بالموضوع؟ المدير مش ممكن، محمد برضو لا، وإسماعيل ظابط جديد، لسه ميعرفش حد.

- يعني أنا اللي قلت وفضحت الدنيا، حاجة قرف!

صمت للحظات وتناول كأس الماء وارتشف منه القليل وبعد لحظات سأل: معقول يكون في حد كبير متورط يا حسام؟

- زي مين؟

- رجل أعمال، ظابط كبير، وزير؟

- ممكن، ليه لا، كل حاجة جايزة يا ماهر، خصوصًا بعد قضية الفساد الكبيرة اللي كنت بحقق فيها واتقفلت بالضبة والمفتاح.

- في راس كبيرة بتسوق في كل المجرمين دول، بس مين هي مش عارف، آخ لو امسك خيط واحد، خيط واحد بس.. عض على يديه في قوةٍ وغيظ وتابع: لو اعرف مين اللي بلغ عن البواب؟ لو اعرف مين اللي بلغ عن صابر؟ هيخلص امتى مديرك من التحقيق؟ ده خد وقت كتير؟

قاد ماهر سيارته وهو مشوش الفكر خائر القوى، انتابه إحساس ممزوج بالخوف والسعادة، الخوف من أن تنحرف يد القاتل وتمس من هم مقربين منه، وفرح أنه يسير على طريق صحيح مليء بالألغام

والطلقات النارية العشوائية التي يمكنها أن تصيبه في مقتل، أغلق النافذة أحس بأن خده أوشك على التجمد من الرياح الباردة، مر من فوق كوبري النيل في بطء بعدما سار بمحاذة الرصيف، أخذ يسترق النظرات إلى الوجوه السعيدة المبتسمة.. إلى الناس البسطاء.. إلى الفتيات الجميلات وشعورهن التي ترفرف خلف ظهورهن كذيل حصان منطلق في البرية.

تلمكه الغيظ والضيق لأولئك الفتيات اللواتي لم يحالفن الحظ ولم ينجين من يد المغتصبين وانتهت حياة بعضهن منتحرات وأخريات شوهتهن نظرات مجتمع عقيمٍ لا يرحم، وأخريات قضين حياتهن بين جدران المصحة النفسية قابضات على أقدامهن بكل قوة خوفًا من أن يدخلها الهواء حتى، قضى دقائق في كدر وضيق وفي قلق وخوف.

ما أن دخل بيته وجد منى متكئة على الأريكة وعاكفة على قراءة أحد الكتب القانونية، كانت ستائر البيت تتراقص بفعل هبات الهواء الباردة، أغلق باب الشرفة في قوة وقال في استفزاز:

- البواب مات يا منى.. وتوقف أمامها يحدق.. إليها أراد أن يخرج ما في صدره من ضيقٍ ويشكيها ما أصابه من خيبةٍ ويبوح لها بما يراوده من مخاوف، وبدلًا من ذلك قال مواسيًا نفسه: بس أكيد هنلاقي حل يا منى.

اعتدلت منى وأغلقت الكتاب واضعة قلمًا بين تلك الصفحات، وحدقت إليه محاولة أن تكشف عما تخفيه نبرة صوته المنفعلة المضطربة وسألته:

- البواب مات؟ صح اللي أنا سمعته؟

- أيوه صحيح، يعني هزار.

- طيب يا ماهر وانت زعلان ليه، تعالى هنا جنبي.. وأشارت بيدها على الأريكة، كالطفل اقترب وجلس بجوارها في استسلام ومسحت على ظهره بكف يدها وقالت في لطف: انت خايف من إيه يا حبيبي؟ هتقبض عليهم كلهم متقلقش، انت قربت من عش الدبابير يا ماهر، انت ماشي صح.. صمتت للحظات وهي تحدق من جانب وجهه الجذاب وسألته في همس: بس انت خايف.. خائف علينا، خايف على نفسك من الفشل.

حدق إليها في اندهاش..

- متستغربش، انت خايف ليإذوك، بس خليني اقولك حاجة.. طول ما انت خايف عمرك ما هتنجح، حط مكان خوفك شجاعة، هتتصرف صح، هتفكر صح، متخفش علينا خالص، طول ما انت شغال صح هما اللي هيخافوا منك، عشان كده خليك قوي، هما ابتدوا يعملو لك حساب متخلهمش ينتصروا عليك يا ماهر.

صمت وأخذ ينظر إليها ويتأمل جمالها الفتان ووجنتيها المتوردتين ورائحتها الطيبة، اكتشف أن وجهها ازداد جمالًا فوق جمالها بسبب حملها، طبع قبلة على خدها الدافئ وطوق خصرها بيديه الدافئتين المتعرقتين، نهضت من جواره لا تريد أن تنزلق إلى الفراش، تعلم إلى ما ترمي إليه تلك النظرات واللمسات.

- اسمعني كويس، اللي قتل البواب هو اللي قتل فريدة بس مش هو اللي قتل رجل الأعمال ولا صابر.

- امممم، قالها في ملل ونعاس.

- يعني اللي قتل فريدة هو اللي قتل البواب، نفس الطعنات العشوائية، يعني اللي عاوزه أقوله يا ماهر... انت بتشخر، على طول كده! يا بختك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد أسبوعين من اللوعة والعذاب والاشتياق المدفون أوشك قلب يحيى أن ينفطر وأن ينفجر، قررت سوزان أن تنفذ خطوتها وخطتها هذه الليلة، ستضع نهاية لكل هذه التصرفات، الفترة الماضية كانت بالنسبة ليحيى ما هي إلا مجرد كابوس طويل جلب له الولعة والاندفاع طواعية، امتنعت عنه حتى ظن أنه لن يراها مرة أخرى، كثير من المرات اعتذرت عن لقائه، منعته من التردد على سبائك الحرير، كانت تقابله بجفاء كأنها مجبرة، وأحيانًا كثيرة تقابله بانفعال وعصبية، وقليل ما كانت تقابله بمودة ولطف، ولكن في كل مرة كانت تقابله فيها بمودة كانت تترك عليه أثرًا، مرة تتحس وجهه ومرة تتحس شعره، ومرة تطلب منه أن يقبل يدها ويشتم شعرها ويقبل جبينها، كانت تعلم أنها أمام شاب مراهق، تقوده عواطفه، حتى تلك الليلة التي طلبت منه الحضور إلى بيتها.

في بادئ الأمر سيطر عليه حنقٌ عظيم وتردد كبير، حتى أنه من فرط الحماسة سمع صوتًا في عقله يقول: "ارجع يا مجنون.. سيبك منها.. مش هتدخلك بيتها.. ده فخ.. مش خايف تفضحك؟"

ولكنه لم يستطع المقاومة أو حتى منع حدوث الأمر حتى لو سينتهي بفضيحة، كانت تقوده شهوته الحيوانية، كادت أن تنقطع أنفاسه من شدة الحماسة والاشتياق.

انطلق يحيى معلنًا النفير، أعلن النفير في اليوم الذي قابلها فيه، النفير على قيمه ومبادئه، أعلن النفير كأنه يلبي نداء الواجب، استجمع قواه العقلية والجسدية وأخذ يسير وظهره للمقهى مخترقًا سكون الليل تحت قطرات المطر الواهنة الرقيقة، كانت سترته الجلدية السوداء التي تقشرت أطرافها تمنع تسلل المطر ولكنها لم تمنع الشك والخوف من التسلل إلى قلبه، كان مضطربًا رغم شعوره بالقوة الجسدية، كان يتسلل كالضبع، بعد عدة أمتار انعطف يمينًا في شارع ترابي لا يبلغ طوله الثلاثة مئة متر، شق طريقه تحت جنح الظلام، لم يكن هناك شيء واضح المعالَم، يسير على ضوء تسلل من شرفة وآخر من مصباح إنارة معلق، شعر كأن الطريق طويلة ومليئة بالأعين التي تراقبه، بين الفينة والأخرى كان يتوقف قليلًا ومن ثم يعاود الانطلاق نحو هدفه، انعطف يسارًا ليصل الشارع المنشود، توقف مثل رجل يعرف المنطقة، كانت المنطقة حالكة مثل كهف فسمع من خلفه وقع خطوات.. جزع قلبه وتوارى بجوار جدار، كَمَنَ هناك حتى ابتعد عنه هذا العابر ثم أخذ يتقدم خطوة خطوة رافعًا نظره إلى الضوء الذي تسلل من نافذة سوزان، توقف أمام المدخل.. تساءل: "وبعدين؟ ولا هتستنى هنا لحد ما تشوفك بومة وتبلغ عنك؟"، صعد الدرج في تلكؤ، حاول إخفاء انفعالاته الداخلية حتى لا تظهر على جسده، توقف أمام الباب، عدل ثيابه ونفض الماء عن سترته ومسح على شعره، عاد الصوت من جديد في رأسه، طرده كمن يطرد شحات.. تنهد بقوة وطرق بلطف، كانت تنتظر خلف الباب، فتحت الباب وجذبته إلى الداخل بسرعةٍ وبقوة.

اجتمع الاثنان واستولى عليهما شرود الفكر.. شرود الخلوة الحلوة، شرود يأتي مفاجئ منتظرًا أن يقدم أي من الطرفين حركة تخفف من حدة السكون والقلق، رمقها بنظراتٍ حائرة خائفة، تقدمت تجاهه في خطوات كلها ثقة وعلى ثغرها ارتسمت ابتسامة جذابة كشفت عن أسنان بيضاء تلمع، كانت ابتسامتها تعبر عما يدور في عقلها وتقول: "أخيرًا، انت في شقتي!"، أرادت أن تقفز في حضنه وهو أراد أن يكشف عما هو أسفل هذا الروب الأبيض، خلعت سترته في وجل، دون مقاومة منه تركها تفعل ما يحلو لها، وسحبته من يده إلى الغرفة، خلعت ثيابه قطعة قطعة، سيطرت عليه حالة من التناقض والفوضى والصراع الداخلي والاضطراب العصبي، كان تائهًا.. لا بل يسير على الطريق التي رسمها لنفسه، كان ضعيفًا.. لا بل قويًا كما هو دائمًا، قصيرًا.. لا بل طويلًا كما هو، تساءل: " أنا مين؟ أنا فين؟ انتِ مين؟ بنعمل إيه؟" لما ناولته كأس نبيذ خال نفسه في حلم، كان الكأس ممتلئ، تناوله منها كالأعمى، رفعت يده المرتعشة إلى فمه، كانت تمارس فعلها بحرفية عالية كالساحرة، لم تترك يده حتى تجرع الكأس كله رغم مرارته، أشعلت سيجارة ووضعتها في فمه، شهق أنفاسًا متسارعة، أخذت تراقبه كالحشرة التي تسقط في شباك العنكبوت، سقط على طرف السرير.. مثارًا منتشيًا، ناولته كأس نبيذ آخر، تجرعه بسرعة، كان لاذعًا، "يا لطيف الطف".. قال في سره.

تقدمت نحوه، تأملت سكونه وخضوعه واستسلامه، تعلم أن أسفل هذا الهدوء يقبع وحش كاسر، وحش نجحت في ترويضه، توقفت أمامه وشرعت في فك عقدة الروب الأبيض، وفكت العقدة وسقطت ذراعها على جانب جسدها، فتحت الروب، ظهر من أسفله قميص أسود من الحرير قصير، سقطت عينه على قدمها البيضاء الرقيقة الناعمة، اهتاج وماجت به الغرفة، ارتفعت حرارته، تعرق بغزارة، حاول مسح العرق السابح على وجهه بأنامل مرتجفة، بحركة دائرية خليعة مائعة حركت كتفيها ليسقط الروب عن جسدها الممشوق، حملق في جسدها بكل حواسه، وقف شعر رأسه، لم يرَ مثل هذا المشهد من قبل، كادت أن تشع نورًا، لمعت في عينيه كحبة البلور، نهض يترنح، تقدم نحوها بلهفة، في ظاهرها ساكنة وهادئة وداخلها نار مشتعلة تنتظر من يطفئها، كان جسمها متعرق، توقف أمامها للحظات يتأمل وجهها عن قرب، يتأمل عينيها الكحيلتين الواسعتين، وشفتيها الأشبه بفوهة بركان، وشعرها المرسل الذي غطى كتفيها، كانت كالعروسة.. بل هي عروس الليلة، عروس السماء، مدت يدها لتتحسس وجهه، اقترب منها واحتضنها، أحست بقضيبه المنتصب في خصرها، خلع ما تبقى من ملابسه الداخلية، لم يقف أمام أحد هكذا.. عاريًا، منتصبًا، متعرقًا، قويًا، خلع قميصها الأسود، كشف عن المستور، كشف عن ثديين متكورين ناهضين يلمعان، عن جسدٍ مرسوم بريشة فنان، لم يُخيل له أن يكون جسدها بهذا النقاء والصفاء واللمعان، سحبها من يدها إلى السرير، سقط فوقها بقوة، تركته يفعل بها ما يشاء، سرعان ما شعر بدوار يأخذه إلى عالم آخر، عالم لا يقظة فيه، انتشر الخدر في جسده، لم يكن هذا الجبان الخجول القلق المتوتر صاحب الاضطراب الدائم، تحول إلى شخصٍ آخر، إلى حصان هائج.. في تلك الليلة كان له هدف واحد هو أن يفتح عالمًا جديدًا، عالمًا مليئًا بالمفاجآت، عالمًا اشتهاه الكثيرون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

واصل هلال بحثه وتحريه، وتوطدت علاقته بنفيسة، كان كلما قابلها في السوق حياها وناولها كيسًا ممتلئًا بحاجتها من الخضروات.

تركها أبناؤها وحيدة بين جدران متداعية، أحست أن الله أرسله لها لتعويضها عن أولادها، ولكنه جاء في آخر عمرها، علم من خلال عمته أن نفيسة سيدة حويطة، ما كانت تثق في أحد وعالمة بأهل الحي. كان هذا دافعًا أن يتردد عليها طوال تلك المدة، أراد أن يكسب ثقتها، وأراد أن يشاركها وحدتها بوحدته، كان يحكي لها عن مهجة وعن جمالها وأخبرها ذات يوم: "أنه ذات مساء مر بالقرب منها وهي تسير بجوار والدها صالح، وبحلق فيها عن قرب، رأى وجهها القمري المستدير، ووجنتيها المصنوعتين من الورود، وجبينها المنحوت من الرخام، وثغرها تنبثق منه ابتسامة كالنور، في نظره لم يكن هناك أشد سحرًا من ابتسامتها، نظرت إليه في لا مبالاة، كأنها رأت أمامها قرد"!

شعر بوجود هالة حولها من الغموض والأسرار، استفز من نظرتها اللامبالية له، ظل يحدق إليها حتى غابت عن نظره، وذات صباح يوم ما وفي أثناء توجهه إلى عمته، لمحها من بعيد تقترب من ورشة والدها فتوجه إليها مسرعًا، وكلمًا اقتربت المسافة قصرت خطاه وزاد ارتباكًا، تمالك نفسه وقرر جاهدًا المرور من جوار الورشة لعله يلفت نظرها، وصل إلى الورشة وخفق قلبه بشدة، وسمع صوتها الموسيقي الرنان، كانت تتحدث في هدوءٍ وثقة، وأحس بهيبتها وحضورها الطاغي، تقدم بضع خطوات وتوقف، كانت هذه المرة أكثر شحوبًا وترددًا، مال برأسه إلى الداخل، لمح طيف وجهها، كانت رائعة الجمال وخلابة، عاد يقف بجوار عمته في السوق، لم يهتم في ذاك اليوم إلى حديث النسوة، ولم تفارق مهجة مخيلته.

- سألها: هي ممكن تبص لواحد زي؟

- وليه لا؟

- بس أنا مش زيها جميل؟

- انت ناقصك الثقة في نفسك، شوف أبوك.. الستات عليه زي الدبان، كته القرف، معتقش حد من شره حتى...

- حتى مين يا سيتي؟ بتعيطي ليه؟

عاد إليها بكأس ماء، شربت منه القليل..

- قولي يمكن ترتاحي، فضفضي أنا زي ابنك.

اسندت يديها على عكازها وأخذت تحدق إلى الأرض وقالت:

- حتى... استغفر الله العظيم... مسبهاش في حالها... بنتي، متستغربش!

صمتت للحظات لتجمع شتات فكرها وتمسح بطرف طرحتها دمعها وتابعت: كان عندها 17 سنة، كانت حلوة وفايرة، ضحك عليها أبوك وكان بيغريها بفلوسه، شفتها في اليوم اللي اشتريت فيه حلبة، مصدقتش عيني، ومن يومها وأنا مبنامش كويس، مقلتش لابوها، بس بعد فترة صارت سيرتنا على كل لسان، ومن بعدها ابوها مقدمش يا يعني، مطولش واخواتها سابوا الحارة من العار وهي هربت، معرفش سكتها فين.

- الله يلعن اللي كان السبب، متزعليش نفسك يا سيتي، ربنا هيعوضك خير بإذن الله.

- العوض من ربنا يا ابني، الحمد لله.

قالتها بصوتٍ مبحوح مخنوق كأن أحدهم قبض على عنقها.

صمت لدقائق يفكر في تصرفات والده المشينة، طأطأ رأسه في كسوف وتركها لتهدأ ولتستعيد عافيتها، وطلب منها أن تشرب ما تبقى من كأس الماء، وسألها:

- سيتي، عندك تصور للراجل اللي شوفتيه؟

صمتت هنيهة وحدقتاها تتراقصان داخل عينيها:

- لا يا ابني، معنديش.

اندفع من فوق الكرسي قائلًا:

- والله العظيم إنك تعرفيه؟ قوليلي يا سيتي، شاركيني حملك، يمكن أخفف عنك؟

- المشاركة مش مشكلة يا هلال، المشكلة إنك مش مستعد تشيل الحمل، المعرفة أحيانا بتضر مش بتنفع، نصيحة.. متطلبش من حد إنه يشاركك سر طول ما هو مش عاوز يشاركك.

- انتِ مش خايفة أبلغ البوليس؟

- أنا مقولتش حاجة عشان تبلغ البوليس، خد الباب في إيدك.

لا تنكر نفيسة أنها تعلقت بهلال، لأنه أضفى على حياتها قيمة، فقد كان يعاملها كما لو كانت جدته، لمست حنانه وكرمه، شاركها وحدتها وأخرجها من بؤسها وتعاستها، صرفته من بيتها مكرهة مجبرة، لا تعلم متى سيعود ولكنه حتمًا سيعود، سيقوده فضوله إلى بيتها مرة أخرى.. تعلم ذلك، ولكنها كعادتها ستماطل وتراوغ، لن تريح قلبه، لن يستطيع تحمل الحقيقة ولن يقدر، تخشى عليه من ردة فعله أن تُوقِعه في شر أعماله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجزء الثاني

11

في الثالث من شهر ديسمبر نطق حكم الإعدام على "سيد علي سيد" في جريمة قتل الست "فريدة عبد العظيم"، وبالسجن المؤبد مع الأشغال الشاقة على زوجته "سيدة محمد عثمان".

يوم تنفيذ الحكم..

في أحد السجون ذات الحراسة المشددة كان يقبع الخادم ويرتدي بدلته ذات اللون البرتقالي البارد، نُحل جسده داخل تلك البذلة وخفق قلبه رعبًا من يوم قادم لا محال، كان يخاف من ظله الذي لم يعد يراه، يكره الظلام الذي لا يوجد سواه في زنزانته حتى أن بشرته زادت سوادًا فوق سوادها بسبب الظلام، ويهاب الوحدة ويمقت النوم وحيدًا، إن نام فهو ينام من شدة أرقه وإجهاد عينيه، وكلما نام رأى كوابيس مزعجة كفيلة أن توقظه من نومه، يرى نفسه منقادًا إلى حبل المشنقة وقد تدلى بعدها جسده النحيف.

لم يشعر بالخوف كما شعر في ذاك الصباح، آخر صباح له في الدنيا، لن يرى النور مرة أخرى، لن يستنشق هواء الزنزانة المشبع بالرطوبة، لن تدمع عينيه ولن يحس ببرودة المكان.. نظر إلى يديه وتأمل عروقه البارزة أسفل جلده، تحسس يده حتى كتفه، تحسس وجهه وعظامه البارزة، لاحظ بروزها على غير عادتها بسبب قلة طعامه ولحظات الغثيان التي كانت تصيبه، تحسس أنفه المدبب الذي نبتت على طرفه شعرة طويلة لم ينزعها، فجسده لم يعد يحتمل الألم، وشفتيه الغليظتين المتشققتين، ورقبته الرفيعة الطويلة التي كستها التجاعيد بسبب خسارة وزنه، هبطت يده على قلبه لمس دقات قلبه المتسارعة، بعد قليل سيتوقف قلبه عن الخفقان ولمست أضلع صدره البارزة.. نظر إلى الجدران واقترب منها بخوفٍ فكم من المرات شاهدها تنقض عليه في منامه وتعتصر عظامه، كم مرة شاهدها تحبس روحه بين شقوقها، تحسسها واشتم رائحتها الرطبة، أسند ظهره إلى الجدار، وأخذ يهبط رويدًا رويدًا وشفتاه ترتجفان ودموعه تتدحرج على وجنتيه، وصل إلى أرض الزنزانة الجافة القاسية الباردة، تحسسها بيده كالأعمى، شعر ببروده تجتاح جسده النحيل الضعيف المتهالك، أصيب بقشعريرة لم يشعر بها من قبل، جعلته ينتفض.

كان يرجوهم في سره بأنٍ ينظروا في أمره مرة أخرى وأن يعيدوا التحقيق، وتمنى لو حضر طير واختطفه وحلق به، يعلم انه بعد لحظات لن يفتح عينيه وسوف يضيع عالمه ويموت إلى الأبد ولن يذكره أحد.

فتح السجان الباب، وتسلل ضوء رسم حدود الباب وفتح عينيه على آخرهما وحاول أن يبلع ريقه، ولكنه لم يجد ما يبلعه كان فمه جافًا كظهر سلحفاة تسير وسط الصحراء، مد السجان الأصفاد، تملكه الاضطراب وتسارعت أنفاسه كعداء يبذل مجهودًا ليصل خط النهاية، مد يده المرتعشة وقيد يديه، لم يشعر بقدمه وهي تقوده إلى الحجرة المخصصة للإعدام، سقط ثم نهض وعاود السقوط مرة أخرى ساعده السجان على النهوض مرارًا... حتى وصلا إلى غرفة الإعدام، توقف أمامها للحظات، لم يسمع الصوت الذي تلا عليه الجريمة والحكم، ردد خلف الشيخ ما استطاع ترديده، ساعده الحارس على التقدم، تقدم بضع خطوات وتوقف أسفل حبل تدلى من عارضة حديدة، رفع رأسه الذي ووريَّ

داخل كيسٍ من القماش، لم يعد يرى شيئًا ولم يشعر بقلبه، لم يعد يشعر بالخوف لم يشعر بأي ألم، تبددت الظلمة وحل محلها بياض لا حدود له.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت "ليلى" تجلس في الكازينو مع "سعد الدين" دكتور التجميل الذي نشأ وسط عائلة ميسورة الحال، حالف أخاه الحظ في بلاد الخليج وأصبح مهندسًا ذا صيت فتكفل بتعليمه على نفقته الخاصة، سعد أصغر إخوته وبناءً على رغبته أرسله لدراسة الطب التجميلي في لبنان، كان يملك وسامة مثل وسامة "عمر الشريف" في شبابه ولكنه أقصر منه ببضعة سنتيمترات، كان طموحًا ولكن قلة المال حجمته ولم يحقق ما كان يصبو إليه، لذلك كان يبحث عن شريك له في العيادة التي يريد أن يفتتحها، فحدث أن التقى ليلى قبل ثلاث سنوات في حفلة من حفلات رجال الأعمال، اصطحبه أحد أصدقائه معه إلى الحفل، التقاها وأعجبت به أشد إعجاب، بادرها نفس الإعجاب ولكن إعجابه كان مزيفًا، لمجرد إتمام مصلحته والوصول إلى مبتغاه، عرض عليها الفكرة وسرعان ما رحبت بها وتحمست كثيرًا، عرضت عليه شقة في عمارة ورثتها عن زوجها المتوفى في أحد الأحياء الراقية، كانت العيادة باسمها، وهو لا يملك حق التصرف في أي شيء دون الرجوع إليها، حتى إنها وظفت سكرتيرة لتنقل لها كل ما يحدث، ولا يحق له أن يفسخ العقد إلا بموافقة الطرفين، وتشاركه نصف الأرباح، لم يكن مهتمًا بتلك الأمور الشكلية بقدر اهتمامه بفتح عيادة يفتخر بها، بعد ستة أشهر تزوج بها مقابل أن تتنازل له عن العيادة، ولكن شرط أن تبقى العصمة في يدها، كانت تحرره من قيد ليسقط في قيدٍ أشد منه إحكامًا.

لم يستطع يومًا مواجهتها ولم يجرؤ على كسر كلمتها أو حتى النظر إلى عينيها، لم يتصرف أمامها بهيبته، عندها كانت تنكسر كل القوى وبحضورها كان يتحول الجميع إلى أطفال، طوال تلك السنوات قبل على نفسه أن يعيش ذليلًا خاضعًا، لم يستطع التعبير عن قهره وقلة حيلته إلا بالدعاء عليها، وكثيرًا ما كان يشرب حتى الثمالة ليهرب من واقعه المرير الأليم، اعتاد على حياته حتى أصبح واحدًا من خُدامها، لم يكن خادمًا بمعنى الكلمة ولكنه كان يسمع ويطيع دون أن يناقش، كانت تطلب منه أن ينفذ عمليات دون مقابل لبعض سيدات رجال الأعمال، كانت تمنعه من السفر لحضور المؤتمرات، حتى إنها منعته من الظهور على التلفاز ومنعت عنه المقابلات الصحفية، وصل بها الحال أن توبخه أمام الخدم، كان جميع من حولها خانعون خاضعون ومستسلمون لها استسلام تام.

كان "فاروق" شريك ليلى في الملهى الليلي ولكنه كان شريك شكلي وكذلك "حسين"، لم يكن حسين رجل مقاولات، كانا يعملان تحت إمرة ليلى، ينفذان ما تطلبه منهما دون نقاش، بعد انتهائهما من المهمة الموكلة إليهما كانت دائما المكافأة مالية حاضرة ومغرية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في منتصف ليلة رأس السنة..

خرج الطبيب سعد من سيارته الأودي الفضية ثملًا منتعشًا بسب ليلة قضاها برفقة صديقة كانت تتردد عليه في العيادة، كلفته تلك السهرة خمسمائة جنيهٍ مقابل صمت السائق، كان بين الفينة والأخرى

يكرر فعلته حتى يخرج من تحت وطأة ليلى ويهرب من سيطرتها، رغم جمالها الذي حافظت عليه إلا إنه كان يضاجعها بتقزز إلى حد الاشمئزاز، لم يلمس بها رشاقة من هن في مثل عمره، كن يتراقصن أمامه دون كلل أو ملل، كن مشدودات القوام يحتفظن بجمالهن، طاقتهن لم تنضب بعد.

في تلك الليلة وقبل دخوله مملكة زوجته توقف أسفل المطر فاتحًا ذراعيه للسماء، منتعشًا بقطرات الماء المتساقطة على جسده، ورغم غزارتها إلا أنه كان سعيدًا ولم يشعر ببرودة الجو انتابه إحساس بالحرية، شعر بخفة في جسده كاد أن يعانق السماء من فرط سعادته، طرق الباب كمن يطرق على آلة موسيقية، كانت تصرفاته خارجة عن إرادته، كانت تصرفات شاب مراهق، دخل القصر وتوقف أسفل النجفة العملاقة التي تحتل ردهة القصر وفرد ذراعيه ورفع رأسه وأخذ يصرخ ليخرج من صدره تلك الطاقات المكبوتة، طاقة حاصرته وطوقته كالطوق، على صوته خرج الخدم مذهولين ومصدومين مما يشاهدون.

خلع سترته ولوح بها في الهواء لتقذف قطرات الماء على الأثاث وعلى التحف وعلى الجدران وألقاها بعيدًا لتستقر فوق ظهر الأريكة، قذف حذائه من قدمه لتسقط فردة حذاء فوق الدرج والأخرى لا يعلم أين سقطت، لوح بوشاحه المبلول في الهواء لتتناثر قطرات الماء هنا وهناك، ألقى بجسده فوق الأريكة وغط في نومه.. من خلفه أخذ الخدم يجمعون ما ألقى به، ويمسحون قطرات الماء المتناثرة هنا وهناك.

بعد ليلة سعيدة قضتها ليلى في الكازينو عادت إلى بيتها مبسوطة، رغم أن وجهها الذي ساح مكياجه وأصابته البقع وكان مثل لوحة رسم ملطخة بضرباتٍ عشوائية من يد سكير مرتعشة لا يجيد مسك الريشة، ووشاحها الفرو الذي لفته حول عنقها لم يعد يفيد في شيء، ألقته أرضًا وخلعت حذاءها ذا الكعب العالي الذي أوجع ظهرها، استقبلها كبير الخدم كما يحدث دائمًا بانحناءة طويلة ذليلة كاد أن يلمس الأرض ومقدمة حذائها بيده، أرهقت ظهره على مدار السنين، تناول منها معطفها في خنوع وجمع أغراضها وتوجهت إلى السلم في تَرَنُح، توقفت لتركز طاقتها في رجليها لتقوداها إلى الأعلى، تمنى كبير الخدم أن تسقط على رأسها وهو يراقبها من الخلف في غيظٍ شديد، ولكنها على العكس شرعت تصعد وتشد جسدها رقيق البنية وخائر القوى بيدها التي كانت تتشبث بالدرابزين، كانت أصابع يديها تحمل خواتم مرصعة بالألماس وبأغلى الأحجار الكريمة، وحول عنقها النحيل الطويل الذي أخذت تتشكل التجاعيد عليه في حلقاتٍ دائرية أسفله، عُلق عقد من الذهب الأبيض الرفيع يحمل في نهايته قطعة ذهب منقوشة يتوسطها قيراط من الزفير، توقفت أعلى السلم ونظرت حولها في فخرٍ واعتزاز، تسللت إلى قدميها برودة أصابتها بقشعريرة قوية، التفت يسارها وما أن لمحت زوجها الشاب نائمًا حتى انقلب حالها وانسحبت الدماء من وجهها المتورد.. وضربت على الدرابزين بيدٍ من حديد.. وفتحت حنكها ودوت منه شهقة أقرب إلى صرخة مكتومة انفجرت داخل صدرها.. اضمحل صفاء عينيها وحل محله شرايين دقيقة وردية اللون تبتلع بياض عينيها.

أكملت طريقها صعودا إلى غرفتها بدلت ثيابها الأنيقة وخلعت تلك الجواهر التي أثقلت أصابعها وأصابتهم باحمرار مؤقت، غمغمت: "كل الخواتم دي لزوم البهرجة"، توقفت أمام المرآة لتزيل تلك البقع التي اصطبغ بها وجهها وارتدت بيجامة قطنية سميكة ثم أزاحت الغطاء واستلقت، وسرعان ما نجحت في إغماض عينيها والغط في النوم، في حوالي الساعة الثالثة صباحًا رن تليفون البيت، أقبل

كبير الخدم وهو الوحيد المخول بالرد على التليفون، كان رجلًا عجوزًا خمري البشرة وجهه كله تجاعيد حتى روحه أصابتها التجاعيد، وعيناه دائمتا الحمرة وقصير القامة، وبارز عظام اليد.

استيقظ الطبيب على صوت الهاتف المزعج الذي يبعد عنه بضع خطوات، مد يده في تكاسلٍ لعله يرفع السماعة لينهي الرنين ولكن الهاتف كان بعيدًا لم يستطيع النهوض ولم يعد لنومه، سمع خطوات كبير الخدم مهرولًا ويلهث شبشبه يحتك بالأرض مُصدرًا صوتًا مستفزًا، فلم يعد سنه يسمح له بالركض أو السهر لأنصاف الليالي، رفع السماعة وبصوتٍ يكاد يلتقطه الطبيب.

أجاب كبير الخدم:

- موجودة يا فندم... نايمة، مين حضرتك؟ حالًا يا فندم.

ترك السماعة بجوار التليفون وصعد الدرجات مسرعًا، والطبيب يراقب بعينين غالبهما النعاس، بعد دقائق لمح الطبيب ليلى تهبط الدرجات بسرعة متدثرة بروبٍ أبيض وفي يدها كيس أسود على الأغلب يحتوي على المال، ظلت تنتظر وتحوم كدوامة في مكانها، ضغطت بأسنانها على شفتها السفلى في غضبٍ مكتوم واصطبغ وجهها بلونٍ غامق ينم عن قهر وشعور باليأس وضغينة مدفونة، زرعت التوتر في نفس الطبيب، أراد أن يعلم ما يحدث.. على مدار الثلاث سنوات لم يصادف أمرًا كهذا؟ سمعت طرقات على الباب الزجاجي الضخم، فتح كبير الخدم الباب، دخل رجل طويل القامة جاف الملامح، رفع الطبيب رأسه قليلًا وفتح عينيه غير مصدق ما تراه عيناه.. تساءل: "مين المصارع ده؟" كان يرتدي السواد وبشرته بيضاء.

رفعت نظرها إليه وألقت الكيس الأسود بين يديه، تناوله وأخفاه داخل سترته دون أن ينظر إلى محتواه، اقتربت منه وقالت في حسم للموقف:

- اختفي.. مش عاوزه أشوفك تاني.

انحنى وقال:

- تحت أمرك يا هانم، بس الوعود أهم من المعدود.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في مساء اليوم الثاني، اشتدت البرودة وزادت الغيوم من لبدتها في السماء ولونها ازداد قتامة، وفي سبائك الحرير، كانت مهجة تهم بالانصراف، وكانت ليلى ومريم موجودتان، غمزتها سوزان لتبقى ولكنها أهملت غمزتها ونظراتها الحادة، جلست ليلى فوق الأريكة الفردية ووضعت قدم فوق الأخرى وأحست بان المكان وصاحبة المكان ملكها، وسألتها:

- على فين يا مهجة؟

نظرت إليها من فوق كتفها بازدراء وردت عليها:

- وانتِ مالك يا ليلى.

- ليلى هانم.. تناولت حقيبتها وأخرجت منها علبة سجائرها ودفعت بسيجارة من نوع مارلبورو لايت إلى فمها وسألتها: ليه بتمشي كل ما أكون هنا؟

- أنا حرة يا... توقفت عن الكلام في تردد بسبب غمزة سوزان لها التي تنهدت وقالت بعنجهية: يا ليلى هانمممم.

- معلش، أول مرة بتكون الكلمة تقيلة بس بعدين تتعودي عليها، مجت نفسًا عميقًا وزفرته من أنفها في عصبية واضحة وتابعت: انتِ بتكرهيني ولا بتغيري مني يا مهجة؟ ولا عشان أنا غنية وانتِ فقيرة؟ قوليلي إذا كنتِ محتاجة فلوس، ولا يمكن بتغيري من سوزان عشان عندها صالون فخم، أنا عاوزه اعمل معاكِ معروف، استني... خليني أكمل كلامي يا مهجة.. زادت قدمها العلوية من حركتها في انفعالٍ مفضوح وقالت: أنا ممكن أشغلك في أكبر شركة انتِ عوزاها، بس اللي زيك خسارة فيه، ولا إيه رأيك يا مريم؟

- أكيد طبعًا يا هانم.

استدارت إليها وقالت في هدوءٍ مطلق:

- شوفي يا ليلى، لا انتِ ولا كل الناس اللي زيك يملوا عيني، أنا لو محتاجة حاجة هطلبها من ابويا مش من واحدة زيك كانت فقيرة وربنا يعلم عملتِ إيه عشان تعيشي في بزخ انتِ مش قده.

وخرجت مهجة وتركتها تعوي، فنهضت ليلى مُستَفَزة وسألت مريم:

- مين بنت الكلب دي؟

- دي تبقى... يا رب... بنت...

- بنت مين؟ انطقي؟

- بنت صالح.

- مين صالح؟ مش معقول! صالح الحداد ابن مأمون.

وأخذت تُحدث نفسها وسيجارتها في يدها منطفئة وتابعت في ذهولٍ شديد: صالح جوز حياة، دي بنتهم! مش ممكن! ازاي؟! مش قالوا إنها ماتت، معقول يا سوزان دي تكون بنت صالح ابن الكلب.

حدقت إليها سوزان في حيرة من أمرها، لا تعلم سبب هذيان ليلى.

خرجت كالمجنونة ومريم وراءها.

تمنت سوزان ألا تعود ليلى هنا مرة أخرى، بالرغم إنها وجدت ذريعة تستطيع من خلالها إبعاد مهجة عن الصالون، نمت الغيرة في صدرها بسرعة وتوغلت في قلبها حتى أنها كانت ترى مهجة في بعض الأحيان كما لو كانت ورم في نصف ظهرها يكبر ويمتد ليعيق حركتها وانتصاب قامتها، اكتسبت مهجة حب الفتيات والعاملات والزبائن، الجميع أصبح يسأل عنها ويطلب مجالستها والحديث إليها.

كان الجميع في نظر ليلى خدم، لا تضاهيها امرأة في استغلال قوة شخصيتها ومالها لإخضاع الجميع لها، كانت تجيد السيطرة على الأشخاص، إذا تطلب الأمر تظهر ضعفها وتضرعها ولكن في داخلها تخفي قوة وصلابة وجموح أقوى من الحديد، كانت تعرف كيف تجعل الناس ينقادون خلفها دون عناء، كان الجميع في حضرتها مرتبكًا وأحمق، أمام ذكائها كان الجميع يتوقف عقله عن التفكير ما تفصح عن خططها وأفكارها، كانت تجعل أعتى حقير ووقح يخضع لها بكل سهولة وتجعل منه عبرة للجميع، أما مهجة فكانت شيئًا آخر، لم تكن مهجة تخضع لقوانين ليلى، كانت استثناء، كانت أقوى منها وأجمل منها، لم تستخدم مهجة سلطتها للاستحواذ على عقول من حولها، كان كل من يقترب منها يستسلم لها دون أن تفكر حتى في الأمر بسبب احترامها ودماثة أخلاقها.

استقلت ليلى سيارتها في غيظٍ شديد وحنق عظيم، وغادرت مسرعة إلى الكازينو.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في تلك الليلة كانت نفيسة عائدة من إحدى الحارات البعيدة، توقفت عندما سمعت صوتًا قادمًا من خلف ذاك السور الذي يسد الشارع.

كان يحيى قد اعتاد الذهاب إلى سوزان، أصبح طريقها معهود وسهل السير، مرة بعد الأخرى زادت جرأته وتعلقه بها، لم يعد يخشى شيئًا ولا حتى أن يصادفه أحدهم، فقد وجد طريقًا مختصرة، من خلف ذاك الجدار الذي يسد الشارع الفرعي ويطل على أرض مهجورة، كان يقفز من فوقه ويتسلل إلى بيتها دون أن يلاحظه أحد، تبددت كل مخاوفه وتجرأ على مضاجعتها كما لو كانت زوجته، كل مرة كان يكتشف بها جمالًا، كانت تزداد جمالًا فوق جمالها بعد كل مضاجعة، كانت تتورد وجنتيها وتنتفخ شفتيها، لم تكل منه ولم تمل، لم تنفذ طاقته، كان دائمًا حاضرًا منتصبًا قويًا يصيبها بدوارٍ شديد وقوي، أعجبت به ولكنها لم تحبه، روضته كما الحصان، وفي أثناء ثمالته أخبرته بما حدثً معها، وبكت.. أشفق عليها وأخبرها بأنه سيعوضها عما حدث وأنه سيتزوجها، لذلك طلبت منه أن ينظف بيت والده وأن يجدد طلاءه وعفشه وأبلغته ألا يهتم للمال، هي ستتكفل بكل شيء.

وفي الورشة كان يشغل وقته بها، كان يتخيلها في جميع الأوضاع، كان يراها مستلقية، مستسلمة، عارية، بلا تحفظات، اشتهاها في كل أوقاته، كان يراها في وجه كل سيدة ينظر إليها، عشقها حتى ذاب على جسدها كقطعة من الزبدة.

على حين غرة يجد عقله منقادًا مفكرًا بعمق فيما حدث، كان يواجه كل شيء على حقيقته، مهما كان ظاهرًا وموجعًا ومؤلمًا، كان يخوض عراك بين الحقيقة الخالصة والحقيقة المزيفة، سرعان ما كان يشعر بطمأنينة ونشوة صافية، وبعد دقائق ينتابه شعور بالانزعاج والضيق، كان يبعد عن كل ما يعكر مزاجه ويمكن أن يثبط عزيمته، وسرعان ما كان يقرر أن يكرر الكرة ويفرغ زجاجات الخمر، يبحث عما يروق مزاجه، فراش دافئ وزجاجة خمر وسوزان مستلقية وعارية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عادت مهجة مع ذلك الرجل، اعتادت على العودة في وقت متأخر، كانت قد اعتادت على وجود ماهر ومنى في حياتها واعتادا عليها، واعتاد ماهر على أن يقلها إلى بيتها كلما تأخر الوقت، لم يتذمر أو

يعترض.. كان هلال يجلس على المقهى كعادته، يراقب حركة الناس الذين اعتزلهم، لم يختر منهم أي صديق، لم يوجه لهم التحية، لم يطلب من أحدهم مساعدة، حتى إنه اعتزل أهله وجد فيهم الكذب والنفاق والخديعة، كانت أول صدماته من والده، جافى والده، ولم يعد يختلط به، كان مثله الأعلى في الحياة. والدته طلبت الطلاق بسبب نزوات والده الغير منتهية، ظل وحيدًا بين تلك الجدران بعد انصراف أختيه مع والدته، كان والده يرسل لهن كل شهر مبلغًا لسد حاجياتهن، السيدة التي أحضرها والده لتحل محل والدته كانت تعامله بقساوة وقلة احترام، وكانت دائمًا تصرخ عليه، أرادت أن تخرجه من البيت، أرادت أن تشعر بسيطرتها على البيت، أرادت أن يكون البيت لها وحدها، لم ينجب منها والده، اعتزل هلال وعكف على مطالعة الكتب ومراقبة الناس في صمت.

حضرت مهجة في تلك الليلة بصحبة هذا الرجل الغريب الذي لم يتعرف عليه هلال، أراد أن يعرف من هو، ولكنه يخشى من ردة فعلها إذا توجه وسأل الرجل الغريب، لم يكن جريئًا في الحديث إلى مهجة، ولن يجرؤ في الحديث إليها سيظل يتبعها بنظره بين الحين والآخر، يراقبها ويتخيل حديثه إليها كما لو كانت جالسة بجواره، لن يحقق أمله وسيظل وحيدًا في عالمه، لن يجرؤ على دخول عالمها، كل ما تمناه أن تكون قريبة منه، قريبة جدًا، أراد النظر إلى وجهها بديع الجمال، إلى عينيها الساحرتين، تأملها تتمايل بين ذراعيه، تأملها منتشية، خُيل له إنها سكرى تتراقص على أنغام ناي وتتعرى أمامه، يركض خلفها بشغف، خُيل له إنها تشد على يديه ويسيران متجاوران على رمال شاطئ البحر، خُيل له أنها تركب إحدى مراكب النيل، خيل له الكثير والكثير ولكن بسبب جبنه لن تتحقق خيالاته ستظل في عقله تحاصره وتقتل وقته.

حدث نفسه قائلًا: "المسكين يحيى، فاكر نفسه محدش يعرف حكايته مع سوزان، والغلبانة التانية، متعرفش إن البومة نقلت الخبر لكل الحي، بس مش عارف شافته ازاي وهو بينط من فوق السور؟ كل حنك في الحي بيتكلم عليهم، بس الموضوع مخدش صدى كبير، أصلها حارة منتنة، بس الموضوع الجديد اللي غطى على يحيى وسوزان الست اللي بتزور البومة نفيسة، محدش عارف مين هي؟ بتفضل بالساعات في بيت نفيسة حتي إني سمعت إن نفيسة عندها خدامة، معقول يا ولاد تكون الست دي قريبتها من بعيد وافتكرتها، ولا يمكن تكون بنتها اللي هربت ورجعت لها عشان تعوضها عن اللي فات؟ لازم اعرف".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في أحد الأيام التي سبقت رأس السنة، كان هلال في السوق بجوار عمته، كعادته وهو يصغي إلى حديث النساء، فجأة وجد نفيسة تقف أمامه مسلطة عينيها عليه في انتباهٍ شديد، أشارت له بأن يتبعها.. دفعته عمته وتمتمت: "أخرتك زي ابوك، بس انت بادي مع الكبار، كتك القرف". أخذ يسير بجوارها دون أن ينبس بكلمة واحدة.

ما أن دخل البيت حتى لفحت أنفاسه رائحة عطنة، سألها:

- إيه الريحة دي يا سيتي، ريحة سجاير؟ التفت حوله في دهشة لعله يلمح مصدر الرائحة، وضعت يديها على وركه لتمنعه من النهوض وتابع: مين اللي بيدخن؟

- الست الغنية، صاحبتي الله يجازيها الخير، طلعت فكراني، تعالى عندي يا هلال، واحشني موت، طمني عنك وعن مهجة؟

- الحمد لله... تنهد بصعوبة وأكمل: بشوفها من بعيد، كده كفاية عليا يا سيتي.

- الله يخيبك يا واد، اتشجع واتعلم من ابوك، شوف هي بتحب إيه وبتكره إيه، ابعتلها هدية مع أي حد.

- زي مين يعني؟ ابعت هدية مع مين؟

- سوزان مثلًا، مش صاحبتها وليلة ليلة عندها؟

أومأ برأسه مثنيًا على كلامها، فتابعت:

- طيب خلاص، تاهت ولقيناها، فكر في هدية وسلمها لسوزان.

- هحاول، اسمها إيه الست اللي كانت عندك؟

- انت لسه هتحاول، ابقى قابلني لو عمرها بصتلكن وانت عاوز تعرف اسم الست ليه؟ عشان تكسب ود عمتك وتفضل جنبها في السوق، خايف لتطردك من جنبها، يا خسارة عليك يا هلال... صمتت، عبثت في ملابسها المرقعة لبعض الوقت، كانت تسمع شهيق وزفير هلال المرتفع ولمحت صفيحة وجهه المتجهمة وقالت بنبرةٍ ودودة مصطنعة: قول لي صحيح، مين الراجل اللي وصل مهجة امبارح؟

- وانتِ إيش عرفك؟

انفعل وأصابته رعشة قوية في صوته وتابع: انتِ بتراقبيها يا نفيسة؟

- أنا بومة الحي، نسيت ولا إيه؟ وهراقبها ليه يا هلال؟ أنا عاوزه اطمن عليها، بلاش حد يسرقها منك؟ صمتت قبل أن تنهي سؤالها لهنيهة... تركته يهدأ من فورانه، ولما أحست أنه ارتاح تابعت برقة: أه مين هو؟

- معرفش مين هو الراجل.. أنا لازم امشي ضروري عندي زيارة لواحد صاحبي.

تركها وذهب لا يريد أن يستمع لها، تحجج بالذهاب ولم يكن هناك أي زيارة، ولم يكن مطمئنًا في بيتها، شعر بأن هناك أعين تراقبه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12

قبل حلول العام الجديد بساعة ونصف تقريبًا، كانت مهجة تنتظر أمام سبائك الحرير مرور أي سيارة أجرة، كان الجو غائمًا قاتمًا ورماديًا ونسمات الهواء الباردة تداعب شعرها بلطف، أمام الصالون كانت السيارات ساكنة تنتظر سيداتها، سيارة مرسيدس سوداء كان سائقها الخمسيني ذا العينين الباردتين الجاحظتين يحدق إلى مهجة بشهوةٍ وقحة، ولتتفادى نظراته التي اخترقت ضلوعها وأشعرتها بالخزي لتلك النظرات، أخذت تسير في الشارع لتبحث عن سيارة تقلها إلى بيتها، كانت تسير بخطى وئيدة وتجر قدمها جرًا فقد أصابها التورم جراء الوقوف عليها طيلة النهار، كانت تئن بين الحين والآخر، دست يديها في جيب سترتها الجلدي الأسود اتقاء البرد ورفعت وشاحها الصوفي الأسود إلى منتصف وجهها لتقي وجنتيها من البرد، حدقت إلى المصابيح التي انبعث شعاعها ضعيفًا من بين الضباب الكثيف، كم كانت تحب السير في ظل هذه الأجواء التي تبعث في النفس الغموض، كانت تحب السير في شوارع خالية من المارة، تبعث في نفسها الراحة والسلام والسكون، كانت تفرغ ما في عقلها من حمولة زائدة أثناء سيرها وتصفي عقلها وتجدد نشاط رئتيها التي سكنتها العطور والروائح الكيميائية ذات الروائح النفاذة، ولكن ليس هذا وقت مماثل للسير، كم أرادت أن تتمدد على سريرها وتتدثر بلحافٍ يقيها البرد الذي أخذ يتسلل إليها رويدًا رويدًا، كانت تلتفت كلما سمعت صوت سيارة تمر من جوارها مسرعة ولكن عبثًا لم تسعفها أي سيارة لتقلها، كانت تلتفت خلفها كلما سمعت وقع نقرات الأحذية ذات الكعب المرتفع، كان بعض الزبائن من السيدات يعبرن بمهجة مسرعات بعدما يلقين التحية، مساء الخير يا مهجة، سنة سعيدة يا حلوة، وترد بمثلها، وبعضهن يكتفي بابتسامة وإيماءة رأس، كن يبحثن عن سيارة أجرة تقلهن إلى مكان سهراتهن، مر بجوارها رتل من السيارات التي أطلقت الزمور بشكلٍ مزعج، كانت سيارات على أحدث موديل، بعد لحظات من مرور السيارات وصلت مهجة إلى شارعٍ فرعي يختصر الطريق ويبعدها عن المزعجين، كان الصمت يطبق على الشارع، لم تكن تسمع سوى حفيف أوراق الشجر وأنفاسها التي كانت تخترق السكون وسط الضباب الذي تشكل كستارة سميكة تحجب الرؤية، كانت تسير أسفل المصابيح ذات الإضاءة الباهتة، أخرجت من جيبها قطعة علكة وألقتها أسفل أسنانها وأخذت تلوكها لتتلذذ بمذاق النعناع.

بعد دقائق من سيرها المرهق توقفت بجوارها سيارة بيضاء اللون من نوع بيجو، يجلس خلف المقود سائق أسمر لم تتبين ملامحه، خرج منها رجلٌ مقنع خطا نحوها ثلاث خطوات وتوقف أمامها، كانت عيناه تطل من خلف القناع كعيني صائد الجوائز، كانت السعادة تفور من عينيه، كان عقلها يحثها على الفرار وقلبها يضخ الدم بغزارة ويدها خرجت من جيب سترتها ولكن أقدامها ما زالت تئن كموتور سيارة معطل، مد يديه ليطوق رأسها، كان رأسها بين يديه كما لو كان بيضة، وضع المنديل حول أنفها، أحس بأنفاسها المتسارعة التي اخترقت المنديل وعينيها الخضراوين اللتين أصيبتا بالتحجر من هول ما تشاهده.. بعد لحظات حُشرت بين اثنين فاقدة للوعي.

على يمينها كان يجلس رجل مقنع وعلى يسارها كان يجلس "إبراهيم"، اعترض على ارتداء القناع، لم يكن إبراهيم يستمع لتعليمات أي شخص كان يفعل ما يحلو له، كانت تصرفاته غير متوقعه وكثير الثرثرة، يملك وجهًا قبيحًا وجسدًا نحيفًا وطويل القامة، وإذا حدق بعينيه الحمراوين وعبس وجهه يزداد بشاعة وشرورًا، دائمًا كانت تفوح منه رائحة الخمر، وفي جيبه كيس بودرة لزوم المزاج، لم

يفكر في شيء كما كان يفكر في قضيبه، قضيبه هو رأس ماله ونهاية متعته، لم يعترض على هيجانه المفرط أي شخص من الأشخاص الأربعة الجالسين في السيارة، هو رابعهم، ثلاثتهم مقنعين عدا إبراهيم، كان منتشيًا وسعيدًا، ويتحسس شعر مهجة بيده القذرة ذات الأظافر السوداء الطويلة المتسخة، ويشم وشاحها الأسود ذا الروائح الجذابة التي زادت من سطوة نشوته.

عدل السائق المرآة ورمقه بنظرةٍ حاقدة، لطالما كن له العداوة، ولكن إبراهيم لم يهتم له ولا لعداوته، قال السائق في نفسه: "النهارده هتكون نهايتك، مش هتكون سبب في فضيحتنا، مش هنسمع كلامك المقرف ولا صوتك اللي ريحته معفنة، كفاية استحملناك كتير واستحملنا هبلك، كفاية الأسرار اللي طلعتها، شم شعرها ومردغ مناخيرك في شالها براحتك، انبسط على قد ما تقدر، محدش هيحوشني عنك، وغير كده نزل قرار فيك، لازم نبعتك لجهنم...".

قاطع حبل أفكاره الرجل الذي يجلس بجواره وقال:

- نزلني هنا.

توقفت السيارة وغادرها العملاق.

- سأله إبراهيم: مش هتكمل معانا يا عم كابوس؟ مش هتشهد علينا زي كل مرة؟

ما أن استدار كابوس حتى رفع إصبعه الأوسط وقال في سخرية:

- ديك أمك على اللي شغلوك معاهم.

خلع القناع عن رأسه كابوس وابتسم ابتسامة باردة لا معنى لها، وعدل قامته وانطلق يشق طريقة وسط الظلام.

طوال الطريق لم يتحدث الرجل الجالس بجوار إبراهيم ولم يعترض على تصرفاته، ولكنه استُفز عندما نطق إبراهيم اسم كابوس وضربه على رأسه بقوةٍ ليفيق.. تراجع إبراهيم وحدق إليه في استفزاز وغضب وقال:

- بتضربني ليه يا أبو صباع مقطوع، يا ابن... روح شوف فين صباعك محشور وتعال ادیني أوامر، اوعى تعيدها تاني، انت فاهم ولا لا بديك أمك؟

- قلنا بلاش أسماء يا ابن...

قال هامسًا حاسمًا ومحذرًا إبراهيم.

قال إبراهيم ضاحكًا كاشفًا عن أسنان سوداء ملتهبة:

- بس انت ليه هادي؟ مش عوايدك يعني؟ شكلك مختش الجرعة بتعتك؟

- لا ختها متقلقش عليه، بس أنا مصدع وحاسس إني هرجع بسبب ريحة حنكك المقرفة.

توقفت السيارة وسط شارع فرعي حديث الإنشاء مليء بالحصى، توقفت بعيدًا عن كشاف الإنارة القوي الذي كان يكشف المكان، كان المكان خالٍ من كل شيء عدا من حركة الرياح ونباح الكلاب، على جانب الطريق عمائر حديثة البناء، خاوية، خرج السائق من السيارة وتبعه إبراهيم وصاحب الإبهام المقطوع، تفرقوا ليتفقدوا المكان، ذهب صاحب الإبهام المقطوع ليفرغ مثانته بجوار حائط وتبعه السائق، بينما هم مشغولين كان تيار الهواء يخترق أجواء السيارة الدافئ ويلفح مهجة على جبينها وعلى رقبتها التي حُل من حولها الوشاح وأصابها ببرودة تسربت إلى أسفل جذعها وأصابتها بقشعريرة قوية نفضتها، فتحت عينيها بصعوبة، تجمع أمام عينيها ضباب كثيف، تولد في رأسها طنين من أثر المخدر، حاولت جاهدة النهوض ولكن أثر المخدر ما زال في جسدها يشل حركتها، كانت يدها مرتجفة هزيلة، وعينها بالكاد ترى من خلال الضباب الذي تجمع أمام عينيها، لوهلة لم تكتشف أين هي، أغمضت عينيها عدة مرات متتالية وبعد لحظات أخذ الضباب ينقشع من أمام عينها رويدًا رويدًا، التفتت يسارًا لمحت أحدهم مقنع وقصير القامة يتقدم نحو السيارة مترنحًا وفي يده سيجارة، جالت ببصرها على يمينها كانت هناك مجموعة تلال من الحصى والرمل تبعد عنها بضع أمتار، رفعت قدميها ببطء وما زال الهواء البارد يتغلغل في جسدها، أخذت ترفع جسدها الخائر رقيق البنية من فوق المقعد الخلفي، أحست بخدر في جسدها، سحبت جسدها بصعوبة كالمشلولة حتى أصبحت بجوار الباب، تناولت وشاحها في يدها، أخرجت قدميها، ووضعتهما أرضًا، تحسست الحصى بقدمها العارية، لمحت بطرف عينيها حذاءها أسفل المقعد، خُيل لها أنه بعيد.

وصل صاحب الإبهام المقطوع إلى السيارة وصرخ بعلو صوته وقال:

- راحت فين بنت الكلب؟

استدار في مكانه كثور هائج وسط الجماهير يبحث عنها في الظلام ويضرب على وركيه في قوة وينشق مخاطه الذي سأل لبرودة الجو ويتمتم: رحتي فين يا بنت الحداد؟

- هي مين؟

قال إبراهيم منفعلًا وهو يمسح أنفه بيده ليزيل ما تبقى من آثار البودرة.

تقدم السائق تجاه السيارة وهو يغلق سحاب بنطلونه وقال وهو يعض على شفته السفلى بغيظٍ شديد وكاد أن يتسبب في جرح شفته، بعد خطوة انحنى وتناول من الأرض حجرًا مدببًا أشبه برأس حربة:

- خلاص خلونا نمشي ونقول إننا اغتصبناها، ونستغل غياب كابوس.

- ازاي يعني؟ انت عبيط يا ابني؟ ازاي نقول اننا اغتصبناها واحنا مدقناش طعمها.. لعق شفتيه وأضاف: اسكت وخليك في حالك وبلاش كلام انت...

قاطعه صاحب الإبهام المقطوع وقال:

- يلا يا إبراهيم.. رمق السائق بنظرة متحمسة وأردف قائلًا: خلينا نكسب الوقت ونلاقيها.

كانت جالسة القرفصاء تراقبهم من بعيد وهم يبحثون عنها وعن أثرها خلف التلال، أرادت النهوض والركض ولكنها ترددت حتى لا يُفضح أمرها، كان الهواء البارد يضرب جسدها من كل اتجاه،

اخترقت البرودة جسدها كالسهم، نهضت في تردد لا تعلم أين تذهب، أي اتجاه تسلك... خلفها صحراء وأمامها أبنية حديثة الإنشاء، دب الفزع في قلبها: "بابا فينك؟ ماهر فينك؟ يا رب ارحمني"، كان عقلها مشوشًا.. لا بل متجمدًا لم تقدر على التفكير: "اصَوَت؟ بس مين هيسمعني؟"، جل تفكيرها هو الهروب من هنا، أخذت تسير فوق الحصى، كان الحصى يخترق قدميها، أحست بنغز قوي آذاها وأصابها بوجعٍ شديد، كانت تسير على مهل حتى لا يزيد الوجع وحتى لا تصدر صوتًا، رفعت الوشاح الأسودً إلى منتصف وجهها وطوقت جسدها البارد بذراعيها، سدت أذنيها ما أن تردد صدى عواء ذئاب في المكان، لم تشعر بدفء دموعها على وجنتيها التي تجمدتا من البرد، همت بخطاها، بعد لحظات سمعت نباح كلاب كان قريبًا منها، زادت خطواتها في الاتساع وزاد النغز في قدمها وزاد وجعها، توقفت للحظات وجدت نفسها محاطة بظلمةٍ فوق ظلمة لم تستطع رؤية إصبعها، ولم تعد تشعر بألم في قدميها ولا حتى بدفء الوشاح حول عنقها، كل ما أحست به في تلك اللحظة هو هلع شديد أفقدها إحساسها بكل شيء.

أغلق السائق ضوء السيارة، وحل ظلام دامس، زاد خوفها والتف حول عنقها، وسيطر اضطرابها على كل حواسها، امتقع وجهها، جزع قلبها، وضاق صدرها، نامت على الأرض فوق الحصى المدببة لعل الأرض تبعث في نفسها الأمان والطمأنينة، لم تسيطر على أنفاسها فكتمتها بيديها المرتجفتين، سكنت الأجواء وصمتت الكلاب وتوقفت حركة السحاب وهمدت الرياح، أجالت بنظرها هنا وهناك عندما سمعت وقع أقدام تضغط على الحصى مصدرة صوتًا أصابها بالجنون، فجأة سحبها أحدهم من قدمها، أصدرت صرخة مدوية هججت الذئاب والكلاب.

كانت تتلوى بكل قوتها، أرادت أن تفلت من قبضته المحكمة، لم يُنهك ولم يفقد قواه ذاك النحيل إبراهيم، في غاية نشاطه ونشوته، أمسكها من قدمها الأخرى صاحب الإبهام المقطوع، سحباها فوق الحصى، كانت تصرخ بكل طاقتها وتبكي ليس من نغزات الحصى ولا من ألم قدميها الداميتين ولكنها كانت تصرخ.. فقد علمت ما ستؤول إليه الأمور، تناثر شعرها واختلط بالتراب وبأدران الطريق، كانت أصابع يدها تبحث عن أي شيء لتتشبث به، كل ما وجدته كان حصى.

كانت تنظر إليهم في رعب، اهتاجت ودفعتهما بقدميها، قاومت ودافعت ورشقتهم بالحصى وبصقت، وأفرغت ما يحويه قاموسها من شتائم، دون سابق إنذار أغار عليها إبراهيم بكلتا يديه وضربها بقوة على رأسها، نهض مستغربًا ما حدث، لم يصدق أنه أفقدها وعيها من ضربة واحدة.

انتهيا من اغتصابها، رجعا منتشيان مستمتعان، أعينهما متألقة مشعة، كمن حقق هدفه بعد طول انتظار.

جلس ذو الإبهام المقطوع في السيارة وتقدم إبراهيم تجاه السائق في غرور وقال:

- أنا وفيت بوعدي، متعرفش قد إيه انبسطت بمؤخرتها اللي هي أنضف من وشك.

- هي فين يا ابن الكلب؟ خرجت كلماته من بين أسنانه وتابع: هي فين؟ ها.

أشار بيده إلى مكانٍ ما وسط الظلام وقال ابراهيم:

- بالك الكلاب...

وقبل أن يكمل جملته، انقض السائق على عنقه بكل قوة، وبيده اليمنى ضربه على رأسه بالحجر المدبب جعل الدم يخرج من رأسه كالنافورة، آخر ما سمعه صاحب الإبهام المقطوع من إبراهيم هو حشرجته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان والد مهجة أمام العمارة ينتظر عودتها كالعادة، انتظر ما يكفي لتُثار حفيظته ويبدأ الشك ينمو في صدره، صعد إلى شقته، شعر بضيقٍ وألم في صدره، لم يكن مطمئنًا فقد انتابه شعور بالقلق والخوف، لم تتأخر ابنته من قبل، وإذا تأخرت كانت تهاتفه وتخبره عن سبب تأخرها، فتح نوتة صغيرة فيها رقم ماهر، رفع السماعة بيدٍ مرتجفة وأدار القرص وانتظر أن يجيب أحدهم، مع انتهاء كل رنة كان قلقه يتعاظم في صدره، عاود مرة أخرى ولكن دون نتيجة، فتح النوتة مرة أخرى وأخذ يبحث عن هاتف سوزان لم تُجِب كانت الساعة تقترب من الواحدة بعد منتصف الليل، فكر في الذهاب إلى بيتها، ولكنه تردد بسبب تأخر الوقت، ولكن لا مفر من إيقاظها، هبط الدرج مسرعًا وشق الظلام إلى أن وصل إلى بيتها يلهث كالعداء، طرق وانتظر بعد لحظات فتحت سوزان الضلفة الزجاجية في ارتباك واضح على محياها، وجدت صالح يقف أمامها بوجهٍ شاحب أسود ممتقع:

سألها في أمل أن تخبره عن مكان ابنته:

- فين مهجة؟

- مش فاهمة يا عم صالح؟

- مهجة مرجعتش البيت.

ضربت على صدرها بقوةٍ وقالت في خوف:

- مش ممكن، دي سابتني... حكت جبهتها وتابعت في تلعثم: حوالي الساعة عشرة ونص سابتني وقالتلي إنها تعبانة وهتروح، طيب كلمت منى؟

- محدش... مسح دمعه بظاهر يده، أول مرة ترى هذا الجبل يبكي وتابع: محدش بيرد.

- محدش هيرد عليك، النهارده راس السنة، يمكن خرجت معاهم هنا ولا هنا... صمتت قبل أن تكمل، أرادت أن تبحث عن جملة مناسبة لتهدئة الرجل وقالت: يمكن نامت عندها يا عم صالح، متقلقش عليها، مهجة بميت راجل، يمكن كلمتك وانت مكنتش موجود في البيت، متقلقش يا عم صالح، بكره هنعرف مكانها بإذن الله.

كان صالح جالسًا بجوار التليفون ينتظر أي مكالمة، تارة يتكئ وتارة يطل من النافذة، ذرع خطواته في الصالون ذهابًا وإيابًا لم يستطع عقله التفكير، استبعد كل الاحتمالات السيئة، مر الوقت ثقيلًا، جلس على الأريكة وغاص بها، بين الفينة والفينة كان ينهض مفزوعًا، يُهيأ له أن التليفون يرن، يضع سماعات التليفون على أذنه، وعندما لم يجد صوتًا، يمسح عرق جبينه بظهر يده ويغط في نومه وهكذا، استولى عليه النعاس حتى نام، لابُد أنه نام ساعة أو يزيد قليلًا، عندما استيقظ في الصباح على

رنة التليفون كان يشعر بصداعٍ لا يُطاق وأذنيه تطن طنين لا يُحتمل، كم كان مزعج هذا الطنين، وشعر بألمٍ في رقبته، أفزعته بقوة تلك الرنة، كان المتصل هو ماهر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13

في حوالي الساعة السادسة والنصف صباحًا وأسفل السماء الكثيفة المنذرة بقدوم عاصفة مطرية شديدة وبين هبات الرياح القوية المحملة بالصقيع، وقف الحارس بعيدًا متفاجئًا حائرًا يشاهد الجثة التي احتلت وسط المنطقة التي يحرسها، كانت جثة إبراهيم منطوية على نفسها، اقترب في حذرٍ غير مصدق عينيه بصفيحة وجهه التي تحمل تشاؤم لبداية غير مطمئنة ليوم جديد، حول رأس الجثة تجمعت بقعة داكنة اللون من الدم المتجلط، ووجه الجثة مائل إلى الزرقَّة ومن بين ملابسه الرثة المهلهلة ظهر ذراع الجثة مطبوعًا ببقعٍ داكنة وفي بطنه التي عرتها الرياح شق عرضي قديم، انصرف قبل أن يتقيأ لهول المشهد، ظلَّ ينتظر حضور الشرطة في قلق وبينما هو ينتظر أخذ يتفقد المكان من حوله، أخذ يُحدث نفسه في أثناء سيره ويتساءل: "حصلت الجريمة امتى؟ معقول يكون مات هنا ولا حد رماه هنا؟ يا نهار اسود، أنا ما صدقت ولقيت شغل، معقول يحققوا معايا؟ وأنا مالي أنا مسمعتش أي حاجة".

انتابه شعور بالضيق والكدر، ضرب كفًا بكف، بدأ في تفقد مداخل بعض العمائر سريعًا لم يجد شيئًا، وفي أثناء هبوطه الدرج الخارجي لعمارة وجد آثار دماء متناثرة فوق الدرج، تقطب وجهه وتجهم وأصابته الحيرة والدهشة مما رآه، "معقول يكون في جثة تانية؟ شكل يومنا مهبب يا عثمان"، ذهب إلى غرفته مسرعًا وعاد وهو يحمل في يده عصا غليظة، صعد الدرجات ببطء وحذر والعصا بين قبضتيه مستعد لأي طارئ، وصل إلى باحة داخلية تكومت فيها أكياس الأسمنت ومعدات للبناء وملابس للعمال معلقة على الجدران، كانت قطرات الدم تقوده مباشرة إلى أكياس الأسمنت، اقترب بحذر وعصاه في الهواء مستعدة لأي احتمال، عض على نواجذه بقوة وعينيه تقدح شررًا وكلما اقترب زادت عينيه اتساعًا، دار حول الأكياس بسرعة ويقظة حاول أن ينظر من خلالها لكنه لم يجد شيئًا، صعد فوق الأكياس بسرعة، وأخذ يتفقد المكان من حوله، استدار برأسه كالبوم، كانت هناك مقرفصة بجوار الجدار وشدت على قدميها بيديها بقوة، كانت منكمشة منطوية في الركن، تبدلت نظراته الهلوعة المرتبكة بنظرات كلها إشفاق، اقترب منها بروية، رمقته بنظرة حادة قوية بطرف عينيها، توقف مكانه متخشبًا، سقطت العصا من يده أرضًا، كان شعرها مشعث مغبر ووجهها اعتلته جروح ودماء وثيابها ممزقة.

بددت "سارينة" الشرطة الصمت، خرج مسرعًا وجد شخصًا بالقرب من المقتول يطوف حوله، منعه أحد العساكر من الاقتراب، بعد لحظات من الترقب والقلق والحيرة انتهى المحقق ذو الوجه الدائري من فحص الجثة، جال المحقق شكري بنظره في المكان بسرعة، كان المكان كئيبًا خاليًا من أي حياة.

تقدم المحقق تجاه الحارس وسأله مستنفرًا:

- انت الحارس؟

- أيوه يا بيه.. وأشار بيده إلى إحدى العمارات وتابع بنبرة صوت يشوبها القلق والتردد: هناك يا بيه... بنت... كلها دم.

قاده إلى حيث كانت ترقد، كاد الجدار أن يبتلعها من شدة التصاقها به، أشاحت بوجهها بعيدًا إلى الجدار، خافضة عينيها وقد ظهرت عليها الخدوش والجروح واضحة، كانت أطرافها مجمدة من شدة البرد لا من شدة الخوف، كانت مضطربة وأنفاسها تكاد تثير عاصفة، كانت حزينة وتتألم في صمت، أطبق على المكان سكون.. كسكون ما بعد الفيضان عندما يمسح قرية ما، كانت تخشى أن تتحرك فتخل بوضعها الساكن المسالم الذي سكنت إليه في طمأنينة عابرة مزيفة، كان كل شيء جامدًا، أنفاسها.. قلبها.. نظراتها.. جفنيها.. العالم من حولها.. كل شيء بدا ساكنًا.

فحصها بعينين صغيرتين عسليتين تشعان غيظ وبوجهٍ جادٍ رصينٍ عابس، تأملها رغم ما حدث لها إلا أنه لم يستطع مقاومة جمالها الجذاب، كانت تجذبه إليها بطريقةٍ لم يعهدها من قبل.. أسرت قلبه، كان جمالها غير مفهوم، لم يصفه أحد بعد، ربما تصفه آلة موسيقية يومًا ما، ارتعش صوته من الانفعال عندما سألها:

- انتِ مين؟

لم تجبه.. شدت على قبضة يدها بقوة، اقترب منها وقرفص بجوارها في حذر، أعاد سؤاله ولكنها لم تُجِب:

- طيب قوليلي مين اللي عمل فيكِ كده؟

اغرورقت عيناها ولكنها حبست دموعها، وخزها بسبابته في كتفها الأيسر، فكت قبضة يدها وصفعته بقوة وصرخت بعلو صوتها، تراجع الحضور بفعل صرختها لا إراديًا.

نهض المحقق يتحسس صفعتها، كانت قوية ومباغتة.

فجأة ساد صمتٌ مهيب ثقيل، كان الجميع يحدق إليها مصدومًا، أشعل المحقق سيجارته وحدق إلى أقدامها العارية الجريحة الدامية، كانت يدها ترتعش اضطرابًا، وشفتاها الرقيقتان ترتجفان من برودة الجو، سمع اصطكاك أسنانها، خلع سترته ووضعها على كتفيها، فكر ثم فكر ثم قرر قائلًا:

- هاتولي ورقة وقلم، بسرعة؟

تناول الورقة من أحدهم.. ومدها تجاه مهجة قائلًا: إيه رأيك تكتبي انتِ مين ومين يقدر يساعدك؟

هزت رأسها بالموافقة فألقى بهما بالقرب منها في حذر، أشاحت بنظرها إلى الورقة والقلم بيدٍ مرتعشة خائفة، بعد لحظات ألقت القلم والورقة بعيدًا، نظر إلى الورقة وبصعوبة قرأ ما دُوِن عليها، قرأ اسم صالح ورقم هاتفه، الضابط ماهر ورقم هاتفه، لمعت عيناه عندما قرأ اسم ماهر، تنهد كمن أزاح ثقل عن صدره.

- اسمك مهجة، وابوكِ اسمه صالح، صح كده؟

هزت رأسها، فأردف قائلًا:

- هانت إن شاء الله يا أستاذة مهجة، متقلقيش هنمسكهم وهنجيبلك حقك، وبعدين اللي يعرف ماهر بيه بتكون أموره تمام، دلوقتِ أنا عاوزك تقومي ولو عاوزه أي مساعدة أنا هكون جنبك، بس انتِ مدي

إيدك وأنا أساعدك، متقلقيش كله هيبقى كويس بإذن الله؟ يلا بينا يا مهجة؟

مسحت لعابها ومخاطها بظهر يدها وهزت رأسها بانفعال كأنها لا تريد النهوض من المكان الذي وجدت فيه السكون بعد إنهاكٍ شديد، ألح عليها للنهوض وبضرورة المغادرة لعلاجها، وطلب من مساعده أن يذهب ويهاتف الضبط ماهر، بينما هي كانت تنهض متثاقلة تقدم إليها أحد العساكر لمساعدتها ولكنها باغتته بنظرة شرسة جافة وتبعتها ببصقة قوية على جنس كل الرجال.. على الفور ابتعد عنها، توقفت لبرهة لتفرد جسدها المتيبس، عدلت شعرها في كبرياء ولفت وشاحها خلف رقبتها وعدلت من هندامها المتسخ المبلل بماء المطر ووضعت فوق كتفيها جاكيت "المحقق شكري"، انحنى وخلع حذاءه عندما وجد قدميها تترك أثر الدماء، انتعلت حذاءه الواسع وأخذ يسير أمامها غير مبالٍ بوخز الحصى ولا بالبرد الذي تسلل إلى قدميه، أخذت تسير بخطواتٍ متباعدة كأنها أجرت عملية بواسير، تئن وتبلع ألمها داخل صدرها، كانت محطمة القلب وممزقة الروح.

وصلوا إلى المستشفى كان في استقبالهم ماهر ومنى، هرعت منى إلى عربة الإسعاف، كانت جالسة في الركن وحيدة لم تسمح لأحد بأن يركب بجوارها، صعدت منى إلى الداخل توقفت أمامها للحظات منحنية تتأمل وجهها الجريح وملابسها الممزقة وحالها الذي يُبكي ويُدمي القلب، اقتربت منها واحتضنتها، أجهشت في البكاء، أحست بدموعها التي اخترقت ملابسها ولامست جلدها، بكت وتمتمت بكلماتٍ غير واضحة، ربتت منى على كتفها وعلى ظهرها وعلى كل مكان تطاله يدها، كما لو كانت أمها ومسحت بيدها على رأسها بلطفٍ وحنان وحاولت جمع شعرها المنكوش، بينما كانت مهجة مستلقية على السرير وبجوارها منى تتشبث بالعربة التي قادتها إلى الداخل، رمقت منى ماهر بنظرة لم يعهدها من قبل، نظرة غريبة.

قال المحقق شكري لماهر في أسى وحزن:

- المسكينة شكلها...

طلب منه ماهر أن يُكمل ما أراد قوله، فتابع:

- شكلها اغتُصبت يا باشا؟

- هو ده اللي حصل يا شكري، المهم متنساش تزودني بصورة عن تقرير الطب الشرعي، روح انت خليني أكلم ابوها.

- باشا... ممكن طلب؟

- متقلقش، هبلغك لما تقوم بالسلامة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أخذ يتبعه هلال، كان يسير بسرعة لقد كان يشق الزحام كالريح، مر من السوق، لمح عمته من بعيد تشير إليه فلم يهتم لها، عبر من أمام سوق العطارين، لمح سيدة تقف بجوار والده، ابتسم بمرار وأكمل مسيره، وصل إلى نهاية الشارع، استوقف صالح سيارة أجرة، وتبعه هلال بسيارةٍ تسير خلفه حتى وصل صالح إلى المستشفى.

تسلل هلال وراءه إلى المستشفى، كان قلبه يزداد خفقانًا واشتم رائحة مكروه في الهواء.

جلس صالح بجوار ابنته ينتظر إفاقتها من البنج، كانت ممددة على السرير، ساكنة لا تتحرك، غُرز في ذراعها اليمنى إبرة وريدية وفي يدها اليسرى أيضًا ولكنها مغلقة وعُلق بجوارها كيس محلول فارغ. رأسها ملفوف بضمادة، كانت يديه تحتضن يدها وتقبلها بدفءٍ وحنان، كان يحدق إليها في حزنٍ شديد، كاد أن ينفجر نياط قلبه، ازداد الشيب في رأسه وشاخ فجأة، كانت مهجة أقرب إلى الموت، وجهها الممتقع الذابل المتورم وتناثرت عليه الكدمات، وشفتاها الجافتان المتشققتان، وشعرها المتناثر أخذ يلتقط منه بقايا الأوساخ التي علقت به، اغرورقت عيناه عندما استعاد الحوار الذي أبلغه فيه الطبيب أن مهجة تعرضت لاغتصابٍ عنيف من الدبر مما تسبب في جرح في فتحة الشرج، سبع غرز، يا الله!

عض كفه بشدة حتى كادت أسنانه أن تلامس عظامه، حز الألم في قلبه وأوجعه، لا يعلم ماذا يفعل؟ أين يذهب، نهض وشعر بدوارٍ يهوي به، عاد وجلس مكانه، حدق عبر زجاج النافذة إلى الخارج، تهاوت أمامه العمائر، واحتراقات الأشجار، وثار النيل وهاج وابتلع العالم، اشتعلت النار في صدره، لم يكن يعلم ماذا يفعل ولا كيف يطفئ النار المشتعلة التي التهمته، بكى بكل قوة، ولكنه لم يرتَح، ضرب على رأسه بشدة في خيبةٍ وأسف، حمل نفسه مسؤولية ما حدث لها، كيف سيعوضها على ما أصابها؟ كيف سيعتذر لزوجته في الحياة الأخرى وكيف سيبرر لها موقفه؟ كيف سينظر في عينيها عندما تفيق؟ ماذا ستكون أول كلمة لها؟ كيف ستكون نظراتها له؟ تعاركت الأسئلة في عقله كقطيع من الثيران الهائجة. دخلت عليه منى وهو يسمح دمعه.

اقتربت منها منى وطبعت قبلة على جبينها الدافئ المتعرق، وجلست قبالة صالح، شاحبة الوجه وبعينين حمراوين من كثرة البكاء، كانت منى بين الحين والآخر تمسح العرق المتجمع على جبين مهجة وتتحس يدها بلطف، طلب منها صالح المغادرة لتستريح بسبب حملها ولكنها رفضت، صامتان... ينظران إلى مهجة الجريحة، كلاهما يحاول تخيل ما حدث لها، مر الوقت ببطء فقد كان ثقيلًا هذا السكون الذي ألقى بظلال حزنه على قلوب الحاضرين، لم ينبس أحدهم بكلمة، كل ما تسمعه في الأرجاء هو صوت أنفاسهما وتنهيداتهما العميقة، وصوت قطرات المحلول وأنين متقطع منخفض كأنه همس يصدر من مهجة.

كان هلال في الخارج يقف في ممر المستشفى بملابسه التي تدل على هيئته الفقرة، وبوجهه منقبض الأسارير باهت هزيل يسترق النظرات كلما دخل أو خرج أحدهم من الغرفة، كان سرعان ما يُغلق الباب، كلما اقترب أحدهم من الغرفة، تبعه بسرعة حتى يقف بالقرب من الباب ويختلس تلك النظرة السريعة الخاطفة، ويعود أدراجه حيث كان يقف بجوار الحائط، في كل نظرة كان يلمح شيئًا في وجهها، رأى وجهها المنتفخ الممتقع، وخديها الشاحبين، ورأى شفتيها المتحجرتين وقدميها المضمدتين، تحطم قلبه لمَ أصابها اضطربت مشاعره ماجت به الدنيا، سالت دمعة حزينة.. لم يعلم أنها تعرضت للاغتصاب، خُيل له أنه يقف بجوار رأسها ويمسح العرق عن جبهتا وبين الحين والآخر يتحدث إلي صالح ويخفف عليه من شدة ما أصابه، ضرب برأسه على الجدار ونزع ظهره الملتصق بالجدار وعقد يده خلف ظهره، وانصرف خارج المستشفى مطأطئ رأسه مهمومًا حزينًا متواريًا خلف جبنه وقلة حيلته.

وصل إلى الحي، توقف بجوار عمته شارد الذهن، حاول الاندماج مع السوق وأهله ولكن دون جدوى، دفعته عمته بكوعها في صدره.

- سألته: رحت فين؟

- مشوار.

- بتخبي على عمتك يا هلال؟ وليه زعلان ووشك اصفر زي حبة الليمون؟ مالك يا ابني؟ في إيه؟ ابوك جراله حاجة؟ اتكلم انطق.

ابتسم باستهزاء ومرارة..

- أبوك بخير يا هلال؟

- سيبك من ابن الحرام، ده مش ابويا.

- عيب يا ولد...

- بلا عيب بلا نيلة، ابوك ابوك، يلعن ابويا مليون مرة، خايفة عليه، خايفة على اللي حرمك من الميراث، خايفة على اللي منعك من دخول بيت ابوكِ، مش هسكت، مش هو اللي كان السبب في طرد العرسان، وأخرتك عانس بياعة خضرة وانتِ اخوكِ سيد العطارين، لا سيد الانجاس، فضحنا في كل حتة...

- اسكت خلاص، ملوش لازمة الكلام ده، ومتنساش إنه ابوك.

- مش يمكن مش ابويا وأنا ابن حرام، متسغربيش يا عمتي.. كل شيء جايز.. وصلت البومة.

- غور يا هلال، مش عاوزه اشوفك.

- هلال مش هيغور" قالتها نفيسة.

ألقت إليها حبة باذنجان وسرعان ما تلقفتها بمهارةٍ وقالت:

- البتنجان مر وأخباري مرة يا هلال.

- أخبارك شوم يا لطيف منك، الله يسهلك يا نفيسة، مش فايق" قال هلال.

- مش عاوز تعرف أي حاجة عن مهجة يا هلال؟

- مهجة في المستشفى، بس انتِ إيش عرفك؟

- انت عرفت إنها اغتُصبت يا هلال؟

- بتقولي إيه يا نفيسة؟

- وانت إيش دخلك بمهجة يا هلال؟ سألته عمته في استغراب.

- الواد بيحبها من بعيد لبعيد.

انصرفت من المكان وفي يدها حبة الباذنجان المر.

هوى على كرسٍ بالٍ لا ظهر له، متمتمًا: "اغتُصبت، مش ممكن؟" كان هذا بالنسبة له أمر مستحيل الحدوث، أمرًا جنونيًا، كان يسمع عنه من هذا ومن ذاك ويقرأ عنه في الجرائد والكتب، لم يستطع الكلام ولا التفكير، انقبضت أساريره، وتفككت أوصاله، لم يستوعب ما قالته نفيسة، تركت الكلمة أثرًا في نفسه، آلمه ذلك الشعور، الشعور بالخجل بالنقص من نفسه، شعور بالتخاذل، لم يستطع أن يقدم لها يد العون، حتى إنه لم يقدر على الحديث مع والدها، لم يجرؤ على دخول غرفتها، كان جبنه أقوى من عشقه.

نهض متوجهًا إلى بيته، وفي طريقه وجد يحيى يطرق الحديد، توجه نحوه وعيناه حمراوان كالبركان، وسأله:

- كنت فين امبارح يا يحيى؟

- وانت مالك؟

- كنت عند سوزان، قول لي نمت معاها ازاي؟ أه، انت مكفيها؟ بتقدر عليها يا يحيى؟

جذبه من تلابيبه وأجابه في لهجة غريبة:

- اسمعني يا هلال، عمرك ما هتطولها حتى لو في خيالك، خليني اقولك على حاجة، عاوز تعرف سر سوزان، اسمعني كويس... سوزان هي الست الوحيدة اللي وثقت فيا واديتني جسمها، جسم كله حيوية زي نبع الميه، انت متعرفش مقدار الطاقة اللي عندها، يا ابني الطاقة اللي عندها تكفي قبيلة كاملة من الستات.. جذبه بقوة حتى التصق به وتابع: أنا أكفيها، وأحلى حاجة إننا هنتجوز قريب، كل الناس هترقص في فرحنا، وبكده هنكون أعلنا حبنا للناس كلها، حب طاهر، بتضحك على إيه؟ دفعه بعيدًا عنه.

أصغى إلى ما قال بكل اشمئزاز وقرف، وقال:

- مكنتش اعرف إنها بدلت لسانك كمان، ده انت فضلك تكه وتكتب...

- غور من هنا بلاش قرف، أنا مش عارف كنت بقعد معاك ازاي.

بدت عيناه رطبتين وجاء صوته ضعيفًا واهنًا مسالمًا حين أردف:

- معلش، اللي اختشوا ماتوا، المهم... ولا بلاش تعرف، مش هتفرق معاك في حاجة، أصل اللي زيك مينفعش يغير حاجة ولا حتى ينفع الواحد يشاركه همومه.

قبض بيده على المطرقه وصرخ في وجهه قائلًا:

- روح شوف عمتك هتنشر إيه النهاردة من غسيل وسخ زيك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد جريمة اغتصاب مهجة بأسبوع كان ماهر يجلس خلف مكتبه يقرأ ما دونه قبل يومين عن جريمة قتل إبراهيم: "إبراهيم محفوظ، سبب الوفاة: ضربة مباشرة في الرأس بحجر وآثار قبضة اليد اليسرى على عنق الضحية، وبعض الكدمات المنتشرة على جسده"، ضحية أخرى من ضحايا كابوس تساءل: "ليه الحجر؟ ده مش مستاهل، وكدمات في جسمه، شكلك اتعذبت يا إبراهيم، ولا في أكتر من واحد عذبك؟ شكلك كنت شقي، بس ليه ضحوا بيك؟ مع إنك مشترك معاهم في الجرايم، ولا خلاص خلص دورك؟".

أشعل سيجارة نفث دخانها من أنفه، كان مستفزًا مقهورًا، أحس بالهزيمة تتملكه، شعر بأنه خسر المعركة ولم يصل إلى أي خيط يمكن أن يقوده إلى كابوس أو حتى إلى أي من الجناة، نظر إلى منفضة السجائر وأخذ يمرر حواف السيجارة على الرماد، كانت قضيته كمن ينفخ في قربه مخرومة، راقب خيط الدخان الملتوي المتصاعد، عند نقطةٍ ما أخذ يتشكل أمامه على شكل منحنيات وأشكال متداخله، طرق أحدهم على الباب، سمح له بالدخول.

- مالك يا محمد مهموم؟

- النهارده الصبح، سمير لقى السجان مقتول وحسام شاكك إنه ساعد في دخول المجرم اللي قتل صابر.

أطلق ماهر ضحكة صاخبة، ضحكة ممزوجة بالغل:

- قتلوه زي ما قتلوا البواب، كل واحد ممكن يتلكم بيقتلوه.

خرج من مكتبة مستنفرًا قاصدًا المستشفى.

كان المطر يهطل بغزارة لم يعهدها ماهر يومًا، كانت قطرات الماء ترتطم بزجاج السيارة في قوة، لم تستطع المساحات الزجاجية التي كانت تعمل بسرعة على مسح حبات المطر الكبيرة الغزيرة، توقف جانبًا منتظرًا أن تخف شدة المطر ليستطيع كشف الطريق أمامه، مرت دقائق ولم تخف حدة المطر، كانت السيارات تمر بجواره في بطء، وبعض السيارات تمر مسرعة فترشق النافذة برشقات من ماء المطر المتجمع فوق الطريق، من قوة الرشقات كانت تسلل قطرات إلى الداخل من بين حافة الباب وحافة النافذة التي لم تلتحم مع حافة الباب، كان الجو باردًا داخل السيارة ويداه تكادا أن تتجمدا من شدة البرودة التي لم يعهدها، أخذ ينفخ في راحة يديه لتدفئتهما ولكن عبثًا كان يحاول، فكان الهواء يتسلل من ذاك الشقق، رفع ياقته لتقيه تسلل الهواء البارد إلى داخل جسده فأكمل سيره مُستَفَزًا ومحبطًا من رداءة السيارة التي يمتلكها، جهاز التدفئة معطل والسيارة لا تستطيع التصدي للظروف القاسية التي يمر بها الآن، كانت كإنسان عجوز.

بعد عناء مع الرؤية وجولة طويلة من مقاومة البرد وصل بيدٍ مرتعشة إلى المستشفى، ما أن عبر بوابتها حتى أحس بدفئها يغمره، صعد السلالم محاولًا الخروج من حالة الخمول والكسل.

طرق باب الغرفة، كانت منى وحدها تجلس بالقرب من مهجة، كانت ترفض المغادرة إلا للطوارئ، ولم يجبرها زوجها على المغادرة، تركها تفعل ما تجده مناسبًا، كانت تتحمل فوق طاقتها كأنها مجبرة.

- اقترب منها هامسًا: فين ابوها؟

- روح يغير هدومه.

- وهي أخبارها إيه؟ وانتِ أخبارك إيه؟

- الحمد لله، أحسن دلوقت.

- في خبر مش كويس... السجان لقوه مقتول ومرمي...

- جنب الزبالة. قاطعته منى وهي تهز رأسه في تقاعس.

- أنا تعبت يا منى...

- اشش، إذا تعبت مين يجيب حق البنت الغلبانة دي وحق اللي زيها كتير؟

- أنا بمشي مكاني يا منى... كل ما اقول همسك خيط... يقطعوه، تعبت مش...

سمعا تأوه مهجة، كان تأوهًا خفيفًا رقيقًا، وجهها بدأ يتورد ويستعيد عافيته، رفعت هدبيها المقوسين، وكانت عيناها مصبوغتين بلونٍ وردي فاتح كلون زهرات الكرز، فتحت عينيها نصف فتحة وحدقت إلى ماهر، كأنها تراه لأول مرة.

- اقتربت منها منى ومسحت جبينها برفق: ازيك يا مهجة؟

ابتسمت في وداعة وأغمضت عينيها دليل تحسن حالتها، وبعد دقائق اقترب منها ماهر بلهفة وسألها:

- ممكن طلب يا مهجة؟

كانت ابتسامتها هذه المرة باردة وجافة، خمنت ما خلف سؤاله.

- مش دلوقت. قالت منى.

ربتت على يدها مهجة، كأنها تقول لا مشكلة اليوم أو غدًا سيسأل، لا مفر من السؤال.

نظر إلى منى ومن ثم استقر بمقلتيه داخل عيني مهجة وسألها:

- كان في واحد طويل ومخيف، عملاق؟

أومأت برأسها.

- كانوا كام واحد؟

نظر إلى يديها...

- أربعة؟ حلو قوي، هتقدري تكملي؟

اتكأت على يدها الهزيلة المرتجفة وحاولت أن تعدل ظهرها، ساعدتها منى ووضعت وسادة بيضاء خلف ظهرها، جمعت شعرها المسدل من فوق كتفها الأيسر حتى تجمع فوق صدرها.

- اسأل.

قالتها مهجة في أنين.

جلست بجوارها منى، وشدت بكلتا يديها على يدها.

- ممكن تقوليلي إيه اللي حصل معاكي؟ ووقت ما تحسي نفسك مش قادره، متكمليش براحتك.

تنهدت عدة مرات بقوة واستجمعت قواها وأخذت تقص عليهم ما حدث من البداية حتى النهاية، كانت متماسكة صلبة، عدا أنها كانت بين الفينة والفينة تصمت للحظات وتتابع من حيث توقفت، كانت تتحدث كما لو كانت رجل آلي خالٍ من المشاعر، لم تدمع، لم تهتز، لم تغير نبرة صوتها، كانت كالصخر في مواجهة عاصفة.

انتهت من سرد حكايتها.

ساد صمت ثقيل في أرجاء الغرفة، تبادل ماهر النظرات مع منى، أشاحت عنه بعينيها، دست كتفها بجوار مهجة، أحست بنبضات قلبها القوية، أحست بحرارة جسدها وبرعشاته الرقيقة، شدت على كتفها بحنان، تعلم ما يجول في داخلها من اختلاجات تخفيها عن ماهر، لا تريد أن تظهر ضعفها أمامه، تحاول بقدر استطاعتها أن تحافظ على تماسكها وعنادها، تنتظر اللحظة التي يخرج فيها ماهر لتترك العنان لدمعها أن يهون عليها مأساتها، تريد أن تخرج ما تكبته من مشاعر سلبية تأججت داخلها بعدما قصت عليهم تلك الفاجعة، حدقت من خلال النافذة إلى الليل الذي أسدل ستاره على المكان، كل الليالي متشابهة في ظلمتها وفي وحشتها.

نهض ماهر مخدرًا بفعل ما سمع منها وتوجه إلى بيته في ضيق.

تدحرجت دمعة من عينيها، سقطت على خدها وتناثرت على الملاءة، وبعد لحظات تبعها سيل من الدموع المكبوتة، ضمتها منى إلى صدرها، وبدأت تنتحب بقوة، لم ترى منى أحدًا يبكي بتلك الشدة من قبل، وضعت يدها على كتفها المرتجف، بللت كنزتها الصوفية وتغللت أنفاسها الحارة أسفل ملابسها، أسندت رأسها على ذراع منى اليمنى وأخذت تربت على رأسها وتقبله بلطفٍ واهتمام، وانتظرت... وبعد برهة توقف بكاؤها ونحيبها أخذ ينسحب رويدًا رويدًا من صدرها حتى تلاشى ونامت ومنى ما زالت تمسح على رأسها كأخت.. لا بل كأم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

14

طالت لحية هلال وسكنته الوحشة والهزيمة، من يراه يظن أنه فقد عقله، دائمًا شاردًا عابسًا كئيب، من المقهى إلى السوق إلى البيت، قل كلامه، قل أكله وتقلب في نومه، الولهان الجبان، لم يكن يجيب عن أسئلة عمته، طلبت منه أن يذهب إلى المستشفى وألحت عليه ولكنه لم يستطع، كان مستاءً من نفسه حاقدًا على شخصه وعلى تصرفاته، لم يستطع أن يثور على جبنه وعلى تردده الذي أبعده عنها، لو لم يكن جبانًا ومترددًا لكان الآن يقف على بابها أو حتى بجوارها، كلما اختلى بنفسه كلما بكى كالنساء، كان هذا أول حب وآخر حب في حياته، كانت تراوده أفكار بترك الحي والذهاب بجوار والدته، لا يريد أن يراها مرة أخرى، لا يريد أن يراها مدنسة، كان تارة يلومها على ما أصابها وتارة يدافع عنها، كان يقول: "لو رجعت بدري مكانش حصل اللي حصل، لو استنت سوزان كانت روحت في أمان وسلام". ولكن حدث ما حدث، استسلم لقراره.. سيهجر الحي، ولكن قبل هذا كله يريد أن يزور نفيسة.

ترك حقيبته أمام بابها وطرق عدة طرقات، أطلت الخادمة، سرعان ما فتحت له الباب وطلبت منه الدخول، انتظر للحظات في الصالون الخالي، جلس على كرسي، طلت نفيسة من خلف غرفتها تتعكز على عصا:

- أهلًا بابن العطار، أهلًا بالعاشق الولهان.

- شكرًا، مين اللي فتحتلي الباب؟

- واحدة قريبتي بتزورني من وقت للتاني، مالك زي الجنود المهزومين؟ في إيه؟

- مفيش... بس أنا... عاوز أودعك... هسيب الحي.

- على فين العزم إن شاء الله؟

- عند أمي، وحشتني.

- هتسيب الحي عشان اللي حصل لمهجة؟!

- تنهد بألم وقال: لا، لإن كل اللي فيه كدابين ومنافقين، وانتِ...

- أنا مالي يا ابني؟ أنا غلبانة، مليش حد غيرك؟

- انتِ كدابة زيهم يا سيتي، وعدتيني إنك هتقوليلي مين اللي قتل فريدة بس...

- اشرب الشاي قبل ما يبرد، أنا موعدتكش بأي حاجة خالص، وعمري ما اديت وعد لحد لأني بخاف موفيش بيه.

- براحتك، بس قوليلي مين قال لك عن مهجة؟

- إذا قلتلك مين اللي قتل فريدة ومين اللي قال لي أخبار مهجة إيه اللي هيفرق معاك؟

- مش همشي، هفضل هنا جنبك. قالها كاذبًا.

- مش مهم عندي تفضل ولا تمشي، المهم إنك تريح عقلك وسيبك من اللي قتل فريدة وسيبك من كل حاجة، المهم إنك تهتم بنفسك وخليك شجاع اعمل اللي نفسك فيه... وعشان تطمن ابوك مقتلش فريدة.

- أشغل بالي؟! انتِ عارفه اللي قتل فريدة وسيباه يعيش، واللي قال لك عن مهجة أكيد عنده حاجة هو عارفها، صح ولا كلامي غلط؟

- قول لي يا هلال، انت عاوز تسيب اللي بتحبها ليه في أسوأ ظروفها...

قاطعها بحدة وقال: هي متعرفش إني بحبها من أصله، متعرفش إني بتعذب بسببها.

- هي مش مشكلتها إنك تتعذب، مش مشكلتها إنك مش بتنام الليل، مشكلتك إنك ضعيف وجبان وخايف من البداية.. صمتت للحظات وتابعت في ضيقٍ وأسى: دي مشكلتك انت، حلها لوحدك.

- هي السبب في اللي حصلها، لو رجعت مع سوزان مكنش حصل...

- اخرس يا ابن الكلب.. لوحت بالعصا في وجهه في غيظٍ شديد وفجأة ارتفع جفنان منكمشان ليكشفا عن عينين قويتين مخيفتين وأردفت: ازاي تتهم بنت في مصيبتها، انت متعرفش قد إيه هي بتتوجع وبتتألم، عقلك الصغير ميقدرش يتخيل اللي هي عيشاه، اخص عليك.. بصقت على أرضية الغرفة وتابعت في عنف: دي هي خسارة فيك، خسارة فيك اللي بتفه من أكل، يا فاشل يا حقير، ده أنا لو عرفت إنها بتفكر فيك ولو للحظة هموتها.. كزت على أسنانها في غضبٍ وأوضحت: أنا كنت بقول دايمًا إنك طالع من تربة نضيفة بس شكلك طالع من تربة رمة معفنة، ويطلع منك يا ابن الحرام، غور من قدامي يا ابن الكلب، غورررر.

انصرف مسرعًا مَخزيًا.

استدارت وعادت إلى غرفتها، كادت أن تسقط أرضًا لولا الخادمة أسندتها من ذراعها، كانت قوية البنية مليحة ولسانها عذب، ساعدتها لتجلس على سريرها، استبدلت فراشها اليابس بآخر وثير.

- مالك يا سيتي؟ بتعيطي ليه؟

رفعت رأسها ببطء ونظرت إلى الخادمة بعينين استوطنهما الدمع وقالت:

- مش عارفه أعيط على إيه ولا على إيه؟ اوففف.. أنا علمت حاجات وحشة قوي في حياتي، حاسة إني هتعذب نص عذاب سكان الأرض، سيبك مني، روحي شوفي شغلك.

تناولت مقعدًا وجلست أمامها في عناد وقالت:

- أنا مش همشي من هنا إلا لما اعرف مالك، إيه اللي عملتيه يا سيتي، فضفضي يمكن تستريحي، بس خليني أقولك سر عن نفسي عشان تديني سر من عندك، اتفقنا؟

- لا طبعًا، مش عاوزه اعرف عنك أي حاجة، كفاية أسراري وأسرار غيري، مش ناقصة حمل زيادة، كل ما في الأمر إني ندمانة على اللي عملته، مكانش لازم أقول لحد على اللي حصل مع

مهجة، مش عارفه اعمل إيه، إيه اللي خلاني أقول؟!

فكرت وخطر في بالها أمرٌ ما، ترددت في بوح ما جال في عقلها ولكنها بدت عاجزة عن تحمل الصمت فسألتها:

- سيتي، في حد من قرايبك اتعرض للاغتصاب قبل كده؟

- وبتسألي ليه؟ إيه اللي خلاكِ تسألي يا بنتي سؤال زي ده؟

- مش عارفه.. إحساس يا سيتي، حسيت إنك بتدافعي عن بنتك لما اتهمها هلال.

نظرت إليها نفيسة تحاول أن تقرأها من خلف تلك العيون الباردة، كانت غريبة تلك الطريقة التي تغمض بها عينيها، كانت عين تسبق الأخرى.

- في إصابة في عصب عيني اليمين.

- من إيه؟

- الست ليلى، طلبت من كبير الخدم يجلدني لأني كنت على علاقة مع واحد، من كتر ما اتجلدت يا سيتي وصلت لمرحلة بطلت أحس فيها بأي وجع، أه والله، وجلدة من الجلدات نزلت على عيني.. كشفت عن ظهرها، كانت آثار السياط متقاطعة وبارزة: حسبنا الله ونعم الوكيل فيها.

- هاتيلي ميه يا بنتي، عطشت فجأة.

ناولتها كأس الماء الممتلئ، شربته على نفسٍ واحد كأنها لم تشرب من قبل، لم ترتوِ فطلبت آخر.

تركتها الخادمة لتستريح، ظلت وحيدة في الغرفة، أسندت رأسها للجدار الرطب البارد، مرت من أمامها ذكرى مريرة لليلة سوداء كلها صراخ وبكاء، بعد لحظات تبددت الصورة إلى نار تلتهم كل ما طالته، تلك النار كانت تلتهم بيت عمها الذي اعتدى عليها.

غابت نفيسة عن الدنيا ولم تكن تعلم أن الصباح لن يزورها مرة أخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ودعت سوزان العاملات في الصالون وتركتهم بجوار مهجة، وأخذت تسير أسفل السماء المكفهرة أسفل قطرات الماء الخفيفة، حجبت الغيوم النجوم وضوء القمر، تركت مهجة في مزاجٍ معتدل بعد أن حدثتها عن أحوال سبائك الحرير، وعن سؤال الزبائن عنها، كان تواجد زميلاتها فيِ العمل له أثرٌ كبير انعكس بالإيجاب على سلوكها، شعرت باهتمامهن وبمحبتهن لها، لمست قيمتها ومحبتها عند هؤلاء السيدات، وغمرتاها البهجة والسرور.

وصلت سوزان إلى بيتها، كان يحيى مستلقى على الأريكة وأمامه مدفأة ذات ثلاث شمعات ينعكس وهجها على صفحة وجهه الأسمر كأنه استحال لقطعة فحم مشتعلة، لم يكن يرتدي سوى الملابس الداخلية، رمقته بنظرة غريبة لم يعهدها من قبل، ولكنه لم يهتم لنظراتها، توقع أن تكون بسبب الإرهاق في العمل، نهض واقترب منها بخفة اعتادت على تبعاتها، فاحت منه رائحة الخمر، تقززت

ودفعت بوجهه بعيدًا عنها، وظلت تسير حتى استقرت فوق سريرها، بدلت ثيابها وعادت إليه بروب أبيض وعاقدة يديها فوق صدرها، كان ممسكًا بسيجارة ويمج منها أنفاسًا متلاحقة مما شكل جمرة طويلة في مقدمة السيجارة وسألته:

- انت من امتى هنا؟

- من زمان، ليه؟

- أنا مش هقبل الوضع ده يطول أكتر من كده يا يحيى، كفاية لحد كده.

- وأنا كمان مش عاوز تفضل علاقتنا في الضلمة.. اعتدل في جلسته وأوضح: بس ظروفي انتِ عارفاها...

قاطعته في حدة وبعينين شرستين وبحاجبين مرتفعين قالت:

- أنا مش عاوزه اعرف ظروفك، كفاية حجج بعد النهارده يا يحيى، قولتلي إنك مستني مهجة تطلع من المستشفى، أهي هناك قاعدة ومبسوطة، أنا هنا اللي بهري خايفة على سمعتي... صمتت قبل أن تسأله السؤال المعتاد: هتجهز بيتك امتى؟

- قريب إن شاء الله، أوعدك.

يعلم أنه لن يفي بوعده وينتظر أن تساعده في تجهيز البيت.

- امتى يعني؟ أنا سمعت منك الجملة دي كتير.

- "يا حبيبتي انتِ عارفه إن أجرتي يادوب ممشيانا، خليني افاتح عم صالح في الموضوع، أكيد هيسلفني مبلغ ابتدي بيه حياتي، بس خليه يفوق ويطمن على بنته.. ألقى بعقب السيجارة التي سقط رمادها وانطفأت من تلقاء نفسها وسط المنفضة وتابع: انتِ وعدتيني إنك هتساعديني في تجهيز البيت.

لم يمانع يحيى أن تصرف عليه سوزان، لم يخجل من نفسه عندما طلب منها المال أو حتى عندما ذكرها بوعدها، ولكن الاشمئزاز أصابها في عقلها وحطم مشاعرها، تساءلت: "ازاي ممكن يعيش من عرق ست؟ ده انت حقير وابن كلب انتهازي".

- انت عارف إنك واحد أناني وعديم المسؤولية، انت حيوان مش بتفكر غير في بطنك وفي بتاعك.

صب لنفسه كأسًا آخر وتجرعه لعله ينسى ما تفوهت به وأشعل سيجارة في غضب حاول إخفاءه وقال:

- صالح هيسلفني، متقلقيش...

- صحيح! ليه صالح كان بيشخط فيك من يومين؟

- أبدًا، عشان الشغل مش ماشي...

- لا، في حاجة انت عملتها، أنا سمعته بيقولك يا حرامي.

نظر إلى جمرة سيجارته وقال:

- أنا بعت آلة حدادة وبعت شاكوش ورثه عن ابوه، كان جده اشتراه من الشام، بس شاكوش إيه.. تحفة، إيديه كلها زخارف، مكانش بيستعلمه وكان معلقه منظر.

- وبعته ليه؟

- كنت محتاج فلوس، وهو بيضحك عليه بشوية جنيهات، ووعدني أكتر من مرة إن هيعلي أجرتي وعلى الفاضي، وربنا انتقم منه في...

اكفهر وجهها واشتد غيظها، وقالت بحدة واستفزاز:

- انت أرخص إنسان عرفته في حياتي، انت أسفل إنسان عرفته في حياتي، انت شمتان في اللي حصل لبنته يا كلب، اطلع بره غور، مش عاوزه اشوف وشك تاني.

اقترب منها وهو يترنح وعيناه تقدحان شرر، هربت إلى الداخل فتبعها بسرعة، حاولت إغلاق الباب وضع قدمه حائلًا ودفع الباب، تراجعت، قال في سخرية:

- اوعي صوتك يطلع عشان فضيحتك متبقاش بجلاجل. ابتسم في ضيق لاعنًا ما آلت إليه الأمور.

صرخت رغم ذلك، صفعها فسقطت أرضًا، اقترب منها مشدوهًا مما فعل، لم يفكر يومًا أن تصل الأمور لهذا الحد، يعلم أنه لم يعد يسيطر على نفسه، أراد الانسحاب ولكنه لم يقدر، فكر في أن يتراجع ولكنه أقدم عليها بكل قوة، كان أي أمر تافه كفيل أن يحوله إلى وحش، لا يعترض طريقه أي شيء في سبيل تنفيذ رغباته وتحقيق شهواته، لا يريد أن يفتعل جريمة تقوده إلى السجن، أراد أن يتذوق حلاوتها حتى لو ستكون آخر مرة.

لم تراه سوزان بهذا الشر من قبل، ركلها في ظهرها وفي بطنها، استسلمت بعد عدة ركلات، غابت عن الوعي، ومزق ثيابها.

في الصباح لم يصدق ما فعله، انسحب في سكون وخيبة وانكسار لم يعشه من قبل، غادر في خطوات سريعة ولم يلتفت خلفه، كان مشوش الفكر مسلوب الإرادة، كان مُطاردًا من أفكار شيطانية وحيوانية وشهوانية وأنانية، أراد أن ينظر خلفه ولكن شيئًا ما منعه ومنعه من البكاء أيضًا، أراد أن يعتذر ولكنه لم يقوَ على فعل ذلك، كان جسده خاملًا لم يستيقظ بعد من آثار السكر، ربما لو فاق لاختلفت الأمور، لبكى.. لقبل قدميها.. لربما تركها وهو على أمل أن العهد سيتجدد، ولكنه لم يستطع النظر إليها، تركها متقوقعة في ركن الغرفة المظلم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الجزء الثالث

15

الثالث عشر من يناير..

اعترافات مهجة تدل على أن كابوس ما زال حيًا يعيث في الأرض فسادًا، تأكدت شكوك ماهر وحسام، لقد خدعهما أبو الليل متعمدًا، قرر ماهر قضاء أمر لطالما أجله.

نظر ماهر إلى ساعته التي لم تصل إلى الحادية عشر ظهرًا، خرج مسرعًا من مكتبه، كانت السماء تمطر بغزارة وبعنف، توقف أمام باب من الفولاذ عملاق ضخم، لونه أزرق قاتم يبعث في النفس الكرب والإحباط، دخل البوابة وقاده أحد الحرس إلى الداخل، كان يقطع ممرات رمادية اللون تثير حفيظة الزائر وتبعث في نفسه الغم كأنها تطلب من الزائرين عدم المكوث طويلًا، وصل إلى غرفة أسمنتية بعد ثلاث دقائق قضاها في انعطافات وصعود أدراج فولاذية، فتح الحارس باب خشبي بني اللون تقشرت حوافه السفلية وأصدر أزيزًا كما لو لم يفتح منذ مدة، دخل إلى غرفة واسعة وبها كرسيان من الحديد وطاولة من الحديد مثبتة على الأرض، رائحة المكان أشبه برائحة الطين العطن، والرطوبة التي فاحت من الجدران بوضوح تسببت في انسداد مجرى التنفس لديه، سعل محاولًا التخلص من الرطوبة العالقة بأنفه، كان سقف الغرفة مرتفع وبها نافذة يتسلل منها ضوء الشتاء القاتم وصوت المطر المنهمر كان كالموسيقى الرتيبة، جلس وأشعل سيجارة رغم الجو الخانق، وأخرج دفتر وقلم ووضع علبة سجائره بجوار الدفتر وانتظر.. بعد دقائق من انتظار ممل، سمع وقع خطوات ثقيلة قادمة من الممر، أدخلوها وجلست أمامه، لم تعد كما كانت بوجهٍ صافٍ ولكنها اكتسبت عداوة ظهرت على وجهها، وجد آثار حرق أسفل رقبتها، بالإضافة إلى جرحٍ سطحي حديث ظهر على جبهتها، لم تكن سيدة التي حقق معها بل تحولت إلى سيدة من عالم آخر، فهي قد حجزت مقعدها ولو مؤقتًا بين عالم لا تنتمي له.

سألته بصوتٍ مبحوح غليظ:

- إيه اللي فكرك بينا يا حضرة الظابط؟

- اسمعي يا سيدة.. عاوزك توصفيلي الستات اللى زاروكم ليلة الجريمة.. تناول سيجارة من علبته ومدها لها، تناولتها غير مصدقة أنها ستدخن سيجارة ذات جودة مرتفعة بدلًا من التبن الذي تشربه، وتابع: انتِ أكيد لسه فكراهم صح ولا لا؟

تنهدت بألم وأخذت عيناها تتحركان بسرعة كأنها تقلب صفحات عقلها وبعد لحظات قالت:

- كانوا تلات ستات، هدومهم وسخة وريحتهم لسه في مناخيري، أه والله، ريحتهم زي ريحة الجيفة، أنا مش عارفه بيستحملوها ازاي الريحة دي؟ المهم زي ما تقول كده كانت فيهم واحدة تخينة زي برميل الطرشي وابنها في حضنها، وإيديها اليمين فيها تشوه زي اللي في وشي ده.. أشعلت السيجارة وسحبت نفسًا قويًا طويل وتابعت: أصل اللي في وشي دي مية نار.. مالك اتخضيت يا بيه؟ المهم مش عاوزه أطول عليك عشان في دور كوتيشنه ورهان على علبة سجاير، ومش مستعدة اخسر، التانية كان في خط طويل في وشها من الناحية اليمين، زي ما تقول كده حاجة شبه الحفرة بس طويلة،

ومناخيرها معووجة من هنا أو مكسورة.. وأشارت إلى منتصف أنفها، سحبت نفسًا آخر ودفعته من أنفها كالمحترف وتابعت: التالتة كانت طويلة ورفيعة وفي حول في عنيها، أه حول واضح للأعمى، وكانت لدغة في حرف السين ونادت على صاحبة الندب بـ "ريم".

- في حاجة تانية يا سيدة؟

- لا يا بيه، ده اللي فكراه.

ناولها علبة السجائر التي لم ترتفع عيناها عنها، فقالت:

- كده الرهان هيكون في صالحي.

جلس أمام عجلة القيادة يشد شاربه كعادته وأخذ يتساءل: "مين بنات الكلب دول؟ هعرفهم ازاي ومنين؟ شكلها قضية طويلة".

وصل ماهر مكتبه، ووجد إسماعيل يجلس خلف مكتبه، نهض في توتر ما أن رأى ماهر يدخل عدل الكرسي ورتب بقدر استطاعته المكتب الذي تناثرت فوقه الملفات، ونفخ على الرمال التي ترسبت بفعل حذائه الذي كان مرتفعًا عاليًا فوق سطح المكتب، حاول تفادي نظرات ماهر القوية، جلس ماهر وأخرج دفتره ودون عليه بعض الملاحظات متجاهلًا إسماعيل.

- سأله: محمد فين؟

- مش عارف يا بيه.. اقترب تجاه ماهر وقال: باشا في أي حاجة ممكن اساعدك فيها؟

- خد الملفات دي واقراها بتركيز وقدملي تقرير مختصر عن كل ملف.

- أكيد طبعًا يا باشا.

أخرج إسماعيل من جيبه ورقة ناولها لماهر:

- دي يا باشا عنوان واحد كلمني وقال لي إنه عاوز يشوفك ضروري.

- اسمه إيه؟

- مقالش.. ورفع كتفيه زامًا شفتيه متخذة شكل رقم خمسة وتابع: مقالش يا بيه، بس الراجل كان كده يعني كأنه خايف، أه بالظبط خايف من حاجة.

- المهم، عاوزك تبلغ محمد ياخد الرسام ويروح على السجن، في هناك حد يستناه، متنساش؟

طوى الورقة ووضعها في جيب سترته، وفي مساء هذا اليوم كان حسام يجلس مع سالم في مكتبه، لم يكن يعلم سبب استدعائه على وجه السرعة، بدت على ملامح سالم الجدية والعبوس والشحوب والتركيز الشديد، كانت في يده ورقة مختومة بعدة أختام، كانت الورقة تهتز في يده، كان مرتبك، لم يستطع حسام أن يطرح أي سؤال أو حتى أن يتساءل بينه وبين نفسه، كانت الأجواء محاطة بالغموض والسرية، أشعل سيجارته في صمت وارتشف فنجان قهوته وهو يترقب ردة فعل سالم، بعد

لحظات سقطت الورقة من يد سالم، ونهض وأخذ يذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا في قلق وحيرة من أمره، لم يحب هذ الأوقات المليئة بالغموض والارتباك والحيرة، أراد أن ينهض ويغادر المكتب ولكن كانت عينا سالم الحائرتين ترمقه من وقتٍ لآخر فلم يستطع الإفلات منهما، كل ما كان يحارب من أجله سالم أصبح أمامه وبين يديه، كل ما يريده هو رجل يثق به ولن يجد أجدر من حسام، ولكن حسام في نظره شخص متسرع ويخشى منه أن ينسف كل شيء قام ببنائه.

جلس مترددًا يفرك يده في قوة، انحنى للأمام تجاه حسام وجاء صوته حازمًا:

- حسام.. هكلمك عن موضوع.. لو الجن عرف عنه هيتخرب بيتنا كلنا، انت فاهم؟

أومأ برأسه حسام، وتابع سالم حديثه: اللي هتشارك فيه أمر مش سهل، ممكن تتسحب قبل ما توافق على اللي هتسمعه.. اشش، اسمعني كويس وركز، لو العملية انكشفت احنا رحنا في ستين داهية، ولع يا حسام خد راحتك، عارف إني وترتك قبل ما تعرف الموضوع قال في نفسه: "كلامي واضح؟".

- أنا معاك يا باشا على الموت، وحضرتك عارف كده كويس.

تناول الورقة من فوق المكتب وقال:

- الورقة دي... الإذن ده... دي مذكرة بمراقبة اللوا "أدهم محمد أبو الخير".

- حضرتك تقصد اللوا أدهم مدير مكافحة المخدرات؟

أمسك بالورقة، أحس كأنها تزن رطلًا، ارتجفت لكثرة الأختام التي طُبعت عليها، توقيع مديره وختمه، مدير مباحث القاهرة والجيزة، مساعد وزير الداخلية ومكتب الأمن الخاص، النائب العام، وأسفله سري للغاية.

- بالظبط، هو بعينه.

- طب ليه نراقبه؟ بلع ريقه بصعوبة.

- قبل ما اجاوبك على سؤالك لازم تعرف إني أنا بتحمل كامل المسؤولية قدام ناس كتير مستنية أدلة مهمة، تراقبه على مدار الساعة، وعاوز تقرير مفصل بكل تحركاته بعد كل مراقبة، ولو حسيت إنك هتتكشف انسحب فورًا، متتهورش.. الموضوع لا يحتمل المجازفة، خليك انت الراصد، اتخفى كويس، وسبب المراقبة إنه في معلومات وصلتنا إنه بيتاجر في المخدرات، وانت اللي هتكتشف الامر ده!

حدق إليه في اندهاش وقال:

- اممم... تمام يا سالم بيه.

غادر مكتبه وهو في كامل حيرته وتعجبه وشكه مما سمع، اللواء أدهم يتاجر في المخدرات، حاميها حراميها، لقد تمنى أن يعمل مع اللواء أدهم لسمعته المنتشرة بين الضباط وتفانيه في العمل.

وصل إلى بيته ورأسه مشتعل من فرط التفكير غرق في حيرة لا نهاية لها، تناول زجاجة بيرة، تجرعها كالمدمن، وتناول ثانية وثالثة، لم يكن على دراية بما يفعل، كل ما أراده في تلك اللحظة هو أن تنصرف تلك الأفكار التي ملأته حيرة وانشغل باله، كان القلق والغضب يؤججان صدره، كان يبحث عن أي شيء يساعده في الخروج من هذه الحيرة، أشعل سيجارة واستلقى على ظهره وحدق في السقف، وصرخ بعلو صوته، تلاشت الحدود وانطلق الوحش القابع تحت جلده، حملت الصرخة كل الحيرة والتفكير والهموم التي سكنته، اختفى كل شيء من أمام ناظريه، اختفت الجدران والأسقف وأصبح ينظر إلى السماء دون حجاب، صرخ مرة أخرى حضرت عذبات الحياة وبهجاتها، حضرت الراقصة تتراقص أمامه، تتمايل في دلال وميوعة، نهض يراقصها برشاقة، صرخ.. وبعد لحظات كان البواب يطرق على الباب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في ساعات المساء، كان الطبيب سعد الدين يقف خلف نافذة تطل على النهر مباشرة، يراقب تموجات النيل التي تشتد كلما زادت الرياح، كان مكتبه مؤثثًا على أحدث طراز، معظم الأثاث أحضرته ليلى على ذوقها من إحدى مجلات التصاميم الداخلية، كانت تفتخر بالمكتب وبالطبيب كأنه تحفة موضوعة في بيتها، كان يقابل سيدات خلسة في مكتبة وينتشي بصحبتهن وتدور بهم الدنيا فوق هذا المكتب، لا ينسى ذاك المساء الذي فاجأته ليلى فيه عندما كان بصحبة سيدة جميلة، كانا قد بلغا أعلى حد من السكر والانتشاء، وكيف قلبت على رأسه تلك الليلة غمًا وكيف عنفته وبهدلته أمامها وأمام السائق والبواب. وخوفًا من تكرار تلك الليلة وتجنبًا من أن تمسك به ليلى متلبسًا، قام سرًا بتركيب جرس، ما أن تحضر حتى يطن معلنًا حضورها، وكان البواب هو من يقوم بهذه المهمة، كانت تكلفه كثيرًا تلك الليالي، كان يتعرض لعمليات ابتزاز من قبل البواب، ومن السائق الذي كان ينقل كل تحركاته لها، ولكن في سبيل إشباع رغباته وعيش حياة طبيعية كان ينفق مالًا كثيرًا، لم يستطع الذهاب إلى الفندق، لأن الفنادق مليئة بأعين ليلى. لا يستطيع أن يستأجر شقة خوفًا من أن يبيت خارج قصرها فتزيد عليه الخناق، فكان الأسلم له أن يقيم حفلاته مساءً ويعود إلى قصرها ليلًا.

ضغط على مفتاح أسفل مكتبه، وانتظر..

بعد لحظات دخلت عليه السكرتيرة "وردة" ممشوقة القوام ومتناسقة الجسد، ترتدي حذاءً ذا كعب، تنقر بقدميها كطائر نقار الخشب، ترتدي جوارب بنية شفافة وتنورة سوداء ضيقه تبرز مؤخرتها اللدنة المتراقصة، وقميص من الحرير الأبيض اللامع منحصر عند الخصر النحيل ومفتوح قليلًا عند الصدر، وعندما تنحني يظهر خط صدرها الذي يكشف عن نهدين قائمين مشدودين، وحول عنقها قلادة من الذهب الأبيض تنتهي بوردة متقنة الصنع جذابة، ووجها الأبيض ازداد جمالًا بفعل مكياج خفيف على خديها وكحلة خفيفة زينت بها هدبيها المقوسين، وأحمر شفاه كثيف جعل شفتيها غليظتين، وشعرها ملموم إلى الخلف بمشبك وردي وشعرها المصبوغ باللون الأصفر زاد من بياضها.

ارتدي جاكيت بذلته وعدل من ربطة عنقه وارتدى سترة سوداء تقيه الرياح وتأبطا ونزلا معًا من مكتبه، في الخارج لفحهم الهواء البارد، التصقت به، كانت السيارة تنتظرهما، جلست بجواره.

لم تنتظر وردة الوصول إلى البيت، أخذت تداعبه في المصعد لم يمنعها الطبيب عن تصرفاتها التي راقت له، يحب أن تتحرش به النساء.

أطفأ مصابيح الغرفة..

كانت وردة في نظر الطبيب كالعلامة المسجلة، لها طعم خاص ليست كباقي النساء، لها خلطة جذابة وساحرة تجعلك تقدم عليها دون إبطاء أو تردد، كان يستمتع معها بسبب خبرتها السابقة في هذا المجال، كانت مثقفة جنسيًا تعلم ما يثيرها وما يثير الرجل، تعلم كيف تمتع الرجل، وكيف تصل به إلى حد الغليان، لم يشبع يومًا منها، ولكن لابُد وأن يغادر ليثبت حضوره عند ليلى، تلك السليطة.

انسحب من غرفتها بهدوء وما زال شذا عطرها عالق في أنفه وعلى جسده وبصماتها عالقة بجلده، كان الوقت ما زال مبكرًا لم تتجاوز الساعة التاسعة والنصف، أغلق سحاب سترته خوفًا من أن يلفحه الهواء البارد الذي اشتد في الخارج، كما لو كان ينذر بعاصفة تقترب.

ما أن مد يده ليفتح باب السيارة التي كانت تقف أسفل شجرة عملاقة حتى وجد كيس أسود من القماش يغتصب رأسه، وتلقى ضربة أفقدته وعيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الخارج كان الجو باردًا، تهب نسمات الهواء الباردة التي تتسلل كلص محترف من أسفل البنطالون صعودًا وتتوغل منتشرة داخل جسده، ضم ماهر سترته البنية لتقيه من البرد، مر من أسفل العمائر المرتفعة، لم يلاحظ تساقط قطرات الماء التي تجمعت عند حوافها، سقطت إحدى القطرات الباردة على رقبته كأن أحدهم ألقاها باحتراف، أصابته بقشعريرة نفضت جسده.

وصل إلى باب شقته وفتح الباب ببطء. في الدخل كانت منى جالسة تحتضن سماعة الهاتف بيدها، تتحنح.. رفعت نظرها إليه وابتسمت في وداعة، تحسس بطنها الذي بدأ يتكور ويكبر أمامها، بدل ملابسه وأعد فنجان قهوته، ثم جلس بجوارها واستمع إلى حديثها، ظل يستمع إلى ترديدها.. أه، تمام، وبعدين. وهكذا حتى انتهت من المكالمة، حدثها عما قام به اليوم من مشاوير ونهض ليحضر دفتره الذي دون عليه أفكاره.

- خلينا نتكلم عن اسم الولد؟

- مفيش مانع، عندك اسمع معين؟

- مش عارفه، إيه رأيك في وليد؟

- حلو الاسم، وليد ماهر.

رن هاتف البيت، رفعت سماعة الهاتف وأجابت:

- ازيك يا ماما.

نهض من جوارها يعلم أن المكالمة لن تنتهي قبل منتصف الليل وشد اللحاف فوقه ونام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في صباح اليوم التالي وقبل شروق الشمس، ورغم أن رأسه ثقيل إلا أن حسام استعد وأعد نفسه لمهمة اليوم، وهي مراقبة اللواء أدهم، حلق ذقنه وغسل وجهه، وتناول قطعة من الكيك وزجاجة عصير، كان الجو باردًا.. لا بل قارس البرودة، رفع وشاحه إلى نصف وجهه وأخذ يسير أسفل المباني لتقيه الأمطار التي هطلت بشكلٍ مفاجئ على المدينة، تجمعت الأمطار في منتصف الطريق على شكل برك صغيرة كان يبتعد عنها خوفًا أن تطاله رشقات السيارات التي كانت تمر مسرعة من جواره، استقل سيارة الأجرة التي تركها له "نسيم"، نسيم ذو سوابق ويتغاضى عنه حسام عندما يشي عن أحدهم.

توجه إلى مكان سكن اللواء أدهم، كان الحرس يحرسون المدخل..

نظر في المرآه الكبيرة المعلقة على الزجاج الأمامي في سيارته، مسح بصمات الأصابع التي طبعت على سطحها بطرف منديل وعدلها بحيث تعكس الحركة عند بيت اللواء، كان المكان ساكنًا هادئًا، لم يسمع سوى حفيف الأشجار وصفير الرياح وهو يتسلل عبر الزجاج من حينٍ إلى آخر، أخذ يحدق ويراقب في حذر، أشعل سيجارته وفتح نافذة الباب بجهد وعناء، نظر إلى ساعته التي اقتربت من الثامنة والنصف أخرج دفتره ودون ساعة وصوله.

ما زال اللواء في بيته ولم يخرج، حول بيته كان السور مرتفع والأشجار غطت واجهة المنزل الأبيض، ومن خلف النوافذ الزجاجية ظهرت ستائر شفافة، وشرفة احتلت وسط واجهة البيت نصف دائرية بها عمودان مستديران كساهما الرخام وسقف قرميدي يغطي الشرفة، كانت هناك بعض الزهور التي غُرست في أحواض زرع توزعت على أطراف الشرفة وتدلت سيقان بعضها لتغطي جزء بسيط من الحديد الذي أحاط بسور الشرفة، بعد لحظات خرج أحد الحرس وبدأ يتفقد المكان، توقفت أمام الباب سيارة مرسيدس سوداء حديثة، تعود ملكيتها إلى اللواء، وخوفًا من تكرار عملية إطلاق النار التي حدثت قبل أشهر على اللواء كان الحراس يراقبون المكان بكل همة ونشاط وتركيز وانتباه وأعينهم مفتوحة على آخرها، بعد لحظات خرج حارسان يحملان رشاشات آلية من نوع كلاشنكوف، خلفهما خرج اللواء أدهم ذو السادسة والستين عامًا، خمري البشرة، حليق جانبي الرأس والوجه، عريض الجبهة وعيناه سوداوان صغيرتين تنمان عن دهاءٍ ومكر، كان يرتدي بالطو أسود طويل يصل إلى الركبة، توجه إلى سيارته مسرعًا تجنبًا لزخات المطر، أدار حسام محرك سيارته وخرج خلفهم يتبعهم.

بسبب التوتر المتزايد والبرودة، أحس حسام بأن البول بدأ يتجمع في مثانته، خطف بصره بين الكراسي الخلفية بحثًا عن زجاجة بلاستيكية، لم يجد، لام نفسه، كيف لم يجهز نفسه لهذه اللحظة، أكثر ما يبغضه حسام هو شعوره بتجمع البول في مثانته.

ظل يتعقبهم ويحاول ترك مسافة بينه وبينهم حتى لا يلفت الانتباه..

ازدحام.. أبواق السيارات تنطلق هنا وهناك، وأصوات محركات تعلو وتهبط، وصوت رجل يصرخ بسبب تراشق ثيابه بماء متسخ تجمع فوق الطريق، وآخر يطرق على زجاج السيارة يبتغي بيع كيس

مناديل، توقفت سيارة اللواء بسبب إشارة المرور، تقدم نحوها ثلاثة صبية يطرقون على الزجاج بقوة، يريدون ما تيسر من الراكب، انطلقت السيارة مسرعة مخترقة الشارع الرئيسي بسرعة، لابُد وأن اللواء أثارته تلك الضجة التي افتعلها الصبية، كانت سيارة المرسيدس سريعة مقارنة بسيارة الأجرة العتيقة التي لم تستطع ملاحقة سيارة اللواء، حاول جاهدًا أن يلحق بهم، داس على دواسة البنزين بكل قوته، شعر بأن موتور السيارة سينفجر، من بعيد لمح سيارة اللواء تنعطف يمينًا في شارع فرعي، تبعها حتى وجد نفسه يقود على الطريق العام من جديد، نجح سائق اللواء في تفادي الزحام، كانت السيارة تسير بسرعة متوسطة، لم يهتم لسرعة السيارة، فهو يعلم إلى أين تقوده تلك الطريق.

بعد دقائق توقف أمام إدارة مكافحة المخدرات، مبنى ضخم ذو سبع طوابق مستطيل الشكل طوله كمثل طول ملعب كرة القدم، بني اللون نوافذه داكنة وزُرعت حوله الأشجار الكثيفة العالية، ويحيط المبنى سور يبلغ ارتفاعه المترين تقريبًا.

حل الظلام وما زال حسام يقف أمام المبنى الذي اختفى داخله اللواء، قرقرت معدته، تناول قطعة من الكيك وزجاجة عصير، همه الوحيد إنجاز عمله على أكمل وجه لا يريد أن يفشل، كان يتنقل من محطة راديو إلى أخرى حتى لا يصاب بالملل، وكلما شعر بالنعاس فتح نافذة السيارة ليلفحه الهواء البارد وليجدد الهواء الساخن الذي تجمع داخل السيارة بسبب أنفاسه، سرعان ما أغلق النافذة التي بدأ يتسلل منها الهواء البارد الذي ضرب نصف وجهه الأيسر، تردد في إشعال سيجارته خوفًا من أن يُكشف أمره، وبدلًا من ذلك خرج وتوقف أسفل العمود المضاء وأشعل سيجارته لتشاركه وحدته، مر من أمامه طيف الأنثى، طيف الراقصة، وهي جالسة في تلك الغرفة بعيدة عنه، إلا إنها حاضرة أمامه بجمال عينيها وعذوبة صوتها وبشعرها المتموج ذي الخصلات الذهبية، ما أن انتهى من سيجارته حتى رفع الوشاح، اشتم تلك الرائحة التي تستنهض به من بين الركام والحطام، تلك الرائحة التي تطوف به في أركان المعمورة، رائحة تخلق زوابع داخل غرفة النوم.

لف وشاحه حول رقبته ورفعه إلى منتصف وجهه وصعد إلى سيارة الأجرة، وظل يحدق في الضوء الذي شق الظلام، فتح نافذة السيارة وبدأ ينصت إلى الحركة خارجًا لم يسمع شيئًا سوى قطرات الماء التي تتساقط في هدوء، ظل يحدق في مرآته لعله يفهم ما يحدث هناك، خرج اللواء واستقل سيارته، أخذت السيارة تتقدم في الشارع الخالي، انزلق قليلًا في مقعده ووضع يده على المفتاح مستعدًا للانطلاق، ما أن ابتعدت عنه حتى انطلق خلفها دون أن يشعل مصابيح السيارة.

أخذ يسير بين السيارات ويقترب رويدًا رويدًا حتى أصبح يرى اللواء بعينيه يجلس في الكرسي الخلفي وبجواره شخص لم يتعرف عليه، انعطفت السيارة إلى طريق فرعي فتبعها، سقطت سيارته في عدة مطبات كانت مليئة بالماء، تمتم بشتائم فظيعة.

شرعت سرعة السيارة في الانخفاض حتى توقفت، بعد لحظات خرج منها الرجل الذي لم يتعرف عليه. أكمل طريقه خلف السيارة ونظر إلى المرآة لعله يلمح طيف هذا الرجل ولكن دون جدوى كانت الأمطار تنهمر بغزارة، بعد لحظات خفت سرعة السيارة، انعطفت يمينًا وبعد عدة أمتار خرجت إلى شارع رئيسي، توقفت أمام إشارة حمراء، أشعل حسام سيجارة، انطلق من جديد يتبع المرسيدس

وانعطف خلفها يسارًا وظل يسير حتى توقفت السيارة، بعد برهة ظهر رجل ويحمل في يده مظلة، قطع الطريق في حذر متجنبًا برك الماء، توقف بجوار الباب وطرق بلطف على النافذة، وبعد لحظات فتح الباب، خرج اللواء يحتمي من المطر أسفل المظلة، ظل يسير حتى غاب داخل كازينو القمر.

أطفأ محرك سيارته وبدا منزعجًا مما شاهد، ظل ينتظر خلف عجلة القيادة وأصابعه تربت بقوة عليها، أشعل سيجارة أخرى، خرج من سيارته بعد تردد وخوف لم يعهده من قبل.

عدل من وشاحه حول رقبته وتوقف قليلًا أمام الكازينو، أصابته الحيرة بين الدخول أو الابتعاد، راودته عدة أفكار، أفكار لم تعلم لعقله طريقًا، تخيل أنه وقع في فخ من قبل اللواء وهناك قوه تتربص به، وخُيل له أن هناك أحدًا ما الآن يهمس في أذن اللواء بأن أحد رجال المباحث في الأسفل، لسعته السيجارة، ألقى بها بعيدًا، وطرد الأفكار التي احتلت عقله للحظات، وعدل من ثيابه وتقدم بثقة نحو الباب.

رحب به الحراس، لم تلمح عيناه أحد سوى النادل الذي يقف على جانبي الممر ويرحب بالقادمين، كان ترحيبه مزيف وابتسامته كاذبة.

اختلط حسام بالباحثين عن سعادة مؤقتة في قعر أي كأس خمر، اخفى نصف وجهه خلف الوشاح وتقدم بحذر ووصل إلى الداخل، بعيني صقر فحص المكان بسرعة، يبحث بين السكارى عن اللواء، لمح طيفه من بعيد، كان يسير خلفه كبير النُدل، ابتسم بحماس وبخبث تمتم: "انت المطلوب أيها النادل الندل".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد منتصف الليل، في مكانٍ ما أشبه بمخزن، رفع الطبيب رأسه الثقيل إثر الضربة المفاجئة التي أفقدته وعيه، فتح عينيه ورأى أمامه نجوم زرقاء تجمعت أمام ناظريه أخذت في التلاشي رويدًا رويدًا، كان الصداع يصرخ في رأسه من شدته، حاول أن يرفع يديه ليتحسس مكان الضربة ولكنها كانت مكبلة خلفه، حاول جاهدًا سحب يده ولكن دون فائدة، كانت محكمة الربط، أخذ يتحرك بعنف ويهتز، حاول النهوض ولكنه كان مقيدًا بإحكام، استسلم للحبال المعقودة وتوقف عن الحركة بعد محاولات فاشلة أجهدته، لم تكن هناك أي فائدة، كان يسمع فقط صوت أنفاسه القوية السريعة وقلبه الذي كاد أن ينفجر غضبًا ورعبًا وضيقًا، أحس ببرودة المكان تجتاح جسده الهزيل المقيد، قدمه عارية باردة كالثلج ويابسة، لم يشعر بها، كان البرد قارسًا، تساقط المطر منتجًا ذاك الصوت المزعج عندما يرتطم بالألواح المعدنية التي كانت تغطي السقف.

صرخ عاليًا كل ما سمعه كان صدى صوته..

سكت وشعر بقوة الصمت من حوله، كما لو كان في كهف، لم يعد يسمع شيئًا حتى أنفاسه كأنها توقفت، شعر بالعدم وسط قطرات الماء التي تساقطت عليه وأنفاسه السريعة، أحس وسط الظلام كأنه داخل كتلة هلامية تبتلعه رويدًا رويدًا، حرك رأسه بقوة حتى تبددت أوهامه التي بدأت تسكنه، كاد أن يتجمد من شدة البرد، أخذ يحرك أصابع يده وأصابع قدمه التي أصابها الخدل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت منى في المستشفى عندما ذهب ليطمئن عليها ماهر، فقد تعرضت لانقباضات شديدة، طمأنه الطبيب وأخبره أنها بسبب الإرهاق والإجهاد الجسدي، وطلب منها أن ترتاح، كانت منى ممددة مكان مهجة على السرير ومهجة تجلس على الكرسي، كانت منى مرهقة وتئن من وقتٍ لآخر، وما أن دخل ماهر حتى امتنعت عن الأنين كأن شيئًا لم يكن، حاول إقناعها بالذهاب معه إلى البيت ولكنها أصرت بالبقاء بجوار مهجة فهي في كامل نشاطها وطاقتها، ولتثبت له ذلك نهضت من فوق السرير ووقفت بجواره في صعوبة، كان يرى إرهاقًا شديدًا في عينيها، حاولت تغير الموضوع قائلة:

- مفيش عندك شغل... أنين كتمته في داخلها... في أي جديد بخصوص التحقيق؟

- أبدًا، كله عادي.. أخرج من جيب سترته ثلاث ورقات رُسمت عليها ملامح السيدات اللواتي زرن فريدة ليلة مقتلها، ناولها الرسومات في لا مبالاة واضحة قائلًا: مش عارف هلاقيهم فين، مش عارف هدور عليهم ازاي؟

- وزعهم في الأقسام، يمكن حد شافهم؟

- وزعت الصور امبارح.

- أنا همشي.

- والصور؟

- خليهم معاكِ.

كان يقود سيارته كالسكران التائه، لا يدري أي طريق يسلك، حصر كل تركيزه في كيفية العثور على أولئك السيدات، خطرت في باله فكرة.. ربما ينجح لو قام بنشر صورهن في الجريدة ويقدم مكافأة مالية لمن يبلغ عنهن، ولكنه ضرب على عجلة القيادة عندما تذكر مديره الذي سيرفض الفكرة حتمًا، متعللًا بنقص الموارد وبأنه سيكلف الداخلية فوق طاقتها بتشكيل طاقم للرد على المكالمات وعلى الرسائل التي سيتلقاها الطاقم علاوة على تخصيص مساحة في الجريدة ستُكلف الداخلية الكثير، التفت إلى المقعد بجواره وجد نسخًا كثيرة: "أوديها فين؟! أقف على باب جامع واوزعها واكتب عليهم مطلوبين للعدالة". ابتسم في سخرية..

توقف أمام إشارة مرور وأخذ يحدق إلى المارة من النساء يتفحص ملامحهن، ولكن الغريب أن أغلبهن كانوا من أصحاب البشرة البيضاء، انطلق مسرعًا إلى مكتب حسام يستشيره لعله يجد لديه طريقة تفيده في العثور على السيدات، رغم أن الطريق كان مزدحمًا إلا إنه لم يشعر به بسبب شروده المستمر، فكر في القضايا من بدايتها حتى ما وصل إليه، لم يجد ثغرة يمكن أن يستغلها لتقوده إلى خيطٍ جديد، كل الخيوط التي أمسك بها قُطعت، لم تكن خيوطًا قوية ولكنها يمكن أن تقوده إلى خيوط أقوى، قرر مباشرة التحقق بنفسه حال وصوله إلى أي خيطٍ جديد، لم يعد يثق في أي شخص من حوله.

فكر في الذهاب إلى العنوان المدون على الورقة التي يحملها داخل جيب سترته ولكنه تردد.. فوجد نفسه قريبًا من مكتب حسام فعرج عليه، وصل مكتب حسام الذي فاحت منه رائحة القهوة، أغمض

عينيه وسحب نفسًا عميقًا أيقظ حواسه، لم يهتم له حسام الذي ظهرت عليه علامات الانفعال والشرود، كأنه ينتظر نتيجة اليانصيب، كان كأسد رابض خلف مكتبه، سيجارته في يده تحترق دون أن يمج منها أي نفس، لم يقاطعه ماهر، جلس في هدوء وتناول فنجان قهوة وأشعل سيجارة واتكأ.

أنهي ماهر نصف سيجارته وأطفأها، حدق إليه حسام في تردد، نهض في تثاقل وجلس بجواره، تنهد ونظر إليه مرة أخرى، نهض وأخذ يوزع خطواته في أرجاء الغرفة في التباس وغموض، تنحنح ماهر بصوتٍ مسموع وطلب منه الجلوس بجواره، جلس كالطفل وسأله:

- مالك يا حسام، ليه التوتر ده؟ ارحم نفسك.

- مفيش يا ماهر، بس مستني مكالمة ضرورية.

- من مين؟ من واحدة ست ولا ستات؟

- مش وقت هزار، اسمعني كويس يا ماهر، أنا امبارح... كلفني سالم بيه بمراقبة... مراقبة اللوا أدهم، اسمعني للآخر، الموضوع ده محدش يعرف عنه أي حاجة، نهائي!

- بس انت عارف انت بتتكلم عن مين؟ اللوا أدهم مش أي حد، بغض النظر عن إنه والد منى بس ده موضوع تاني.

- أنا كنت زيك كده بالظبط، مش مصدق، بس امبارح دخل كازينو القمر بتاع فاروق وحسين... فاكره؟

- وفين المشكلة؟ كل الناس بتدخل كازينوهات، وانت ليه مش بتراقب السيد اللوا؟

- في حد بيراقبه، متقلقش.

- انت عبيط يا ابني، انت عارف لو انكشفت إيه اللي هيحصل، هتروح في ستين داهية، ومين اللي بيراقبه؟ سمير؟

- لا، سمير بعته يجيب عنوان كبير خدم الكازينو، أكيد عنده معلومات مهمه.

رن هاتف المكتب..

- سمعك يا نسيم، تمام، خليك هناك مسافة السكة.

تناول سترته وهم بالخروج وطلب من ماهر مرافقته، ولكنه رفض وتحجج بأن لديه بعض الأعمال التي يجب أن يقوم بها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

16

في صباح اليوم التالي كان يحيى يطرق بقوة، كانت طرقاته لا تقل قوة عن صوت مدفع رمضان، كلما تذكر تلك الواقعة اشتد طرقه، كان يشعر بالأسى والحزن الشديد على نفسه، خسر ثقة صالح وحب سوزان، لا يعلم كيف يصلح ما أفسده؟ لم يعد صالح يتحدث إليه، ولم يعد يقبل على الطعام بشهية، ما هي إلا ساعات أو أيام ويغادر الورشة، فقط ينتظر قدوم عامل جديد ليحل مكانه، سيغادر الحي دون رجعة، ولكن إلى أين لا يعلم؟ لم تكن هناك بدائل تنجده من تصرفاته الخرقاء.

انقبض قلبه عندما وجد صالح يدنو من الورشة، أدار وجهه لم يجرؤ على النظر في عينيه حتى أنه لم ينظر إلى جسده أو إلى ظله، تناول صالح كرسي وجلس بالقرب من الورشة تحت أشعة الشمس، بعد الحادثة شاب ما تبقى من شعره، وجهه جف كبحيرة وسط صحراء، زادت غضون وجهه التي تحكي مرار ما ذاقه في الآونة الأخيرة من ويلات، ويده اليسرى أصبحت ترتعش بقوة لم يستطع إمساك المطرقة، كان يخفى رعشته أسفل سترته كلما اشتدت عليه.

بين الفينة والأخرى كانت تسري داخل جسده رعشة كهربائية تنفضه جراء أشعة الشمس، كان يهز ظهره كلما شعر بتلك الرعشة كالأسد العجوز، ارتسمت على وجهه ابتسامة كمن تذكر شيئًا، ورفع نظره إلى البيت المقابل لبيته الذي سكنته إحدى الفتيات التي كانت مغرمة به، كانت تغازله وترسل له المراسيل دون خوف أو تردد.

كانت تتصنع زيارة والدته حتى تقابله في بيته، ولكنه كان يقابلها بجفاء وسوء تصرف، لم يحبها ولم يرد على مراسيلها يومًا، كانت تقابله في سرور وتبدأ في الحديث إليه بشغف، كان يتركها وينصرف من أمامها، لم يهتم بها يومًا على عكسها التي أحبته وعشقته.

تذكرها وتذكر شقاوتها ونظراتها المملوءة بالعشق، وتذكر قسوتها أيضًا عندما كانت تصرخ في وجه أمها عندما كانت تحاول منعها من الوقوف على النافذة، تساءل "فين أيامها يا زمن؟".

أخبرته أنها سوف تتزوج أي شخص يتقدم إليها حتى لو كان في عمر جدها، ابتسم عندما تذكر كلماتها التي ودعته بها عندما خرجت من الحي إلى بيت زوجها وقالت: "يا خسارة الحمام اللي كنت بسرقه عشانك، إنت خسارة فيك الريش"، تمتم بكلماتٍ غير مفهومة وأسند رأسه إلى عكازه، وظل هكذا لدقائق قبل أن ينتفض ويرفع رأسه على صوت طرقات يحيى المزعجة التي لم يعد يتحملها، تركه يطرق.

لقد أصبح يكره المكان الذي يتواجد به يحيى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استيقظ الطبيب على دلو ماء يرتطم بوجهه، برودة الماء كادت أن توقف قلبه، تسارعت أنفاسه، أخذ صدره ينقبض وينتفخ بسرعة، وعيناه تحدقان على اتساعهما إلى الأرضية الصلبة، رفع نظره قليلًا ليجد عملاق يقف أمامه، نسي البرودة التي تملكته وكذلك الصداع الفظيع الذي استيقظ في عقله باستيقاظه، ازداد فزعه عندما رأى وجهه المشوه، كان كالمسخ حاجبه الأيمن لم ينبت فيه الشعر

بسبب التشوه، جفنا عينيه كادا أن يغلقا عينيه، وأنفه كبير به اعوجاج كأنه مكسور، تناثرت على جبهته بعض الحروق، وحرق امتد إلى مقدمة رأسه الذي زاد من عرض جبهته، من الصعب أن تقرأ تعابير وجهه المرعبة.

استدار العملاق بصعوبة وجر قدمه اليمنى التي كان يعرج عليها، وانصرف خارجًا وأغلق باب من الصفيح مليء بالثقوب تسلل منه نور الصباح، بدأ يتفقد المكان من حوله وهو يرتعش وأسنانه تصطك من شدة البرد، تحولت شفاه إلى اللون الأزرق الغامق.

وجد نفسه في منتصف المكان غارقًا وسط قطرات الماء التي تساقطت عليه من خلال الثقوب المتناثرة على ألواح الصفائح المعدنية التي غطت السقف، قطع الخردة، ومرايا سيارات، وبطاريات مختلف أشكالها وأحجامها، وثلاث أسطوانات من الغاز التي بدأ يأكلها الصدأ، وألواح خشبية وأسلاك كهربائية سميكة اجتمعت في دوائر وتدلت من السقف وعلقت كمشانق، وفوقه عُلق مصباح محروق.

هز رأسه تناثرت قطرات الماء عن رأسه وتساقطت على البرك الصغيرة المتجمعة أسفل قدميه.

ظل يراقب الباب في خوفٍ وحذر، لم يعد العملاق قبيح المنظر الأعرج، ظل يرتعش وسط أنفاس سريعة وضربات قلب قوية وتوتر وحيرة من أمره عما أصابه.

عملت أشعة الشمس المتسللة من الثقوب على بث القليل من روح الطمأنينة، ولحظتها مر في مخيلته طيف ذكرى، ذكرى خففت عنه وطأة التعاسة والكرب اللذان سكنا جسده، ذكرى رسمت على ثغره ابتسامة وغمغم: "وردة"، من الثقل طأطأ رأسه الذي لم يعد يملك طاقة لحمله، انعكست صورته في بركة ماء تجمعت أسفل قدميه، لم يكن وجهه بتلك الحالة التي تخيلها، كان مستعدًا لمقابلة وردة مع القليل من الاهتمام والراحة، بعد دقائق اختفت أشعة الشمس وعاد المكان إلى ما كان عليه، وساد اللون الرمادي الكئيب.

سمع شجارًا في الخارج وأصوات مرتفعة متقطعة، وبعد لحظات من السكون سمع صوت ارتطام بالألواح معدنية، وفجأة دخل عليه رجل أشبه بمحترفي كرة السلة الأمريكية أبيض البشرة وبه بعض الحفر الغائرة في وجهه.

توقف أمامه الرجل الذي ارتطم رأسه بالمصباح المعلق، لاحظ الطبيب علامات الحزن والضيق على وجهه، نظر إلى الطبيب بعينيه الحمراوين الناعستين القاتمتين، لم يفهم الطبيب ما حاول أن يقوله بعينيه وهو يحدق إليه ولكن تملكه شعور غريب تجاه هذا الرجل الذي أيقن أنه هو الذي رآه في تلك الليلة الماطرة.

اقترب من أذن الطبيب وهمس:

- سامحني يا دكتور، سامحني.

- سيبني اروح ابوس ايدك...

غرس السكين في قلبه، سمع شهيق الطبيب الذي تردد صداه في أذنيه، أخذت عيناه تراقبان يد الطبيب المعقودة بقوة وهي ترتعش وتتشنج، سحب السكينة وغرسها مرة أخرى فصدرت منه شهقة أقل حدة

من التي سبقتها، فتح الطبيب عينيه على آخرهما، نظر إلى السكين وهي تخترق جسده سالت دمعة حزن عميقة، لم يكن مصدقًا أن روحه تنسحب من جسده، صدر منه أنين شديد وصراخٌ مكتوم كأنه يخضع لعملية دون مخدر، سحب العملاق السكين، رفع الطبيب رأسه وشهق بقوة كأن روحه عادت إليه من جديد، واهتز جسده بقوة عندما غرس السكين مرة أخرى، شعر الطبيب بحد السكين يصطدم بعظامه. سالت دمعة أخيرة من عينيه، وخفق قلبه للمرة الأخيرة، ظل يتابع العملاق يد الطبيب وهي ترتخي وأصابع يده التي انفرجت بعد انقباضة وتشنجات قوية، سقطت دمعة من عيني العملاق في بركة الماء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فتح ماهر باب مكتبه وتوقع أن يجد إسماعيل في الداخل لم يندهش فنادرًا ما كان يحضر مبكرًا، وجد على مكتبه ورقة خُطت بيد إسماعيل، كُتب عليها.. جريمة قتل، قرأ العنوان غير مصدق، غادر مكتبه مسرعًا، أخرج من جيب سترته الورقة التي أعطاها إياه إسماعيل، كانت تحمل نفس العنوان، عنوان الرجل الذي هاتف إسماعيل، ندم أشد الندم على عدم تلبية دعوته.

وجد الطبيب جالس على المقعد مقيد اليدين والقدمين، أسفل الكرسي تجمعت بقعة من الدماء المتخثر تحت قدميه، وقطرات ماء ما زالت تقطر من ملابسه، حافي القدمين، تجمعت الرمال على سرواله من الخارج، كما أنه لاحظ وجود آثار لخدوش على البنطالون متجمعة عند الركبتين، قرفص ليتفقد وجه الضحية، كان وجهه يابسًا ومائل إلى الزرقة وأسفل عينيه سواد، ورائحة الكحول تفوح منه، نهض وأخذ يتفقد الأرضية ولكنه لم يجد أي شيء يمكن أن يترك خدوش على البنطالون.

- انتِ اللي بلغتي عن الجريمة؟ سألها ماهر.

أومأت برأسها.

كانت تجلس على حافة المقعد، توقف أمامها فنهضت بتأنٍ وتردد واضح على وجهها الذي انسحبت منه الدماء، نزع القفاز وصافحها.

عرفته على نفسها وأخبرته أنها السكرتيرة المسؤولة عن تنظيم المواعيد، سألها بعض الأسئلة عن طبيعة عمل الطبيب، وبعد انتهائه من الأسئلة الروتينية سألها هل للدكتور أعداء؟

- أجابته: هقول لك كل اللي أنا اعرفه.

هز برأسه وأشعل سيجارة وأخذ يداعب شاربه، بينما أخذت هي تتحدث في توتر وارتباك:

- الدكتور كان بيقضي معظم وقته في العيادة، على مدار شغلي معه ملاحظتش أي حاجة غامضة ممكن تخليني أشك إنه ليه أعداء، كانت كل حاجة تمام وتحت سيطرته مفيش أي مشاكل ممكن يكون لها قيمة كبيرة في حياته أو ممكن تخلي حد يقتله.

التفت خلفه إلى إسماعيل، كان يحدق إليها بتركيز، غمزه بابتسامة صفراء ماكرة، طلب منه أن يأخذ أقوالها كاملة.

وقف أمام المبنى يحاول أن يجيب عن أسئلة في رأسه لا حصر لها: "أولها، الدكتور كان عاوز منه إيه؟ ممكن كان عاوز يبلغ عن تهديد معين؟ الدكتور اتقتل خارج المبنى، تلات طعنات، طعنة في القلب وطعنتين تحته، ليه موته برة العيادة ونقلوا ليها تاني؟ ليه يا ماهر؟ معقول أكون ضيعت خيط تاني؟"، تقدم نحو سيارته وقبل أن يفتح الباب وجد جمع من الصحافة يقف حول سيدة كانت تمسح دمعها وتشهق بصوتٍ مرتفع، لم يهتم وتمتم قائلًا: "واحدة عيانة، أكيد كانت عاوزه تخسر وزنها عنده أو يمكن كانت عاوزه تنفخ".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

17

قبل الفجر بقليل وبعد ليلة طويلة قضاها كابوس يتنقل بين جذوع الشجر كعادته بعد كل جريمة يرتكبها، كأنه يحاول أن يشكي همه لجذوع الأشجار التي تشبهه في الضخامة، كان يتحدث إليها كمن يتحدث إلى صديق ميت، كان يفضفض لها ما يجول في خاطره يتحدث إليها بلا قيود أو شروط، يُخرج كل ما في صدره من آلام وأحقاد وضغوطات إلى تلك الجذوع التي لم تنطق يومًا ولن تنطق أبدًا، يعلم أنها لن ترد عليه ولكنه لم يجد سبيلًا آخر ليريح نفسه وباله من تلك الأفعال البشعة سوى الحديث إلى الجذوع، لم يكن يثق بأحد ليتحدث إليه، وإن وجد لن يتحدث خوفًا من فضح أمره، يعلم سبب قتل إبراهيم، ولا يريد أن تكون نهايته على يدِ شخص مثل فاروق، على الأقل يريدها نهاية مشرفة تليق به وبمكانته، لم يقبل يومًا تصرفاته التي أُجبر عليها، جزء من ضميره ما زال حي، كان يعتقد أن قلبه سيتحجر بعد كل جريمة، لم يصل إلى مرحلة الاستمتاع بالقتل، لم يجد لذة في زهق الأرواح، كانت الأجساد لديها قدسية خاصة في أفكاره، لا يحب رؤية الدماء، فكانت تثير أعصابه وتسبب له توتر شديد، لذلك كان يخنق ضحاياه، وأما طعنه للطبيب فقد كان مجرد مساعدة لأخيه التوأم الذي قبل على عاتقه تنفيذ المهمة ولم يقدر، وتفاديًا لعقابه من قبل المتنفذين وليثبت لهم أن أخاه يستطيع المشاركة في القتل لو لم يكن كابوس حاضر، كان يشعر بأن طوله ينقص بعد كل جريمة، شعره يزداد فيه الشيب، يشعر بقوته تتقلص وأن العجز والندم يتملكانه ويضعفانه.

جلس على جذع شجرة، فكر في النهوض وقال::وإيه ذنبه يحمل جسمي اللي كله ذنوب"، طرق على جذع الشجرة بقبضته القوية ولما لم يصدر منها أي اعتراض ظل جالسًا وأيقن أنها موافقة على جلوسه، ظل جالسًا لبرهة من الوقت قضاها في الاستماع إلى قطرات الماء التي تسقط من فوق أغصان الأشجار، كان صوتٌ محببًا إليه، مد يده الكبيرة ليتلقف قطرات، بعد لحظة تجمعت بحيرة صغيرة في راحة يده، شربها وأحس بمذاقها العذب، خرج من بين تلك الأشجار التي أخفت جسده عن شروق يوم جديد ينفذ فيه أوامر جديدة، أخذ يغوص في برك الوحل والطين بحذائه الأسود الطويل الكبير المضَاد للماء غير عابئ بعمقها، كان يشعر بقوته ما أن يدوس ويفلق برك الماء إلى نصفين، وينظر خلفه في سعادة غامرة لأثر الحذاء الطويل الغائر الذي تركه خلفه، وصل إلى شارعٍ فرعي لا يمر فيه أحد، على جانب الطريق امتدت قناة ماء صغيرة نبتت بجوارها أشجار مرتفعة تصَافح الهواء البارد في استسلام، وعلى مد البصر نبتت سنابل القمح تتراقص بفعل تيارات الهواء.

كان يملك جسدًا كأجساد المصارعين، وجلد يابس، اعتاد حتى وجد لذة في السير أسفل الأمطار منذ طفولته البائسة ذات الفقر المدقع، كان يعمل مع والده في فلاحة الأرض، لم تعرف الرحمة سبيلًا لقلب والده، كان قويًا وكان كابوس طفلًا ضعيفًا مهملًا من كثرة الإهانات والضربات التي تعرض لها في صغره، وُلد لديه انطباع بالجبن، اعتاد الذل والاحتقار من الغير، لم يكن يستطع الدفاع عن نفسه.

كانوا يضربون أخاه التوأم أمام عينيه ولم يستطع الدفاع عنه، كان يسمع تنهيداته ونحيبه طوال الليل، وفي يوم من الأيام وجده أبو الليل يقف بعيدًا ويصرخ ويبكي على أخيه الذي يُضرب ويُهان أمامه، أمسكه أبو الليل من يده وسحبه نحو الصبية الذين انهالوا على أخيه بالضرب، وأمسكهم واحدًا تلو الآخر وطلب منه أن يضربهم أينما أراد، كانت ضرباته ضعيفة، صرخ به أبو الليل وطلب منه أن

يضرب بقوة، ضربهم واحدًا تلو الآخر حتى سالت الدماء من وجوههم، من وقتٍ لآخر أخذ يتردد على بيت أبو الليل حتى هجر أهله ووجد ما كان يبحث عنه في ظل أبو الليل.

توقف أمام بيته الذي لم يكن ملكًا له، كان ملكًا لصاحب الأرض التي استأجرها منه، كان بيت من الألواح المعدنية التي انتشر فيها الصدأ كالسرطان، كانت واجهة المنزل من الطوب مع الجزء الأيمن وباقي المبنى من الألواح المعدنية، وسقفه أيضًا من الألواح المليء بالثقوب، نجح كابوس في سد معظمها ولكن الأمطار كانت كفيلة بأن تظهر ما تبقى من ثقوب لم ينتبه إليها، أضاف على المنزل بعض الإصلاحات الداخلية حتى يستطيع العيش فيه وأن يقي عائلته من برودة الشتاء، كان بجواره كوخ، متداعٍ من الأحجار وسقفه من الخشب، كان الخشب متزعزع ونخرته السوسة، كانت رائحته عطنة رطبةً، كان التراب يغطي مقدمة الباب ويغطي الأرضية الأسمنتية، وفي المنتصف غُرست ساق نخلة تحمل السقف الخشبي، خصصها لأخيه التوأم، كان يخشى أن يعود ذات يوم ويجد سقف البيت وقد طار من شدة الريح، ولكن زوجته كلما أحست بوجود حركة لأي لوح معدني كانت تأتي بكيس من القماش أو أي من الثياب البالية وتعقد أطرافها وتملأها بالرمال وتضعها فوق اللوح المهتز، كان يملك قفصًا من الحمام، يحب الحمام ولا يحب أكله، توجه نحو القفص وفتح بابه ليطيروا وليعانقوا السماء بحرية تمناها منذ زمنٍ بعيد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في صباح اليوم توجه حسام لإكمال مراقبته التي ولاها مؤقتًا لسمير، كان سمير بمثابة جندي مستعد لتقديم روحه على طبق لحسام، كان حسام يتغاضى عن كثير من تصرفاته ويعلم أن جيوبه لا تخلي من المخدرات، ولكن لكل شيء ثمن، كان سمير قصير القامة قمحي البشرة يرتدي ملابس عادية، وسترة سوداء مليئة بالجيوب، ويعتمر طاقية من الصوف تخفي صلعته وتقيه من البرد، كان يقف بجوار كشك سجائر تعرف على صاحبه وشاركه سمير سيجارة ملغومة ساعدته على التركيز، ما إن لمح حسام يتقدم تجاهه حتى غادر الكشك مبتعدًا ومودعًا صاحبه الذي أنس برفقته، توقف بجوار سيارة الأجرة التي تركها في نهاية الشارع مركونة أسفل شجرة كبيرة.

- هو فين؟ سأل حسام سمير.

- في العمارة يا باشا اللي هناك، شايف البواب اللي هناك ده؟ التفت خلفه.

- خلاص روح انت، وخف من الهباب اللي بتشربه مش كل مرة هتسلم الجرة.

كان البواب يجلس على مقعدٍ خشبي وظهره للشارع.

أخذ حسام يسير على الرصيف المقابل للعمارة، مخفيًا نصف وجهه خلف وشاحه الأسود وألقى نظرة خاطفة على المدخل، لم يجد أثرًا لأحد، ظل يسير ويلتفت خلفه بين الفينة والأخرى حتى وصل بائع السجائر، ابتاع علبة وعاد إلى سيارته في خفة ونشاط، وصل إلى نهاية الطريق المكدس بالأشجار العملاقة، كان هناك شارع فرعي يقود إلى شارع رئيسي، كانت سيارة الأجرة بالقرب من تقاطع الشارعين، جلس خلف مقودها وعدل من المرآة التي كشفت مدخل العمارة، غمغم: "لما نشوف نهاية اليوم ده هتودينا على فين".

مر الوقت ثقيلًا، في الخارج كانت الأمطار تهطل بغزارة، والرياح تسكن لبرهة من الوقت وتعاود من جديد تضرب بكل قوة، يتنهد الصعداء ما أن يتوقف المطر ليرى ما يحدث خلفه بوضوح، فكر في أن يعدل سيارته بحيث تصبح مقابلة للعمارة ولكن الطريق ذو اتجاه واحد وهذا سيعيقه من تتبع سيارة اللواء، وبعد مرور نصف ساعة أو يزيد كانت الأمطار تشتد كأنها كانت في استراحة، قضى وقته محاولًا تخيل ماذا يفعل اللواء في تلك العمارة، مضى على تواجده ساعات ولم يخرج ولم يدخل أحد، حتى أن البواب كان ملازمًا لمكانه، ولم يلاحظ أي حركة سوى السيارات التي كانت تمر من جواره بين الفينة والأخرى، قال في سره: "معقول يكون اللواء متجوز يا واد يا حسام؟ مش معقول اللي عنده بسم الله ما شاء الله فرس يعني فرس، طيب هيكون بيعمل إيه؟ مش يمكن يكون بيخطط لعملية كبيرة وده مقر سري ليهم؟ يا نهار اسود لو طلعت المراقبة على فاشوش، تعبنا هيروح في شربة ميه، يا عيني لو انكشفت، هندفن أنا وسالم بيه... ساعتها لا فيه بيه ولا زفت، بس لو اتمسكت لا سمح الله، هقولهم إني براقبه من نفسي وهشيل الليلة لوحدي، أه.. سالم بيه شالني في حاجات كتير، ومش بعيد يساعدني ويخرجني منها، بلاش تشاؤم". وصمت.

أشعل سيجارة ونفث دخانها من أعلى النافذة وتناول المنفضة وأفرغها من محتوياتها، قبل أن يغلق الباب تناهى لمسامعه صوت محرك سيارة خافت، أطل برأسه من الباب لمح سيارة تتوقف أمام العمارة، كانت سيارة فارهة على آخر طراز مثل التي يملكها سالم، أغلق الباب في هدوء وألقى المنفضة بجواره في انفعال، ومد جسده ليمسح البخار الذي تجمع على الزجاج الخلفي وعاد ليجلس مكانه بعد أن عدل المرآه التي ارتطمت برأسه، انعكس جسد شخصين في المرآة، قرب وجهه مدققًا في هيئتهما كأنه سيقدر على تحديد ملامحهما بتلك الطريقة، دلف الشخصان الغمضان إلى داخل العمارة وانطلقت السيارة الفاخرة مسرعة تشق طريقها، تابعها حتى مرت بجواره وخطف بعينيه لوحات السيارة ودونها بسرعة في دفتره خوفًا من أن ينساها، حدق إلى الفراغ الذي أمامه، وتساءل: "مش يمكن يكونوا من سكان العمارة؟ إيه الحيرة دي، مفيش حد غيري للمهمة دي؟".

حل الليل بسواده العميق على الشارع واشتعلت المصابيح التي تسللت أنوارها من بين فروع الأشجار كان الملل قد بدأ يأكل رأسه كما تأكل السوسة الخشب، حاول تفادي الملل وإشغال عقله بأي شيء ولكنه لم ينجح في ذلك، لم يقدر على استحضار أي ذكرى لا من قريب ولا من بعيد، ما زاد من توتره وتشوش عقله وتشتت أفكاره هو قرقرة معدته التي لا تنتهي، هاجمه النعاس لشدة إرهاقه، كان يغلق جفنيه للحظات ويفتحهما فزعًا على صوت صفير الرياح التي كانت تشتد بين الفينة والأخرى، فتح باب السيارة واتكأ بقدمه على حافة الباب واسند رأسه إلى ركبتيه وحدق إلى النور المنعكس على سطح بركة ماء متجمعة بجوار الرصيف، لم يصل بتحديقه هذا إلى شيءٍ مفيد ولكنه حاول إشغال عينيه بشيءٍ تفاديًا للنعاس، خرج من السيارة وأخذ يسير بالقرب منها لتجري الدماء في جسده وليتجدد نشاطه، حدق إلى مدخل العمارة في تردد، فكر في التوجه إلى البواب وسؤاله عما إذا كان هناك مخرج آخر من عدمه، ولكنه خاف أن ينسف مجهوده.

جلس خلف عجلة القيادة واستعد ما إن توقفت سيارة سوداء، نظر خلفه من خلال المرآة، وترقب.. بعد دقائق توقف اللواء أمام باب السيارة الخلفي، سمع صوت انغلاق باب السيارة في قوة، سارت السيارة على مهل واقتربت منه مختفية في منعطف الشارع الفرعي، بعد لحظات حضرت سيارة أخرى

وتوقفت أمام العمارة، وجد سيدة تقف وتتحدث إلى البواب، بعد لحظات من المراقبة والتركيز أغلق البواب باب السيارة خلفها، تابعها حتى سجل لوحة سيارتها المعدنية، أغلق دفتره، وألقاه بجواره ونظر خلفه وجد البواب ما زال يقف ويراقب المكان، فتح باب سيارته وتوجه إليه مسرعًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في هذه الأثناء والقمر يحاول أن يشق طريقه من خلال الغيوم المتكدسة في السماء، كان كابوس يقف أسفل لوح من المعدن وزوجته تقف بجواره، يحاول استمالتها لمضاجعة سريعة خاطفة تجدد حالته النفسية المضطربة، سحبها تجاهه بقوة ولم تبد أي اعتراض لتصرفه الأرعن، اعتادت على مثل هذه المضاجعات السريعة التي لم تتذوق لذتها أو متعتها وكل ما كانت تحصل عليه قليل من الألم وكثير من الإهمال، لم يكن لديه القدرة على إظهار حبه لها، وعلى الرغم من ذلك إلا أنه لم يعاملها يومًا بقساوة، كان يحاول أن يخفف عنها حياتها البائسة القاسية، لم تعايره يومًا بحياتها ولم تشتكيه التنقلات التي كانت تحدث كثيرًا، كانت تقف بجواره كالجبل.

ابتعدت عنه بعد مضاجعة خاطفة، والقت بجسدها المتعب بجوار أبنائها، من خلف الألواح المعدنية سمعت صوت أخيه التوأم الغليظ المخيف وهو يتحدث إلى أخيه ويطلب منه الزواج:

- مش مهم لونها ولا مهم شكلها، المهم...

- المهم أي حاجة تريحك، احنا هنعيد الاسطوانة دي كل مرة؟ افهم.. العامية مش هتقبلك جوز ليها، أنا نفسي تتجوز وتحل عني، اقولك انت شوف أي واحدة تعجبك وأنا اخطبهالك.

قاطعة أخوه بصرخةٍ قوية مدوية أيقظت الأطفال وفزعت الطيور النائمة وقال:

- انت ليه بتتريق عليا؟ يا راجل ارحمني من كلامك المستفز، العامية مش هتقبل بيا ازاي؟ وبعدين سبب اللي أنا فيه انت... أيوه انت يا زفت الطين، انت لو كنت بتنفذ طلباتهم مكانش ده حصل معايا، مكنتش اتشوهت بالشكل ده.. وأخذ يشد جلد وجهه المشوه محاولًا انتزاعه وتابع في بكاءٍ شديد: الله يسامحك، كان زماني عندي عيلة زيك وست بتإويني آخر الليل، مش كوخ مخروم وسرير عمري ما ادفيت فيه.

تركه وسط نحيب شديد وبدأ يسحب قدمه المتهالكة معه بعيدًا.

توقف أسفل لوحٍ معدني امتد فوق مدخل بيته، وحدق إلى السماء التي أخذت تبرق وترعد بقوة كأنها تنبه السكان بضرورة أخذ التدابير اللازمة قبل حلول العاصفة المنتظرة، لمح كابوس أضواء سيارة قادمة، تشق الطريق الترابي تجاه بيته، تنهد وعلم أن في الأفق مهمة قادمة لا محالة، توجه إلى الطريق أسفل المطر ينتظر قدوم السيارة.

على بعد خطوات منه شاهد أخاه وهو يدنو من السيارة، بعد لحظات أكملت السيارة طريقها صوب كابوس، وتوقفت بجواره.

فتحت السيدة ليلى النافذة، لم ينحنِ وأصغى إليها بتركيزٍ شديد، وهز رأسه وابتسم ابتسامة صفراء جانبية كأنه يقول لها: "لا أهلًا وسهلًا"، يحاول أن يخفي ما في صدره من حقد وعداوة تجاهها، تناول

منها مظروفًا أبيض وتراجع خطوتين للوراء مفسحًا الطريق أمام السيارة للعبور، استدار وتوقف ينظر إلى زوجته بصمتٍ وانفعال، فار دمه وشعر بحرارة تجتاح صدره، ألقى المظروف في الوحل وداس عليه بقدمه.

اقتربت منه بسرعة واحتضنته، وحاولت تهدئته، سحبته من يده إلى أسفل اللوح وتوقفت بجواره، توقفا يراقبان الأمطار المتساقطة في صمت وكلٌ في عالمه الخاص، هي تفكر في إلقاء جسدها أسفل اللحاف بجوار أبنائها وهو يفكر في مهمته القادمة، حاولت كسر الصمت وقالت:

- ليه منهربش يا خميس؟ ليه منبدأش حياة جديدة؟ عندنا فلوس كتير، نشتري حتة أرض ونزرعها زي القمح اللي انت زارعه، بس بلاش تحرقه زي كل مرة، اتفقنا؟

تنهد وقال:

- مش هنيفع يا حميدة، قبل ما امشي لازم أخلص الناس من شرها عشان متلاحقنيش، عشان لو مخلصتش عليها هي اللي هتطاردني، ولو مش هي هيكون أبو الليل ولو مش همَ هيكون ناس تانية.. صمت لم يكن لديه ما يقوله سوى: أنا آسف يا حميدة، آسف على كل حاجة سببتها ليكِ.

قبل رأسها وفك يدها وذهب ينفذ مهمته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

توقف حسام أمام بواب العمارة بعينين تقدحان شررًا، كان سمين قصير القامة جاحظ العينين أسمر البشرة.

- ازيك يا تخين؟

في وجل سأله البواب:

- مين انت؟ وعاوز إيه؟ ينشق مخاطه.

اقترب منه حسام وجلس بجواره:

- أنا محمد من وزارة الداخلية.

- تحت أمر معاليك يا بيه.

- اللوا أدهم ساكن في أنهي شقة؟

- معرفش يا بيه، معرفش.

مد يده اليمنى وتناول مسدسه ودفعه بفوهته في فخده وقال مهددًا:

- شكلك مستغني عن رجلك؟ اقترب حسام برأسه إلى أذن البواب وهمس: إيه رأيك في ركبتك؟ التهديد أكثر شيء يجيده حسام، يتمتع ويتلذذ على ضعف الآخرين.

- اعمل معروف... أنا مش ناقص...

- اخلص معنديش الليل كله.

- في الدور الرابع.

- أنا مسألتش ساكن فين، أنا سألتك ساكن مع مين؟

تردد في التمنع عن الإجابة ولكن فوهة المسدس كانت بالمرصاد، ورد:

- مع... يا ليلة سودة... مسح مخاطه بكم جلابيته وتلعثم متابعًا: وأنا شكلي هروح في...

- اخلص يا روح امك، انطق؟

"يا روح امي، هو عارف إن امي ماتت؟" قالها في سره..

حدق أمامه إلى ممر العمارة، خُيل له أبناؤه يلهون ويقفزون هنا وهناك، وزوجته تبتسم بوجهها السمين وهي قادمة نحوه حاملة بين يديها صينية الطعام، ستتلاشى كل تلك الخيالات إذا طُرد من عمله، لن يجد مأوي له ولا لعائلته، بين حيرة من أمره، هل يفقد عمله أم يفز هاربًا إلى أي مكان؟ أحس بفوهة السلاح تحرق وركه كأنها سيخ ساخن، رفع رأسه والتفت إلى حسام قائلًا بصوتٍ منخفض:

- مع ليلى هانم.

- مين ليلى؟

- سيدة الأعمال وصاحبة كازينو...

- عارف إنها سيدة أعمال، وعندها كازينو، بس بيعملوا إيه فوق؟

ركع أمامه وكاد يُقبل يديه وهو ينشق مخاطه، اغرورقت عيناه بالدمع وقال راجيًا:

- ابوس ايدك، هيموتوني، عيالي يا بيه، أنا ماليش رزقة غير دي...

- أوعدك مش هيحصلك حاجة ومحدش يقرب منك.. سحبه ليجلس بجواره وناوله سيجارة ليهدئ من روعه ويشعره بالأمان وتابع مهددًا: بس إذا خبيت أي معلومة يا ويلك يا سواد ليلك، انت فاهم يعني إيه تتجرجر في الأقسام، مش بعيد عن اللي بيحصل في الأفلام والمسلسلات.

- حاضر يا بيه، أنا مش ناقص بهدلة، شوف يا بيه.. هي ليلى يعني بتقابل أدهم، قصدي اللوا أدهم... من أربع لا الكدب خيبة من خمس سنين... ويجتمعوا كل اثنين، هنا فوق في الدور... الرابع.

- مين بيكون معاهم؟

- مين بيكون معاهم؟! تمنى لو يخرج أحد السكان ويستنجد به أو يذهب برفقته كحمال وتابع: بيكون معاهم حسين وفاروق، أكيد سيادتك تعرفهم...

- إيه علاقة اللوا بليلى؟

- مش فاهم.

- بيحبوا بعض مثلًا؟

القسم... هتجرجر، عيالي، حبس، ناس بلطجية، أنا مش حملهم، فكر قبل أن يقول:

- هقولك على كل حاجة وأجري على الله، ينفع يكون أجري عليكم يا باشا؟

- اخلص بلاش لماضة.

ولو حتى مكافأة، قالها في عقله.

- حاضر، ليلى واللوا بيحبوا بعض قوي يا بيه، ده بيعملها عيد ميلاد كل سنة، وبيجبلها كيكات كتير ونصه بيترمي في الزبالة يا خسارة، دول ناس متخافش ربنا، وكانو يجيبوا خمرة كتير، ونسوان كتير ورجالة كتير، أنا كنت اشيل واشوف بعيني اللي هيكلهم الدود، اشوف كل حاجة وهي بتنزل من العربية، وفاروق وحسين كانوا يوزعوا حشيش على الناس، حشيش طيس و...

- دي شفتها برضو؟ ابتسم حسام وتابع: قول متخافش سرك في بير.

- الصراحة دي مشفتهاش، بس حسين مرة اداني حتة حشيش قد كده يا بيه...

- هو مين حسين؟

- صاحب فاروق وقال لي مرة إنه شريكهم في الكازينو، بس شكله كداب لأنه كان بيتهزء كتير هو وفاروق.. على فين يا بيه؟

غادر حسام مسرعًا، وقاد السيارة بحماس مفرط، لم يتخيل أن تكون نهاية هذا اليوم بهذا الشكل المفرح، كم سيسعد سالم بهذه الأخبار المفرحة التي ستهون عليه انتظاره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بينما كانت منى تنتظر قدوم ماهر ليأخذها إلى بيتها، فقد قضت يومًا جميلًا ومرهقًا بسبب حملها، كان لحضور العاملات في الصالون ولحضور سوزان أيضًا وضعًا مختلف على مهجة، فقد استعادت عافيتها ولكنها لم تكن على طبيعتها فكانت بين الحين والآخر تسرح بخيالها في تلك الدقائق المرعبة التي شكلت بينها وبين الناس والرجال خاصة حاجز، لم تكن ضحكتها كما كانت بإيقاعها الرنان، وحديثها لم يكن بتلك الحلاوة التي اعتادت عليها المقربات منها، كانت تحس بنظراتهن التي تحمل في طياتها الشفقة والحسرة على ما أصابها وكم كانت تكره تلك النظرات، ولكنها كانت مجبرة في تحملها وتفاديها لتلك النظرات اذا أمكنها ذلك، كانت تحاول الهروب من تلك الذكريات التي حُفرت في أعماقها كلما خلت إلى نفسها عن طريق قراءة جريدة أو مجلة أو كتاب، كانت تلهي عقلها بأي شيء حتى لا يستحضر تلك الأرواح الشريرة المفزعة، لم تكن تتمنى أن يُقبض عليهم بقدر ما تمنت أن تنتهي من تلك الأزمة، في قرارة نفسها كانت تحمد الله على أن الواقعة لم تحدث معها من الأمام وإنما من الخلف، فهي لم تفقد عذريتها ولكنها فقدت الكثير من نفسها في تلك الليلة، ولكنها تراهن على الزمن الذي سينسيها الوجع الذي سكنها والباقية ستكون مجرد أمور جانبية ستعود إليها رويدًا رويدًا،

ستعود إليها ضحكتها الرنانة وابتسامتها الجذابة وحديثها الجميل وستجلس على رأس الطاولة من جديد، أخرجت منى من حقيبتها الصور الثلاث التي تركها ماهر بحوزتها، وأخذت تتأملها مليًا، لم تستطع استخراج اثنتين ولكنها تذكرت طيف واحدة، ولكنها لم تكن على يقين هل هي تلك السيدة التي خطرت في بالها أم لا، لم تخبر ماهر حتى تتأكد من شكوكها، شكوكها التي ستؤكدها مهجة.

كانت مهجة تجلس بجوارها على حافة السرير عندما أخرجت الصور وأخذت تحدق إليها، مالت إليها مهجة ونظرت دون مبالاة في بادئ الأمر، ورفعت نظرها وأسندت رأسها وأغمضت عينيها لهنينة قبل أن تفتحهما على آخرهما وتقول:

- مين دول يا منى؟

- ستات، مالك في إيه؟ اتغير حالك؟ انتِ تعرفيهم؟

- طبعًا اعرفهم، هاتي وريني؟

تناولت الرسمة الأولى وبحلقت إليها بكل تركيز وانتباه ورفعت ناظريها شاخصة إلى الفراغ أمامها وقالت في اندهاش:

- دي مريم اللدغة، اللي كانت بتزورنا مع ليلى.

- انتِ متأكدة يا مهجة؟ ركزي كويس فيها.. اعتدلت في جلستها وقالت باهتمام بالغ: خدي بالك دي رسمة، يعني ممكن تكون مش دقيقة.

- أيوه متأكدة يا منى، أنا لسه بعقلي، هي رسمة فعلًا.. صمتت وأخذت تحدق مرة أخرى وبعد هنيهة أكدت شكوكها قائلة: هي مريم يا منى.

- يا مسهل يا رب، طيب مين دي؟

- دي معرفهاش، هاتي كده دي.

تناولت الرسمة الثانية وحدقت إليها للحظات وقالت:

- بيتهيألي دي أنا شفتها مرة واحدة أو مرتين، الست التخينة دي شفتها مع مريم.. صمتت وتابعت وهي تفرك جبهتها: أه هي.

- اسمها إيه؟ حاولي تفتكري يا مهجة؟

تنهدت في تركيز وأغمضت عينيها لبعض الوقت تعتصر عقلها وتسترجع أيام سابقة ليست ببعيدة، فتحت عينيها على آخرهما وردت:

- اسمها سكينة، أه سكينة، أصلها كانت بتقولها يا ثكينة، أيوه مظبوط، بس مين دول؟

- اسمعيني كويس، مش عاوزاكي...

- قولي يا منى؟ أنا مش ناقصة هم، مين دول؟

صمت لبرهة وعادت بظهرها إلى الخلف وقالت في تلعثم:

- دول... الستات دول... زاروا ستك ليلة ما ماتت.

ضربت على صدرها وشهقت شهقة مدوية وقالت:

- مش ممكن، يعني إيه؟ سكتت في وجل، وضربت على ركبتها بكلتا يديها بقوة وتابعت في حسرة: معقول يكون ليهم علاقة بالي حصل؟ ردي يا منى؟

- مش عارفه يا مهجة، اهدي شوية، خليني أكلم ماهر.

- وليهم عين يجوا عندي الصالون.

- يمكن ميعرفوش إنها جدتك...

- لا، أكيد يعرفوا بس عاملين نفسهم هُبْل، انتِ بتدافعي عنهم يا منى؟

لم تستوعب ما سمعته، أصابها الكدر والغيظ بقوة وتوترت بشدة خاصةً عندما انتابها شعور بأن تكون الستات على علاقة بمقتل جدتها، ولكنها لا تعلم ماذا ستفعل، ولا كيف ستتصرف، هل تخبر والدها؟ ولكن ماذا سيفعل والدها؟ ما زاد من حزنها أن هؤلاء الستات يترددن على سبائك الحرير، يا لها من حقارة وخسة، كيف يجرؤن على الابتسامة في وجهها؟! حاولت جاهدة ألا تفكر في الأمر، ولكنها لم تنجح، لم تستطع طرد ابتسامة مريم ولا حتى طرد هيئة سكينة من مخيلتها، ليلى صديقة لهن، "ليلى مش من ضمن الرسومات، بس هي ملهاش دعوة بيهم، بس عرفوا بعض ازاي؟ معقول يكون في رابط بينهم"، كم أصابها الضيق والانزعاج بمجرد أن تذكرت ذلك الحوار العنيف الذي دار بينها وبين ليلى، لا تعلم لماذا لم تتدخل سوزان في الحوار؟ لماذا لم تطلب منها السكوت؟ لماذا لم تتفوه بكلمة؟ لا تعلم مصدر تلك الأفكار والتساؤلات المستفزة التي وَلَدَت لديها حيرة عنيفة، ولكنها أيقنت أن هناك رابط بين هؤلاء الستات ولكنها لا تعلم ما هو.

أخذ عقلها يومض بتلك الذكريات التي تدخلت في نفس الوقت، ذكريات جدتها الجميلة وذكريات الحادث المؤلم، أزاحت الغطاء عن رجليها الذي قيدهما ومنعهما من الحركة، نظرت إلى أرضية الغرفة أحست بأنها بعيدة عن متناول قدميها، أصابتها زغللة للحظات ولكن سرعان ما هزت رأسها لتختفي تلك الرؤية الضبابية التي حلت بها، ما إن لمست قدميها الأرض حتى سارت في جسدها برودة شديدة، بحثت عن شبشبها الذي اختفى اسفل السرير وتناولته بيدها ذات الأصابع المرتعشة وارتدته وتوجهت إلى النافذة فتحتها، لفحتها برودة الهواء الذي تسلل إلى الغرفة وأخذ يهز الستارة بقوة، دفعت الهواء عبر رئتيها لعل مزاجها يتحسن أو حتى لتفيق من وحل أفكارها التي غرقت بها، دخلت عليها منى التي كانت تضع يديها خلف ظهرها وتئن في صمت، ما إن فتحت الباب حتى تحولت الغرفة إلى ممر هوائي قوي، صرخت بها منى لتغلق النافذة، قالت وهي تريح جسدها على حافة السرير:

- حرام عليكِ اللي بتعمليه في نفسك يا مهجة، انتِ مش حمل البرد، بلاش تعاندي نفسك، مش هتكسبي غير الضرر ولا هتقدري تغيري من الواقع ولا هترجعي الزمن.

- كلمتي ماهر؟

- محدش بيرد في مكتبه.

بصعوبة سكنت أعضاؤها ونامت تلك الليلة، رأت في منامها أنها تقف فوق بيحرة من الماء المتجمدة وندف الثلج يتساقط عليها، نظرت حولها، كان المكان خاليًا وعلى مد بصرها امتدت البحيرة بأطرافها اللامتناهية، كانت ترتدي قميص نوم أبيض شفاف، وشعرها علقت به ندف الثلج، فجأة زادت كثافة الثلج المتساقط، حاولت السير ولكنها اكتشفت أن قدميها متجمدتان وكستها طبقة رقيقة من الثلج آخذة في الصعود، من أسفل تلك الطبقة الرقيقة لمحت رجلها العارية، ظنت أنها تستطيع كسر تلك الطبقة التي وصلت إلى ما قبل خصرها، قبضت على يديها وطرقت ولكن تلك الطبقة كانت أقوى مما ظنت، أحست بضغطٍ شديد على جسدها وعلى بطنها وعلى ظهرها، كلما ارتفعت الطبقة الرقيقة إلى أعلى كلما زاد خفقان قلبها اضطرابًا وتسارعت أنفاسها بسبب تلك البرودة التي احتلت جسدها، ما أخذت ترتفع تلك الطبقة حتى وصلت صدرها وضغطت على رئتيها مثل ثقل، ظهر أمامها طيف أحدهم، كان يتقدم باتجاهها في تؤدة كأنه يراقب تجمدها، رغم أنها لم ترَ أمها إلا إنها تعرفت عليها وقالت: "ماما، الحقيني، أنا بموت؟".

في العالم الحقيقي نهض صالح على وقع كلماتها، تكرر على مسامعه قول كلمة ماما عدة مرات، نهض وفتح عينيه الناعستين وحدق إلى مهجة، لمس قدمها بيده فوجدها متخشبة وباردة جدًا، هزها في ارتباك وخوف وبقوة، لم تستجب لهزاته، رفع عن جسدها الغطاء وجد جسدها أبيض كالثلج أمسكها من قدمها وهزها في عنف حتى أفاقت في لهاثٍ شديد وأول ما قالته: "ماما، ماما؟"، ضمها إلى حضنه وربت عليها حتى استكانت ونامت.

جلس صالح على مقعدة فاقدًا لمتعة الحياة، لم يعاوده النعاس، طار، تبخر، لم يجد في حياته أي مبرر للبقاء حيًا، حتى مهجة لم تهون عليه الغربة التي دبت في روحه، لم يقدر على حمل جراحها أو حتى التخفيف عنها ولو القليل من أوجاعها، وها هي حتى في منامها لم تلفظه وإنما لفظت والدتها، كأنها هي المنقذ لها، تمنى صالح لو تحول إلى جثة هامدة لا تشعر، لا تئن، لا تبكي، لا تحلم، لا تتذكر، فقط جثة هامدة تنتظر أن يأكلها الدود.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

18

في حوالي الساعة الحادية عشرة ليلًا، وقف كابوس أسفل شجرة صغيرة، جذعها لم يكن كافٍ ليخفي جسده الضخم أمام العمارة يراقب البواب، جلس على الرصيف بين سيارتين ليخفي جسده، لم يشعر ببرودة الرصيف، لم يعد يشعر بأي شيء، في نظره لم تكن حياته تحمل أي قيمة، كان البواب يجلس أمامه مباشرة برفقة بواب آخر يعمل في أحد البنايات المجاورة، يسمع ضحكاتهما الصاخبة وبين الفينة والأخرى يسمع حديثهما الذي يرتفع وينخفض كلحن غنائي، يتحدثان عن مواقف جديدة ومنها قديم، استمع مجبرًا لقصصهما التي لم تكن مصدر اهتمامه، لم يمل من الانتظار الذي يكرهه كثير من الناس، بالنسبة له الانتظار هو محطة اعتاد عليها قبل تنفيذ أي مهمة.

يراقب البوابان بكل ثبات وإصرار كالبومة، رفع نظره عاليًا يتفقد العمارة، كانت معظم نوافذها معتمة، ماعدا نافذتين ينبعث منهما ضوء أصفر ضعيف تسلل من خلف ستائر شفافة.

اتكأ بيده إلى الخلف أحس بالماء المتجمع على الرصيف، أمال رأسه ناحية كتفه الأشبه بفخذ خروف، وأخذ ينظر إليهما للحظات تخيل نفسه مكان أحدهما، تخيل نفسه بواب يعيش في غرفة صغيرة أسفل السلم، لا تكفي لجسده العملاق أن يتمدد داخلها، تخيل نفسه يقتات هو وأولاده على فتات وبقايا الطعام، تخيل نفسه ينحني ويقبل أيادي بخيلة تصطنع الجود والكرم.

وجد نفسه يبتسم على ضحكاتهما الساخرة من الحياة رغم همومهما التي تسكن أجسادهما، ابتسم محاولًا أن ينسى ما هو مقدم عليه.

تحسس جيبه الداخلي ليتفقد أداته الحادة، أخرجها وتحسس نصلها، انعكست لمعت السكين في عينيه الواسعتين، مد إبهامه وبدأ يمرره على نصلها الحاد، رفع يده بسرعة بسبب حدته، قرب السكين إلى صدره أسفل قلبه، ثبتها، للحظات ثم دفع بنصلها البارد إلى الداخل بحماس وخوف وترقب، ينتظر الألم، نقلت أعصابه ألم لم يستطع تحمله، شعر بكهرباء تسري أسفل جلده، شعر بوخزتها في عقله، نفضته بقوة كصعقة كهربائية.. لا بل ككي بالنار، تحسس بطرف أصابعه مكان غرسه للسكين، تجمعت قطرة من الدماء فوق طرف إصبعه اليابس، نظر إلى السكين وتمتم: "ده راس السكين، طب لو انغرس في اللحم هيعمل إيه؟"، مر من أمامه طيف يد الطبيب وهي تتشنج وتتقبض وتتراخى ويهوى إصبع تلو الآخر، بانفعال وارتباك لم يعهدهما منذ زمن أعاد السكين إلى جيبه، وحدق إلى البوابين وتمنى لو كان مكان أحدهما.

بعد فترة من الانتظار أسفل رذاذ المطر، غادر البواب ونهض كابوس مستعدًا، التفت حوله يفحص المحيط، كان الشارع مقفر وتجمعت على جانبيه بعض البرك الصغيرة والكبيرة عكست إنارة المصابيح، كانت المصابيح تظهر رذاذ المطر وهو يتساقط بهدوء وصمت، انتظر لدقائق ليتأكد من أن البواب لن يخرج، شرع في التسلل، سار ببطء وصعد الثلاث درجات بخطوة واحدة، فتح الباب بخفة، لم يصدر منه أزيزًا كما توقع، استرق النظر، كان المكان خالٍ، صعد الدرجات في خفة.

توقف قليلًا عند نهاية الدرج للحظات، وصل إلى الدور المقصود، مسح عرقه بظهر يده، توقف أمام الشقة وطرق بلطف.. بعد نصف دقيقة سمع وقع خطوات قادمًا من الداخل، ابتعد عن العين السحرية،

وانتظر في استعداد، أطلت من فتحة صغيرة سيدة تحاول فتح عينيها الشبه نائمتين، "مين؟" وانتظرت أن يأتيها الرد، فشرعت في غلق الباب وقبل أن تغلقه دفع الباب بقوة وأسقطها أرضًا، قفز فوقها بسرعة وأغلق فمها ودفع الباب بقدمه، أخرج سكينه ورفعه إلى وجهها الذي اختفت منه الدماء وتحول إلى وجه شمعي بامتياز، عيناها كما لو رأت شبح ففُتحت على آخرهما، كانت صرخاتها مكتومة لم تبلغ حنجرتها، شعر بأنفاسها القوية المتسارعة الساخنة تمر من فوق ظهر يده، رفع السكينة ووضع نصلها فوق عنقها وبدأ يصدر تعليماته وهو يحدق إلى عينيها اللتين كادتا أن تخرجا من مقلتيهما وقال بنبرةٍ قوية جدية مليئة بالتهديد:

- لو صرختِ أو حاولتِ تعملى أي حاجة مش مظبوطة... مش هرحمك، كلامي واضح ولا لا؟

هزت رأسها بقوة وعيناها الحائرتان المرتجفتان مثبتتان على السكين..

تابع حديثه:

- هرفع إيدي، متتحركيش من مكانك، مفهوم؟

قرأت في عينيه الجدية والتصميم، هزت رأسها مرة أخرى وشعر بنبرات صوتها تتخلل يده الغليظة الثقيلة.

رفع يده عنها ببطءٍ وحذر، وأصدر صوتًا خفيفًا – أشش - مطولة، وظلت على شاكلتها، ممددة على ظهرها كالميت، رأسها على الأرض كأنه مثبت بمسامير وشعرها متناثر أسفل رأسها كأن الكهرباء صعقتها.

انسحب من فوقها بحذرٍ شديد وما زال يلوح بالسكينة، قرفص بجوار رأسها، تراقبه بجزع وتنتظر تعليماته، أشار إليها بالسكينة رفعت رأسها المرتجف، بلعت ريقها في صعوبة، كان صدرها يهبط ويعلو بسرعة، واعتدلت في جلستها، أحست بأن عمرها انقضى عندما اقترب منها بحيث أصبح صدره مقابل لرأسها، لمست صغر حجمها جواره.

سألها هامسًا كأنه يخشى عليها من صوته الهادر:

- انتِ عارفه أنا هنا ليه؟

بقوة هزت رأسها نفيًا بوجهٍ ممتقع مرعوب..

- أنا هنا عشان أموتك يا ست وردة، فتحت عينيها على آخرهما غير مصدقة... بس للأسف مبموتش الستات... عشان كده نتفق اتفاق، بس بلاش تخوني الاتفاق عشان تحافظي على روحك، كلامي واضح ولا لا؟

هزت رأسها بخفة وبدأ الأمان ينبت في صدرها، وقالت بصوتٍ مرتجف حزين:

- وعد... هعمل اللي انت عاوز... أنا...

- اسمعيني، أنا معنديش وقت كفاية، انتِ لازم تختفي، مش عاوز حد يلمحك خالص، خدي معاكِ شنطة صغيرة فيها هدوم عشان لو حد فتش بيتك يعرف إنك سافرتي أو رحتي أي مكان، عاوزك تقومي دلوقت تاخدي الحاجات المهمة وتخرجي من هنا بسرعة.. نهض من جوارها ونظرت إليه من أسفل، كم كان عملاقًا، توقف بجوار الباب وكاد رأسه يرتطم بحفة الباب كما أنه سد مدخل الباب، بلعت ريقها لضخامة جسده، قبل أن يغلق باب شقتها قال: معاكي عشر دقايق تكوني سافرتي، كلامي واضح ولا لا؟

تركها وغادر شقتها بهدوء.

نهضت مسرعة غير مصدقة أنه كُتب لها عمر جديد، توجهت إلى غرفتها بدلت ثيابها على عجل، كانت تبحث عن أي شيء ترتديه، كل ما يهمها حياتها التي فازت بها قبل لحظات، لن يتجدد هذا العهد مرة أخرى، نامت على أرضية الغرفة الباردة ومدت يدها وسحبت حقيبة صغيرة من أسفل السرير، وضعتها فوق السرير وفتحتها وأخذت تضع بها لوازمها الضرورية، لم تفكر سوى في الخروج من هنا بكامل أعضائها، تناولت حقيبة يدها التي تركتها كما هي في أثناء عودتها ولم تفرغ منها شيئًا وغادرت مسرعة في توتر وقلق، توقفت للحظات أمام باب المصعد تفكر أيهما أسرع الهبوط على الدرج أم انتظار المصعد؟ لم تنتظر المصعد أن يصعد كان الوقت يداهمها كانت فكرة الانتظار بحد ذاتها من وجهة نظرها مرهقة ومبعثًا للقلق، شعرت بانقباض في معدتها كأن هناك يد تقبض عليها أو كأنها تلاقت ضربة من ملاكم، أخذت تهبط الدرج بسرعة رياضي متمرس، كلما نظرت من بين الدرجات إلى الأسفل كانت تظن أن عدد الدرجات لا يقل وهذا بسبب عدم استخدامها الدرج من قبل وبسبب ارتفاع العمارة، رغبت في أن تقفز إلى الأسفل دفعة واحدة أو على الأقل لو تقفز العشر درجات دفعة واحدة، لم يكن عقلها في تلك اللحظة يفكر سوى في شيءٍ واحد، هو النجاة، لم تفكر في قدمها أن تلتوي أو أن تخدعها وتزوغ منها عندما كانت تقفز، لم تلاحظ شهيقها وزفيرها المتسارع ولا حتى وشاحها الأبيض الذي كاد أن يسقط منها، كانت حقيبتها مُعلقة في كتفها الأيسر ومحشورة بين ذراعها وصدرها والحقيبة الأخرى تترنح في يدها الأخرى، ما أن وصلت إلى الدور الأرضي حتى كادت أن تسقط من شدة التعب، كانت تلهث بقوة، لفت وشاحها حول عنقها وتوقفت أمام باب العمارة تفتش عنه خلف تلك الأشجار، أسفل عمود إنارة لمحت من بعيد يد تلوح لها، انقبض قلبها وهبطت الدرجات مسرعة شاقة طريقها إلى وجهة غير معلومة.

من بين السيارتين راقب هروبها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ترك حسام باب منزله مواربًا، ينتظر قدوم ماهر، لا يعلم كيف يخبر ماهر بما لديه من معلومات، هو يعلم أن ماهر لا يطيق اللواء ولكنه لا يظهر هذا الكره من أجل زوجته، يعلم ماهر أن زوجته انسلخت من أسرتها، تركتهم، لم تعد متعلقة بهم لسبب يجهله، لم تعد تحدثه عن أسرتها كما كانت، لم تعد تتباهى بوالدها وبأخوتها وبمراكزهم الاجتماعية، كان ماهر دائمًا يخفي عنها كراهيته لوالدها، ولم يحدثها يومًا عما كان يجول في خاطره تجاهه من نفور، لم يعامل زوجته كما عامله اللواء وأهانه أمام زملائه وإحراجه أكثر من مرة، ولكن هذه الإهانات حدثت قبل زواجه.

- تعال هنا... في البلكونة.

- مالك في إيه يا حسام؟ أنا لسه مقعدتش على مكتبي ولقيت كل الدنيا بتقولي حسام باشا عاوزك ضروري في بيته، في إيه؟ جايبني على ملا وشي؟

- اللوا يا سيدي.

- ماله زفت الطين؟

- متجوز.

قهقه بشدة، ولكنه اكتشف أن حسام لا يمزح.

- متجوز من ليلى، فاكرها؟ صاحبة حسين وفاروق.. مالك سكت فجأة؟ ما تكمل ضحك.

باغته بكل ما لديه بقوة مثل ملاكم، لم يترك له مجال للتفكير، لدغه كالأفعى وانتهى الأمر، أنهى مهمته وتبقى مهمة ماهر، وهي أن يخبر زوجته.

- مش عارف اقولك إيه؟ مش يمكن... انت مين اللي قالك؟ عرفت ازاي؟ اتجوز امتى؟

- متجوز من خمس سنين تقريبًا، ومحدش قال لي، أنا شفت بعيني.

أشعل سيجارة في نرفزة واضحة وألقى ماهر الجريدة من يده وقال:

- خد دي عندك، افتح على الصفحة الخامسة، ركز في الصورة كويس.

- مش ممكن؟! "سيدة الأعمال تنعي زوجها الطبيب سعد ال...".

- الست متجوزة أكتر من راجل، ده الرجالة اللي بشنبات مقدروش يعملوها؟

- خلينا في المهم يا ماهر، حسين وفاروق وليلى واللوا طبعًا بيتقابلوا كل اثنين.

- وإيه السبب اللي بيجمعهم مع بعض؟ مفيش عندك بيرة ولا أي حاجة نبلع بيها االأخبار السم دي؟

- بيت السبع ميخلاش، تعالى نخش جوه عشان بردت وهات معاك الترابيزة والكراسي.

سحب ماهر المقعدين والترابيزة ووضعهم في منتصف الغرفة أسفل مصباح إنارة أصفر، وأحضر حسام البيرة ومنفضة السجائر وجلسا متقابلين، قال حسام وهو يفتح علبة البيرة:

- انت عارف إن أنا وانت عندنا معلومات كل مصر هتهيج عليها لما تعرفها؟

- دي كوارس ومصايب مش معلومات، دي فضايح يا حسام.. مج نفسًا عميقًا قويًا من سيجارته وتابع: المهم في رأيك بيتقابلوا ليه؟

- ليلى وأدهم بيحبوا بعض، بس فاروق وحسين إيه اللي يخليهم يكونوا موجودين؟

- مش عارف يا حسام؟ صمت، وتنهد قائلًا: انت عارف يا حسام نفسي في إيه؟ نفسي أنام وأصحى ألاقي القضية خلصت واريح عقلي من التفكير، اريح صدري من الدخان والقهوة اللي هرت معدتي، نفسي ارتاح من الهم، نفسي أنام ألف سنة.

- خلص سيجارتك وبيرتك، عندنا مشوار لازم نخلصه.

- فين؟

- هتعرف بعدين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت سوزان تتفقد غرف بيت والدها، كان هناك غرفتان مغلقتين، فتحت باب الغرفة فصدر عنه أزيزًا صاخبًا، بحثت عن مفتاح المصباح بيد وجلة، كشف نور المصباح عن رائحة أتربة ورائحة عطنة استيقظت من ثبات عميق، الأماكن المهجورة تسكنها الأتربة والعناكب والعفاريت، نظرت فوجدت طابور من النمل امتد من زاوية الغرفة حتى مكان قريب من أريكة بالية مهترئة، لابُد وأن النمل اتخذ من الأريكة مسكنًا له، كانت تلك الغرفة فارغة باهتة ميتة، نظرت أسفل قدميها خوفًا من أن يطالها النمل، القدم التي قبلها يحيى بشغف وحب، لم تفكر يومًا أنها ستهجر غرفتها وتبيت هنا في غرفة أخرى. كانت كلما دخلت غرفتها تذكرت تلك الليلة الأخيرة التي قضتها مجبرة مع يحيى، كانت ليلة باردة، مليئة بتفاصيل لن تنساها، ليلة بشعة ورائحتها كريهة ما زالت عالقة بجسدها، لا ترغب أي مكان يذكرها بيحيى، فكرت في تجديد عفش البيت وتجديد دهان الجدران، تجديد كل شيء لتمسح آثاره، لم تعد تقبله، لم يعد له مكانًا في عالمها، طلقته قبل أن يتزوجها، لم تكن مستاءة منه بقدر ما كانت مستاءة من شخصها، فقد وثقت به وظنت أنها تملكه وتسيطر عليه، ظنت أنها روضته كما يروض الأسد، لكنها كانت مخطئة، وتظن أنها مخطئة إذا مكثت هنا أكثر، لم تعد ترغب في شيء، حتى أنها لم تباشر عملها منذ تلك الليلة، أوكلت إحدى زميلاتها بإدارة العمل، وما زاد من حنقها أنه لم يأتِ أحد لزيارتها أو الاطمئنان عليها بسبب تغيبها، قالت في نفسها: "أنا استاهل كل اللي جرالي، أنا اللي كشفتلك عن جسمي وعن حبي ليك، أنا السبب في كل اللي حصلي، وادي أخرتها، مرمية زي الكلبة محدش عبرني، سبتني عريانة وحيدة في بيت كله ريحتك وصورتك وصوتك".

سحبت الأريكة المفككة المهترئة خارج البيت وتركتها أمام مدخل العمارة، وعادت وتناولت مكنسة وأخذت تدفع بطبقة الأتربة التي تجمعت على الأرضية، وجمعتها في إحدى الزوايا وألقتها في القمامة. أحضرت المبيد الحشري ورشت بقايا سرب النمل، ونظفت الجدران من بقايا بيوت العناكب الفارغة، وفتحت النافذة المطلة على جدار سد وأغلقت الباب خلفها، توجهت إلى غرفتها وأزاحت الفرشة القطنية الثقيلة الشاهدة على ليالي جميلة ممتعة دافئة في صحبة يحيى، ما إن استقرت الفرشة على حافة باب الغرفة الجديدة حتى هبطت بجسدها في زوبعة من البكاء الشديد والنحيب المرتفع، بعد مرور الوقت والتفكير الجدي قررت في الصباح مغادرة الحي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في أثناء جلوسها في الكازينو طلبت ليلى أن تخفض من سعر المخدرات مع التجار بسبب تكدس الكمية لديها، راقبت همسات التجار من بعيد غير مصدقين بما أنعمت عليهم ليلى من هدايا، مديح زاد من غرورها وعظمتها.

كانت سعيدة بما حققته من إنجازات، كانت المخدرات تُباع بكميات كبيرة، ولكن في اليومين الماضيين كان الإقبال عليها ضعيفًا، لا يعلم أحد السبب، لذلك قررت أن تخفض سعر الربح مقابل أن تبيع ما لديها. كانت دائمًا مشغولة البال في تضخيم ثروتها، كانت جريئة جسورة، تعرف قيمة المال وأهميته، بخيلة تلك الوقحة وحذرة في نفقته تلك المغرورة، لم يتباه أحد بأنه حظي منها بمليم زيادة، لم تهتم بالمخدرات فكانت تأتيها مجانًا ولكنها كانت مصدر دخل لا يُستهان به كما أنها سريعة البيع إذا خُفض ثمنها، المركز التجاري الذي سيغير وجه المدينة حصل على الموافقة بعد طول انتظار، كانت نجاحاتها تسير بوتيرة منتظمة، كل ما أرادته كان يتحقق وما تطلبه يُلبى وسرعان ما كانت تجد الأيادي الممدودة لمساعدتها، لم تقف في طريقها أي عقبة وهذا بفعل مالها الوفير وعلاقاتها واسعة الانتشار، كما أنها تملك سلطة عالية توفر لها الحماية وتضمن لها أن تكون كل الأمور على ما يرام، لم تظهر أي مشاكل في حياتها، حيث لكل مشكلة حل وثمن.

نهضت متثاقلة تسير بين طاولات الزبائن المترنحين على مقاعدهم، بنظراتها الحادة الماكرة كانت تتفحص أعين الزبائن ووجوههم التي ارتسمت عليها ابتسامات بلهاء، تعلم أنها ابتسامات كاذبة ومزيفة، في نظرها كانت ابتساماتهم أقرب إلى ابتسامات المجانين.

واصلت سيرها ببطء شعرت بخفة في أقدامها، شعرت بدوار قوي كاد أن يسقطها لولا تدخل فاروق في آخر لحظة، ساعدها حتى وصلت غرفة مخصصة للاجتماعات، كانت الغرفة فسيحة وذات إضاءة صفراء ضعيفة، لم يكن بها أي نافذة، بها أريكة ثلاثية ذات جلدٍ بني وعلى جانبها الأيسر أباجورة ألقت بظلالها على الجدران التي كساها ورق حائط لاصق مزدان بسيقان الأشجار، وفي المنتصف مكتب كبير بني اللون وخلفه كرسي هزاز من الخيزران، وعلى الجدار عُلقت لوحة زيتية كبيرة لحصانٍ أبيض يقف على قدميه الخلفيتين، جلست خلف المكتب بتثاقل وأشارت إلى فاروق أن يغادر، غادر وهو يقذفها بأفظع الشتائم.

تناولت التليفون وأدارت القرص وانتظرت حتى أتاها الرد.

- ازيك يا ابني؟

- كله تمام يا ماما، متقلقيش ابنك مصيت ومسيطر.

- انتبه لنفسك كويس، استناك بكره على الغدا؟

- لا، هكون عندك بعد المغرب، وبلاش يكون الغدا عندك، خلينا ناكل بره، إيه رأيك؟

- انت تؤمر يا حبيبي، مع السلامة.

أغلق السماعة، فتمتمت: "صوتك شبه صوت ابوك الواطي".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

19

كان الجو باردًا يتسلل إلى سيارة الأجرة كما لو كان ضوء يخترق الزجاج، الصوت الوحيد الذي تسمعه داخل سيارة الأجرة هو صوت احتكاك يدي ماهر بفخذيه.

أشعل ماهر سيجارة وبين الحين والحين كان ينفث دخانها على جمرتها ليزيد من اشتعالها، كان الوقت مبكرًا على حضور كبير الخدم المُسمَّى "طلعت" الذي يعمل في الكازينو، شعر ماهر بخدر في أصابع قدميه، خلع حذائه وتربع وأخذ يفرك أصابعه، يد تمسك بالسيجارة وأخرى تفرك أصابعه، رفع بصره على صوت قطرات الماء وهي ترتطم بالزجاج الأمامي، كانت على شكل رذاذ تبعها زخات مصحوبة برياح شديدة، بعد لحظات هطلت بلورات البرد، بديع تساقطها وارتطامها وتفتتها على الزجاج، بعد لحظات هدأ كل شيء عدا صوت قطرات المطر العالقة بأوراق الأشجار، زفير حسام وماهر شكلا ندى تكثف على زجاج السيارة، فتح ماهر الشباك ليجدد الهواء الفاسد، لفحته نسمة من الهواء البارد على خده، كانت رقيقة ولكنها باردة، ألقى بسيجارته خارجًا، لمح من بعيد سيدة تحاول قطع الطريق إلا إنها غاصت في الماء، وصلت إلى الرصيف تنفض جسدها كقطة سقطت سهوًا في بركة ماء.

التفت ماهر إلى حسام، كان شاردًا في عالمه، نكزه بإبهامه، التفت إليه حسام دون أن ينبس بكلمة، وأعاد رأسه إلى وضعيته.

على حين غرة أخرج المسدس من خلف ظهره ووضعه على تابلو السيارة، انعكس عليه ضوء مصباح بعيد.

- إيه ده؟ انت اتجننت يا حسام؟ احنا متفقناش على كده.

- كأنك متعرفش طريقتي في الشغل، والنبي بلاش شغل المسكنة ده، وبعدين متقلقش المخزن فاضي، إيه مش مصدقني؟

- لا مصدقك، أمري لله، يا رب تعدي الليلة دي على خير.

- معاك سجاير؟ أنا خلصت علبتي.

تناول سيجارة وأشعلها.

سأله ماهر محاولًا الخروج من حالة الملل المسيطرة على الأجواء:

- ليه يا حسام متتجوزش؟

- اتجوز؟! قالها ساخرًا ورأسه مسندًا على مسند مقعد السيارة وتابع: انت عارفني مبحبش الارتباط ولا بحب القيود.

- هو الجواز عندك يبقى ارتباط وقيود؟

- طبعًا طبعًا، كله ارتباط ومسؤولية، أنا طبعي حر، محبش أكون خاضع لحد، والجواز في حد ذاته خضوع، استسلام، استنزاف، أيوه استنزاف في متطلبات الحياة الداخلية والخارجية، هتوصل لمرحلة تفضل فيها بين عملك وبيتك، انت بقالك قد إيه مشتقش منى؟

- أوبا.. ضرب على جبهته وأردف: كان المفروض أوصلها، دي كانت تعبانة...

- شفت.. نفض سيجارته أسفل قدمه وتابع حديثه في شماتة واضحة: جالك كلامي، اهو انت من نوع اللي يفضل عمله على بيته، شوف يا ماهر، أنا بحب أتنقل بين الستات، بحب اغير واجدد، بس محبش التفاصيل اللي في حياتهم، مش بحب اشاركهم مشاكلهم، الست زي البير بحب اشرب ميته بس محبش اشترك في حفره.

- يعني انت مش عاوز أولاد، ولا وعاوز عيلة.

- مش عاوز حاجة، كده كتير عليا.

- حياتك نزوة يا حسام، انت من رقاصة لرقاصة، واللي بيرقص كتير أخرته هيقع دايخ.

- هي رقاصة واحدة بس ليها ألف وش وألف موهبة.

فكر ماهر للحظات ثم ابتسم في خبث وقال:

- إيه رأيك تحجزلي الرقاصة، خليني ادوق طعمها يمكن اغير...

- لا، إلا رقاصتي يا ماهر...

قهقه ماهر بشدة وقال:

- والله شكلك بتحبها يا عبيط.

مرت دقائق ودقائق والصمت كانت له اليد العليا، لم يجد أي منهما ما يتحدث به، من بعيد فتح ماهر عينيه على أضواء سيارة تشق الظلام، وخز حسام في جنبه ووضع يديه على فمه تجنبًا لأي صوت قد يصدر منه دون قصد، فرك عينيه الناعستين وراقب التاكسي حتى توقفت بعيدًا عنه لأمتار معدودة. توقف التاكسي أمام مدخل العمارة، وبعد لحظات من الترقب خرج طلعت من السيارة مترنحًا بهيئته الضعيفة.

خرج كلاهما من السيارة في هدوءٍ شديد، وتركا باب السيارة مفتوحًا حتى لا يصدر أي صوت، وتوجه كلاهما صوب المدخل، كان يقف أمام المصعد ويتثاءب بقوة ويترنح، التفت خلفه عندما سمع وقع خطوات تقترب منه، تقدم إليه حسام وغرس المسدس في ظهره وطلب منه السير برفقتهما، سار معهما صامتًا خائفًا حائر.

فتح له ماهر الباب الخلفي ودفعه، انطلقت بهم السيارة في سكون الليل وصمته إلى طريقٍ صحراوي، من هول الصدمة التي عاشها لم يكن عقله قد أدرك بعد ما يحدث له، حاول جاهدًا تفسير ما حدث له، فوهة المسدس التي غرست في ظهره، هل تعرض للاختطاف؟ هل سيُطلب منه فدية؟ حاول سؤالهم

عن وجهتهما، ولكنه تراجع لما لمح المسدس الموضوع على تابلو السيارة، لم يرى مسدسًا في حياته بهذا القرب، كانت صفيحة وجهه شاحبة كقشرة ليمون وشعره المدهون والمفلوق من المنتصف زاد من صغر وجهه، وعيناه تشبهان أعين العرائس في أهدابها الطويلة والبؤبؤ الراقص وسط حَمار غامق دليل على نعاس شديد، وأنف مدبب طويل أشبه بمنقار غراب، وقميص أبيض فوقه ستره سوداء غالية الثمن تخفي قلب وجل ضعيف لا يتحمل الشدائد.

خرق الصمت بسؤالهما:

- انتم مين؟ وعاوزين مني إيه؟

- تعرف إيه عن أدهم؟

- أدهم بيه شريك في الكازينو.

- عندك حاجة جديدة عاوز تضيفها؟ ولا عاوز حد يزورك في المستشفى... يمكن متلحقش المستشفى؟ ولا إيه رأيك يا ماهر؟

- طبعًا، بس حرام تحرم أولاده منه، بلاش تحرمهم من حنان ابوهم.

هز طلعت رأسه في جبنٍ وخوف، أيقن أنه تحت تهديد حقيقي لا مفر منه، ولن ينفع عائلته أحد إذا أصابه أي مكروه، لذلك قرر أن يجيب عن الأسئلة خوفًا على حياته وطمعًا في حضن آخر من أبنائه.

تمهل ماهر في قيادته وانعطف في طريق من الحصى، بعد دقائق توقفت السيارة.

نزل حسام من السيارة في غضب وفتح الباب الخلفي وسحبه من سترته وألقاه أرضًا أمام مصابيح السيارة، وطلب منه خلع سترته، تردد في بادئ الأمر ولكن المسدس كان يختصر الكثير من الوقت والكلام، خلع سترته، بعد لحظات من الترقب أخذ جسده يرتعش من شدة البرد.

- قول لي كل حاجة تعرفها وبلاش تخلينا نقلعك القميص، انت مش هتستحمل البرد؟

- طيب... بس يا بيه... حاضر أنا... بردان قوي، هموت...

- اخلص يا ابن الكلب قبل ما تموت؟

قال بصوتٍ مرتجف:

- بيبيعوا المخدرات... أنا ماليش دعوة.

- مين اللي بيبعها؟

- أدهم، وحسين، وفاروق.

كانت الأسئلة مباشرة وسريعة لم يتركا له مجالًا للتفكير.

- بيجبوها منين؟

- في واحد اسمه "حازم" هو اللي بيجيبها.. نظر إلى ماهر نظرة استعطاف وتوسل وقال: أنا بردان، والله العظيم ه... هموت.

تحت نور الصباح الذي أخذ ينتشر، لمح ماهر على وجه صديقه الكالح، كأنه تلقى صفعة قوية.

ظل ماهر مصطنع البرود واللامبالاة وقف أمام طلعت وألقى إليه السترة، تلقفها كمن تلقف حبل نجاة وسط أمواج عاتية وقال:

- اسمعني كويس، احنا مش هنضرك ولا حتى هنجيب اسمك في أي تحقيق.. اقترب منه وجثا على ركبتيه وربت على كتفه بصدقٍ وتابع: بس كل اللي عايزه منك إنك تشرح كل حاجة بالتفصيل من البداية للنهاية، اتفقنا؟ ألقى له سيجارة وأشعلها له بعد عدة محاولات فاشلة.

- شكرًا يا بيه.. مج نفسًا وأردف قائلًا: أنا اشتغلت معاهم لما كانوا بيشتغلوا في كازينو صغير، طبعًا حضرتك عارف إن ليلى هي الكل في الكل، يعني محدش يقدر يتنفس من غير إذنها، عارف حتى أدهم بحراسه ونجومه، بيقف قدامها صنم، أنا كنت أكون موجود... مش دايمًا... لما كانوا يقسموا حصصهم، وكنت اطلعلي بسبوبة يا بيه، كنت لسه فقير ومحتاج كل مليم عشان...

- كمل يا طلعت في المهم بلاش تفاصيل حياتك ولا شكلك دفيت؟

- المهم كان النصيب الأكبر يروح لليلى... فضلنا قصدي هما اللي فضلوا شغالين كده حوالي أربع أو خمس سنين، لحد ما ظهر حازم، عليه دماغ يا بيه، الشيطان يتعلم منه، وعرض عليهم فكرة كازينو كبير... يكون فيه الشغل أحسن والبيع أكتر والزباين يوم عن يوم بتزيد.

- مين اللي بيشتري المخدرات؟ سأله حسام في حزم.

- شوف يا بيه، كل الناس اللي بتزورنا هي من كبار البلد ومن أغنياء العرب، وكان في تجار كمان بيكونوا في الكازينو بس مش دايمًا، وكل محتاج كان بيشتري، وكله حسب الصنف، بودرة، حشيش، أفيون...

- بيجتمعوا فين؟

- بيجتمعوا... يعني مش دايمًا في الكازينو، أغلب اجتماعاتهم بره الكازينو.

- مين بيكون حاضر اجتماعاتهم؟

أخذ يعدهم على أصابعه:

- حسين، وفاروق، وليلى، وأدهم، وأحيانًا حازم.

ساد الصمت للحظات، وتبادل حسام وماهر نظرات حائرة عالقة بين الحقيقة والسراب، كان عقلاهما أشبه بهارد ممتلئ لم يقدر على استيعاب ما يسمعانه، كان الاستغراب سيد الموقف، كان حسام مصعوقًا، أخذ يضرب الرمال بقدمه مستفزًا مقهورًا، لم يكن يتوقع أن يسمع اسم حازم ابن دفعته، حيث كان يتمتع بأخلاق عالية ودائمًا يحثهم على الصلاة والصوم والابتعاد عن المنكرات، نظر إلى

الأفق البعيد عله يجد إجابة مقنعة عما يحدث، إجابة تطفئ نارًا اشتعلت في صدره، لم يتوقع أن يسمع هذا الكم من القذارة والخبث صادر عن ضباط يتباهون بإنجازاتهم وبأخلاقهم، كم تخدعنا تلك المناصب والبدلات الأنيقة والسيارات الفارهة.

- مين كمان بيساعدهم في نقل المخدرات؟ سأله ماهر.

- على حد علمي مفيش حد.

- تعرف إيه عن ليلى؟

تنهد طلعت وأغمض عينيه للحظات قبل أن يجيب، يعلم جيدًا إنه تورط ولا يمكنه أن ينجو قبل أن يجيب على كل أسئلتهم، توقع أن تأتي هذه اللحظة، اللحظة التي ينهار فيها كل شيء، ينهار عالمه الضعيف الهش، ولكنه لم يتوقع أن تكون اعترافاته وسط الصحراء وبرودة قاسية.

- ربنا ينتقم منها يا بيه، ست مفترية، متخافش ربنا، معندهاش رحمة خالص، ممكن تستغل أي حد عشان توصل للي هي عوزاه، تستغل جمالها ونفوذها وأموالها في سبيل إنها تحقق أحلامها، مبتحبش حد يقولها لا، ولا تحب حد يناقشها، ست متسلطة على الكل، زي الوسواس، ليها عيون في كل مكان ممكن تتخيله.

- هي متجوزة؟

- طبعًا، وربنا يكون في عون اللي هي متجوزاه، مات قبل يومين، الدكتور سعد الدين، دكتور التجميل، كان شاب حليوة، كانت بتغير عليه من الهوا الطاير، كان حبوب وذكي، خسارة فيها الله ينتقم منها، اشترته بفلوسها عشان يكمل الديكور، كانت الستات هتموت عليه، هوكان يتحب بصراحة، سمعت يا بيه إن كان عاوز يقابل حد من الداخلية بس مش عارف مين هو؟

- مش فاهم؟

- شوف يا بيه، أنا سمعت من فاروق إنه الدكتور كان المفروض يقابل حد من كام يوم، ظابط، كان هيقابل ظابط هو قال لي كده، بس مش عارف إذا قابله ولا لا؟

- طلعت، عندك فكرة إذا كان أدهم متجوز من ليلى ولا لا؟

- لا مش متجوز، بس اللي اعرفه انهم بيتقابلوا في السر، ومرة سمعتهم بيتخانقوا...

- يتخانقوا؟! ليه وعلى إيه؟

- كل اللي سمعته من ورا الباب شتيم وزعيق وإنها هتفضحه إذا ناقش معاها حريتها الشخصية، يعني كانت عاوزه تعمل اللي هي عوزاه من غير تدخل أدهم، ومره بعتت صورة مع فاروق لأدهم على شقته وفي نفس اليوم كان قاعد قدامها زي الخروف...

- صورة إيه؟

- يا بيه، دي ماسكة على كل واحد ذلة، والصور اللي بتصورها في أوضاع... يعني... انت فاهم، بتكون معاها زي بطاقة سحرية.

- وتعرف إيه عن فاروق وحسين؟

- حسين كلب فلوس وكلب خمرة وكلب كل حاجة، حقير كل ساعة في حال، بس فاروق مكانش بيحب يشاركهم تفاصيل حياتهم، كان بيحب يكون بعيد، كان يزورني في المطبخ ويطلعلي كل اللي في قلبه، كان يفضفضلي يا بيه، ويا عيني عليه لما يكون سكران، عليه مواويل ولا مين في زمناته، كان نفسه يسيب المكان بس مكانش قادر، كانت ماسكة عليهم كلهم بلاوي يا بيه.

بدأ النهار يكشف عن وجه المدينة، وجهها المظلم المختبئ خلف قلوب سوداء ظالمة مظلمة.

ساد صمت ثقيل بين ثلاثتهم، صمت كصمت القبور.

- طيب يا طلعت، احنا هنحترم كلمتنا، مش هنجيب سيرتك في التحقيق وانت مشفتش أي حد فينا، كلامي واضح ولا لا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أشرقت الشمس على كابوس من خلف الغيوم رغم كثافتها، بعثت في نفسه السرور والمرح، شعر كأنه يولد من جديد، أول مرة يعود إلى بيته مبتهجًا، لا أثقال ولا ذنب على كاهله، لم تطارده روح أحد، شعر بخفه في جسده، في أثناء سيرة أخذ يفكر في كلام زوجته، يعلم أن لديها كامل الحق فيما تطلب، تريد أن تغادر المكان كما هو يريد، أحس بأن موعد المغادرة قد اقترب، أحس بأن عمله انتهى، كل ما ينقصه أن يجمع أغراضه ويغادر المكان دون أن يعلم أحد أين سيذهب، سيترك خلفه كل القذارات والأوساخ، سيترك بيع المخدرات والقتل ولن يكون ذراع أي أحد بعد اليوم، سيكون هو ذراع أسرته وأبنائه وأخيه، سيهتم لأمرهم وينفذ طلباتهم، لن يجبره أحد على فعل شيء، سيكون حر كما هي تلك الطيور التي تحلق أمامه، كان يسير بين حقول القمح متوجهًا إلى الشارع الترابي، انحنى وقطع سنبلة قمح وفركها، ونفخ على يده بخفة ولطف فتناثرت قشور السنبلة في الهواء كندف الثلج، ظلت بذور القمح الخضراء في يده، وضعها في فمه على دفعة واحدة ومضغها، تذوق حلاوتها وطراوتها أسفل أسنانه، تلذذ مذاقها وقطف سنبلة أخرى وأخرى.

سمع صوت تكسر أغصان القمح لم يهتم، لربما كانت قطة تركض خلف فأر، واصل سيره حتى وصل إلى الشارع الترابي المؤدي إلى بيته، لمحت عيناه المرهقتان الحمام يحلق عاليًا فوق رأسه، سمع رفرفات الأجنحة القوية، هبطت بعض الحمامات وبدأت تسير خلفه بطريقة ملكية، قرفص، قطف سنابل القمح وفركها ومد يده الممتلئة ببذورها، تقدمت إحدى الحمامات الجريئات وبدأت تنقر يده، أحس بدغدغة خفيفة، صفق، حلقن عاليًا عائدات إلى قفصهن، تساءل: "مين اللي فتح قفص الحمام؟!"، لا يجرؤ أحد على فتح القفص أثناء غيابه، أشد ما كان يكره أن يقترب أحدهم إلى قفص الحمام.

بدأ يسير متوجهًا إلى بيته مسرعًا مستفزًا، وقبل أن ينعطف في الشارع الفرعي سمع صدى شهيق قوي متكرر، توقف للحظات ينصت، التفت إلى يساره متجهمًا مندهشًا من الصوت، توجه إلى

الأشجار بجوار الوادي في خشية وترقب، ازداد الصوت وضوح كلما اقترب، انقبضت أساريره وذعر قلبه واهتزت روحه كأغصان شجرة وحدق بعينيه اللتين استيقظتا من سلامهما وأمانهما المؤقتين، تقدم مهرولًا يعفر التراب خلفه كحصان هائج، وجد زوجته بوجهها الممتقع وبفمها الفارغ مستندة إلى ساق شجرة منكمشة ويدها متشابكة حول قدميها وتحدق بعينين سكنهما الفزع إلى الوادي الجاري أمامها وتشهق بشدة، قرفص بجوارها وعيناه تكادان تخرجان من مقلتيهما، فارت أعصابه وأنفاسه، كان أثر الضرب ظاهرًا على وجهها المتورم، تحسس شعرها المتناثر في لطف، خرجت بعض خصل شعرها المنتوف في يده، ضمها إلى صدره في رقة، أحس بضربات قلبها القوية السريعة التي كادت أن تنفجر داخل أضلعها، أجهشت في البكاء وهي تحاول أن تغوص في صدره وأخذت تشد على ثيابه لتحتمي به، مسح بيده على ظهرها برفق، بعد لحظات من الحضن العميق، أبعدها عنه بلطف، ونظر إليها وأصابع يده تمسح دمعها المتساقط وتحاول جمع شعرها المنفوش بأناملها المرتجفة.

سألها بصوتٍ مرتعش لم يخرج منه منذ أن كان طفلًا:

- إيه اللي حصلك؟

صمتت وحدقت إليه في خوفٍ وردت:

- اخوك، جمعة يا خميس...

وجمت.

اشتعل جسده كعود ثقاب ورفع رأسها بيديه وحدق إليها بعينين تقدحان شرارًا وغضبًا:

- ماله جمعة؟ عملك إيه؟

أجهشت في البكاء وقالت بصوتٍ متقطع:

- اتهجم عليا.

لطمت بقوة على خديها المتورمين.

نهض وتوجه مسرعًا إلى بيته بأعصاب مشتعلة، كانت أقدامه ترتطم بالأرض وتصدر صوتًا مرعبًا كحوافر حصان، سنابل القمح تميل من خلفه وكأنه عاصفة ترابية، توقف أمام البيت يصرخ، لم يسمع صوتًا من أخيه جمعة، خرج أبناؤه فزعين من البيت، يبكون، تقدموا نحوه وتعلقوا بساقيه بقوة، نزل على ركبتيه واحتضنهم، نظر إلى قفص الحمام، توجه مسرعًا، أمسكه من قضبانه الحديدية ورفعه رغم ثقله، أمال القفص على إحدى جوانبه، وتقدم نحو أخيه جمعة الذي تقوقع داخله، تقوقع كطفلٍ خائف. يعلم ما هو مقدم عليه أخوه خميس، ركل أخاه بقوة، لم يهتم لصرخاته أو لآهاته، ظل يضربه وكلما صرخ، زاد من قوة ركلاته، توقف عن الضرب ونظر حوله، وجد عصا غليظة بجوار منزله، تناولها وعاد بخطى ثابتة، وانهال عليه بالضرب الموجع، اهتز تحت ضرباته كغصن زيتون، سمع صوت خفيف يصدر من أخيه ويقول:

- مش قدام العيال يا خويا، مش قدامهم، بلاش، ابوس إيدك.

لم يهتم لما قاله أخوه في بادئ الأمر، لكن عندما زاد توسله، نظر خلفه كابوس وجد أبناءه يحدقون إليه ويبكون بشدة، صرخ بهم، ففروا يبحثون عن والدتهم في الشارع ويصرخون.

التفت إلى أخيه الذي كان يرفع يده طالبًا السماح والعفو، سمع أخاه يقول:

- ليلى قالت لي... بس أنا معملتهاش يا اخويا، ابوس إيدك كفاية...

بصق في وجهه، وضرب على يده بالعصا بكل قوته، من اعماقه صرخ جمعة من شدة الألم، لم يتوقف خميس ازداد غضبه وغيظه، ضربه على قدمه المصابة بكل ما أوتي من قوة وشراسة، حاول جمعة سحبها ولكنه لم يستطع، لم يعد يشعر بها، كأنها أصيبت بالشلل، أخذ يزحف على بطنة فوق روث الحمام وقدمه السليمة لم تعد قادرة على دفع جسده الضخم، تقدم كابوس إلى رأسه وصعد فوقها بجسده الثقيل ودفنها في الروث، ظلت يد جمعه تلوح في الهواء وتضرب الأرض بقوة كمصارع مستسلم، مرت من أمامه دموع زوجته وشعرها المنتوف وفجأة وجد نفسه يقفز فوق رأسه بقوة وقفز... وقفز... وسقطت يد أخيه، لتحلق روحه بجوار الحمام.

توقف عن القفز في اللحظة التي سقطت يده وسقط كل شيء، ظل يحدق إلى جسد جمعة الساكن، لم يصدق أن يد أخيه سقطت، لربما خدعة وسينهض من جديد، ليتحقق من أمره، نكز جسده بالعصا التي تلطخت بدمائه، لم يستجب، نكزه مرة أخرى بشكلٍ أقوى حتى كاد أن يحركه من مكانه، لم تكن هناك ردة فعل، انهمرت الأمطار على حين غرة، سكن عالمه وغيمت الدنيا في ناظريه حتى اسودت، تبدلت مشاعر الغضب بحزنٍ عميق لم يعهده من قبل، شعر بضعف في مفاصل قدميه وسقط على ركبتيه بجواره، حزين، مهموم، مغموم، دفعه بيده غير مصدق ما حدث، ضربه بقوة على ظهره، عندما أحس أن مياه الأمطار أخذت تغمر جسده، بدأ يسحبه من فوق روث الحمام من يده الباردة الدامية، في هلع ألقى يده أرضًا عندما سمع صوت لحم يده يتمزق بسبب تهشم عظامها، وقف غير مصدق ما فعله بأخيه، انحنى وأخذ يسحبه من كتفيه، كم كانت ثقيلة جثة أخيه، لم يشعر بثقل جثة هكذا من قبل، ما أن ابتعد عن الروث حتى بدأ في إزالة الروث من فوق جسده في بكاءٍ وحسرة شديدة، توقف أمام وجهه المشوه وبدأ يتحسسه برفق ولين واختلطت دموعه بالأمطار التي غسلت جسد أخيه ووجهه، رفع رأسه وضمه إلى صدره وصرخ عاليًا.

دفنه بجوار شجرة عملاقة لعلها تحتضنه بجذورها وتخفف عنه بظلها حرارة الصيف.

- لمي هدومك وروحي عند ابن خالك، هيتصرف معاكِ لحد ما اخلص مشوار مهم.

- دي آخرتها، اروح لصاح اللي طردني...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عرج ماهر على بيته ليريح جسده ويغتسل وليطمئن زوجته، كان سعيدًا لما أصاب قضية حسام من تقدم، ولكن بقيت قضاياه، كيف ومتى ستحل؟ لا ينفك يفكر ويبحث عن أي طرقة يمكنها أن تقوده إلى أي دليل ولكن ما من دليل.

طرق الباب.. فتحت منى بوجهها المتورد وبشعرها المسدل خلفها كستارة، احتضن جسدها الدافئ وقبلها.

- كنت فين يا ماهر؟ كلمتك في الشغل ومحدش كان بيرد عليه.

- شغل يا منى، انتِ أخبارك إيه؟

- الحمد لله، المهم عندي شوية أخبار مهمة؟

- قولي!

- مهجة اتعرفت على الستات.

قهقه في استخفاف وقال هازئًا:

- شافتهم في الحلم، ولا في...

- أنا بتكلم بجد يا ماهر، بقولك اتعرفت عليهم، وكتبت على كل صورة اسم صاحبتها.

- وعرفتهم ازاي يا منى؟ أنا بتكلم بجد.

- دول زباين عندها في سبائك الحرير، خليني أجبلك الصور.

أشعل سيجارة وما زال عقله غير مصدق ما أخبرته به زوجته، خلع سترته الجاثمة على صدره بسبب قطرات المطر العالقة بها فازداد وزنها، جلس على الأريكة منتظرًا، ها هي أمامه قادمة تلوح بالرسومات في تمايل وقالت:

- اتفضل، عشان تعرف إن كلامي بجد مش هزار، أصلك مش هتصدق غير لما تشوف بنفسك.

تناول الرسومات مستغربًا.. لا بل متفاجئًا، كتبت بجوار السيدة الثمينة، سكينة صاحبة مريم.

الرسمة الثانية كتبت أعلاها، مريم صاحبة ليلى، لدغة في حرف السين.

الرسمة الثالثة كانت خالية.

- ودي؟ مين دي؟

- متعرفش عنها أي حاجة.

- مين ليلى يا منى؟

- مش عارفه، اسأل مهجة؟

- هتروحيلها امتى؟

- ساعة كده، ليه في إيه؟

- اسمعيني كويس، اشتري جرنان امبارح، وفي الصفحة الخامسة هتلاقي صورة لست جوزها ميت، اسأليها عنها وبلغيني، هكون في المكتب.

توجه إلى التليفون وهاتف حسام، وطلب منه الحضور إلى مكتبه، طبع قبلة وتناول سترته وغادر مسرعًا إلى مكتبه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان محمد وسمير ينتظران حسام أن ينهي ما يكتبه، لم يكن إسماعيل حاضرًا، بعد لحظات انصرف سمير وفي يده ورقة اصطحب محمد معه، نهض وأفرغ مثانته وغسل وجهه ليفيق من النعاس الشديد، خلع حذاءه ليريح قدميه من تورم سكنهما، دخل عليه الجندي حاملًا صينية عليها ثلاثة فناجين قهوة وضعها أمامه وانصرف، جلس خلف مكتبة وأشعل سيجارة وهو يحدق في بخار القهوة المتصاعد من الفنجان ويهيئ نفسه لما هو قادم، نفث دخان سيجارته ليختلط ببخار القهوة، تناول فنجانًا وارتشف منه متجاهلًا سخونتها وأعاده فارغًا فوق الصينية، نهض ومد جسده على الأريكة التي غاصت بجسده الثقيل، سمع طقطقة فقرات ظهره فرفع رجليه ووضعهما فوق مسند الأريكة، حاول استرجاع شريط الأحداث ولكنها كانت متداخلة ومتزاحمة لم تكن سهلة تلك الأحداث، لابُد وأن ينال قسطًا من الراحة ليستجمع تلك الأحداث المثيرة، حاول تخمين الهدية التي ستكون في انتظاره بعد هذا المجهود المضني...

فز من فوق الأريكة عندما دخل عليه ماهر مستنفرًا.

- بالراحة، انت داخل تقبض على مجرم؟

سحب كرسي وجلس أمامه، تناول علبة سجائره ودفع بسيجارة إلى فمه، أخبره بما حدث معه.

- محمد فين؟

- خرج مع سمير عشان يجيب ملفات فاروق وحسين وليلى.. تفحص ساعته وتابع: زمانهم على وصول، اشرب قهوة.

- مش بحبها باردة، المهم هنوصل ازاي للستات يا حسام؟ أنا حاسس...

- خلينا نخلص قضية قضية.. قاطعه في هدوء: احنا عارفين الستات، هنوصل لهم بسهولة خصوصًا انهم يعرفوا ليلى، متقلقش ومتشغلش بالك.

قاطع حديثهم تليفون المكتب، رفع ماهر السماعة، كانت زوجته وقالت:

- مهجة بتقول إن دي ليلى.

- انتِ متأكدة يا منى؟

- أيوه، وقالت لي انها ست متسلطة، كنت عاوزه اقولك إن مهجة هتخرج كمان يومين ويمكن تيجي عندي البيت كام يوم.

- ماشي، مفيش مشكلة.

أغلق التليفون في ارتياح وقال:

- مهجة بتقول إن ليلى اللي في الجرنان هي ليلى اللي بتزورهم في الصالون.

هز رأسه في لامبالاة.

صمت..

بعد دقائق ودقائق دخل عليهما محمد وسمير يحملان ملفات، أغلق الباب.

قال سمير:

- ده ملف حسين.

- هات الملف يا سمير. قال ماهر.

تناول الملف وأخذ يقرأ بصوتٍ مرتفع:

- الاسم: حسين عادل حسين، والعنوان ٣٢ شارع محمد علي المتفرع من شارع أحمد بهجت عثمان، ملف التجنيد، فين ملف فاروق".

تناوله وأخذ يقرأ:

- الاسم: فاروق علي محمد، العنوان، ٣٢ شارع محمد علي المتفرع من شارع أحمد بهجت عثمان".

- نفس العنوان. قال حسام.

- فين ملف ليلى يا محمد؟

فتح الملف، لم يجد شيئًا عدا صورتها وعنوانها واسمها، ليلى خالد حسن.

- إيه باقي الملفات دي يا محمد؟ سأله ماهر.

- ملفات مرات حسين ومرات فاروق.

- هات خلينا نشوف.

فتح أول ملف، نهض على قدميه غير مصدق لما تراه عيناه:

- بص يا حسام الاسم سكينة يحيى محمود، نفس شارع فاروق وحسين.

فتح الملف الثاني:

- مش ممكن، مستحيل، دي مش صدفة يا رجالة، دي مرات حسين، مريم كامل عثمان ونفس الشارع، إيه رأيك يا حسام؟ مالكم في إيه؟ حدق إليهم في اندهاش وهز رأسه قائلًا: انتم، انتم كنتوا عارفين؟ صح ولا لا؟ ما تتكلم يا حسام؟

- عرفنا امبارح.

- وليه محدش قال لي؟ أه، وانت يا محمد، كنت عارف؟

- كنا عاوزين نتأكد يا ماهر. قال حسام.

- عرفت ازاي؟

- من يوم ما دخل أدهم الكازينو كلفت سمير ومحمد بمراقبة فاروق وحسين، يلا يا رجالة، كل واحد على شغله، بسرعة.

صمت ماهر، وقال بعد هنينة من التفكير:

- لازم نزور سيدة، لازم اتأكد إذا كانت هتتعرف عليهم ولا لا؟ نهض متثاقلًا فاقدًا لتركيزه ولنشاطه وتابع: عمرك ما تخبي عليا أي حاجة تانية زي دي يا حسام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

20

في مكانٍ ناءٍ وسط بيوت من الصفيح التي تفصل بين تلك البيوت - التي لا تقي من برد الشتاء ولا من قيظ الصيف وسكانها أناس معدمين - أزقة ضيقة تسلل منها كابوس، تجري في منتصفها أودية صغيرة محملة بمياه الأمطار يغوص بها صبية لا يرتدون ما يقيهم من البرد يركضون خلف قطعة خشب عائمة.

تسلل كابوس بخفة حتى وصل إلى أطراف تلك البيوت المتهالكة، كان يقبع بيت أبو الليل محاطًا بسور، لم يمنعه السور المرتفع من التسلق، يعلم جيدًا خريطة البيت المكون من طابقين، ويعلم أين هي غرفته التي ينام بها، حول البيت كانت أشجار جميز قائمة مرتفعة، تسلق شجرة الجميز كثيفة الورق ذات أغصان قوية القريبة من أحد نوافذ المنزل، استقر فوق الغصن الذي كشف له المنطقة بأثرها وكان يسمع وقع الخطوات القادمة من المنزل، كانت الحركة داخل البيت يشتد إيقاعها فجأة وتنخفض فجأة.

كان الجو باردًا والمطر سقط كالسيل المندفع من خلف سدٍ منيع، انتظر وراقب في سكون وصمت، انتظر كالصقر الذي يصبر على ظهور فريسته وينتظر اللحظة المواتية للانقضاض، كانت ساعات الانتظار التي قضاها تشعل في داخله فوضى وضيق وهيجان ما ينفك ويزداد ويشتد كالإعصار، لم يهتم لساعات الانتظار التي قضاها فوق الشجرة كان كل همه أن يتواجه مع أبو الليل، كانا مثل غيمتين ما أن يتلاقيا حتى يبدأ الرعد والبرق، بين الفينة والأخرى كانت ذكريات أخيه تومض أمام ناظريه كفيلم سينمائي، اختلطت تلك الذكريات المريرة بذكريات قديمة انبعثت من عمق عقله، ظن أنه نساها ولم يعد يذكرها، صور وهم يلهون في حيهم القديم، صور وهو يرفع أخاه على ظهر البقرة، الركض وسط حقول البرسيم والقمح، ضرب أخيه وسط الشارع ومشاهدته له، التشوهات التي حدثت لوجهه والتي ارتكبها أبو الليل، توسلاته وهو يطلب من الزواج، ضربه المبرح له منتهيًا بدفنه أسفل تلك الشجرة، ضرب على فرع الشجرة بقوة وغيظ واهتزت وتساقطت منها بعض الأوراق.

مر الوقت ثقيلًا محملًا بذكريات لا يريد لها أن تعرض مرة أخرى، لم يكن يفكر سوى في شيءٍ واحد، هو قتل أبو الليل حتى لو سيكلفه الأمر حياته، لم يعد يهتم بحياته بعد الآن خصوصًا أنه مطمئن على أسرته التي ستكون في أمان بجوار صالح، يعلم أن صالح لن يترك حميدة في الشارع، سيوفر لها سكن وسيعتني بأبنائها أشد اعتناء، يعلم أن صالح لن يخيب ظنه، فجأة سمع جلبة داخل البيت، سمع أحد الصبية يهتف، سمع كلام لم يحتمل أن يسمعه، تصلبت أعصابه وتشنجت شرايينه زاد انفعاله وأوشك أن يقفز من فوق غصنه إلى داخل المنزل من خلال النافذة ليمسك بالصبي ويبرحه ضربًا عندما سمعه يقول: "كابوس قتل اخوه المجنون كابوس قتل اخوه..."، بعد لحظات سمع إحدى السيدات تنهر الصبي وتصرخ عليه.

انقطع صوت الصبي وساد الصمت، تأكد أن أحدهم كان يراقبه وأن الصوت الذي ظنه صوت حيوان كان صوت أحد رجال أبو الليل، حاول تهدئة نفسه وكظم غيظه وتوفير طاقته، أغمض عينيه للحظات ليتأمل ماذا سيفعل في أبو الليل الذي اقترب موعد حضوره، في مثل هذه الساعة يأخذ قيلولة ليريح جسده المنهك خاصةً ظهره وأحيانا يحضر دكتور العلاج الطبيعي ليدلك ظهره.

فتح عينيه على صوت أحدهم يقول لقد حضر أبو الليل، سمع صوت غليظ مبحوح، إنه صوت الرجل العجوز، مليجي.. ارتسمت أمامه ملامح وجهه البغيضة المقززة، الرجل الذي حُفرت في وجهه تجاعيد كأنها شارع غير مُعَبَد، وعيناه الغارقتان في وحل السكر، وشفتاه المتشققتان.

في بادئ الأمر لم تستطع أذنه التقاط ما كان يتحدث به مليجي الخبيث، ولكن بعد لحظات من اقتراب الصوت وهم يصعدون على الدرج الداخلي للبيت، كان مليجي يطلب من أبو الليل أن يعلن عن مكافأة لمن يحضر له خبر كابوس.

تابع عرض طلبه وقال:

- يا أبو الليل، لازم تكون في مكافأة على راس كابوس، خلاص انتهى وقته، والست ليلى أكيد هتحط عليه مكافأة، ليه متكونش المكافأة من نصيبنا.

فجأة انقطع صوت الخطوات وكابوس ما زال ينصت إلى المزاد الذي سيُعلن باسم روحه.

سمع صوت أبو الليل مكتوم كأنه مجروح وقال:

- في رأيك مين اللي هيكون خليفة كابوس يا غراب؟ أه، في بديل عنه؟

- يوه، متعدش يا أبو الليل، من بكره يكون عندك طوابير من الرجالة اللي أحسن من كابوس وأشجع منه، انت بس وافق وأنا أجبلك بدل الواحد ألف.

- مش هتلاقي أحسن من كابوس يا غراب، صدقني الواد ده أنا عارف عجينته كويس قوي.. صمت لبرهة وتابع: مكنتش متخيل إني هقتل اللي ربيته بإيدي، مش عارف اعمل إيه، اختار مين؟ ليلى ولا كابوس؟

- ليلى طبعًا.. حدق إليه بعينين ثاقبتين داميتين وتابع: أنا هعلن الخبر يا أبو الليل.

صمت..

قال مليجي:

- وبعدين انت لو باقي عليه مكنتش شوهت اخوه، ولا كنت بعت حد يتجسس عليه، انت كنت مستني الخبر على أحر من الجمر، قوي قلبك يا أبو الليل، وبعدين انت بتقارن الصعلوك بليلى، ليلى اللي لحم كتافنا من خيرها، دي هي سبب العيشة اللي احنا عايشنها، بص حواليك وشوف يا أبو الليل، متنساش ولي نعمتك، بلاش...

زعق به بصوتٍ جهوري ورمقه بنظرة كلها غضب على أثرها انكمش مليجي وتراجع للخلف:

- متنساش نفسك يا غراب، أنا اللي صنعتك وصنعت مجدها وصنعتكم كلكم، واسمي كان قبل ما حد يعرفها، اوعى تكلمني بالطريقة دي تاني؟

هز رأسه في أسفٍ وقال في مكر:

- أنا مش عاوز البوليس يمسك كابوس ويفتن علينا يا صاحبي، ساعتها كلنا هنتجرجر ونتمرمط، واحنا مش حمل سجون، الغضروف اللي في ضهرك هيطلع في مكان تاني، وبعدين...

- خلاص يا غراب، اعمل اللي انت عاوزه، بس قبل ما يطلع النهار عاوز خبره.

انصرف مليجي متحمسًا لقطف رأس كابوس.

تأججت النار في صدر كابوس بعد أن سمع هذا الحوار، وقرر أن يهدم المعبد على كل من بداخله وليكن ما يكون، وفجأة.. دون سابق إنذار وجد قدمه تدفعه ناحية النافذة، مد يده وأمسك بحافة النافذة بقوة، اندفع بقوة وخفه داخل البيت وانحنى وبدأ يسير بجوار الجدار متسترًا به، وصل إلى غرفة أبو الليل، الذي كان يدندن، تنفس ببطء وتحسس جيبه وتردد في إخراج السكين، طرق على الباب برفق.

سمع صوته الهامس:

- ادخلي.

دخل بسرعة وأغلق الباب خلفه، كان أبو الليل قد أدار ظهره للباب وخلع جلبابه وكان بالملابس الداخلية فقط، اقترب منه ببطء وحذر وسكينه في يده، كاد أن يسمع ضربات قلبه المستنفرة، بلع ريقه بصعوبة، نظر إلى يده للحظة كانت مرتعشة على غير العادة، وعندما دار أبو الليل إلى الخلف وجده يشهر السكين في وجهه، ففقد القدرة على الكلام، لم يستوعب عقله أنه سيُقتل على يد من رباه وانتشله من الشارع، امتقع وجهه وخارت قواه فجأة من هول النظرات المحملة بالغيظ والغضب والحزن العميق، يعلم تبعات تلك النظرات، اقترب منه كابوس بسرعة وغرس السكين في بطنه وعيناه تحدقان في عيني كابوس القاتمة القاسية، سمع شهقة قوية جافة صادرة من فمه، شد أبو الليل على كتفه وهمس في أذنه:

- هتفضل في قلبي يا خميس.

فرد عليه كابوس بنبرة صوت هامسة:

- فاكر لما قلت لي متبصش في عين اللي بتقتله.. فتح عينيه على آخرهما وتابع: بص في عيني يا أبو الليل، بص كويس، شايف إيه غير النار اللي ولعتها في قلبي.. ثم أمسك شعره بقوة وسحب رأسه إلى الخلف وقد سال الدم من فمه وحدق في عينيه وتابع حديثه: شوف عيني اللي هتشاركك مكانك في جهنم، كان نفسي أموتك خنق، بس انت عارف إن الدم بيستفزني أكتر، وانت خسارة فيك الموت بالطريقة اللي بحبها.

وسحب سكينه وغرسها مرة أخرى بعنف وقوة، صدرت شهقة أخرى قوية، ولف السكين داخل جسده وسحبها، ودفعه بعيدًا عنه فسقط على الأرض.

نظر إلى وجهه الذي طالما قبل جبينه، وإلى العينين اللتين ظن أنهما تحميانه وإلى اليد المرتعشة التي انتشلته من الشارع، كانت بقعة الدم تكبر على ملابسه البيضاء الداخلية، تركه وانصرف متوجهًا إلى مكان ينهي فيه حكايته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلس حسام وماهر ينتظران حضور الخادمة سيدة، لم يهدأ لهما بال حتى تحضر، قطع كل منهما مسافة لا تقل عن كيلومتر داخل الغرفة جيئة وذهابًا في أثناء انتظار سيدة.

حضرت فجلست.

- فيه إيه تاني يا بيه؟ مش خلصنا الحدوتة؟

- عاوزك تخرجي من بين الصور دي الستات اللي زاروكم ليلة موت فريدة، دليل براءتك هنا يا سيدة.. مسح شفتيه بطرفي أصابعه وتابع: ركزي كويس، انتِ لازم تخرجي وتربي ابنك، ركزي.

- دليل براءتي؟! قالت مستنكرة.

ألقى أمامها عددًا من الصور، حدقت إليه قبل أن تحدق إلى الصور وارتسمت ابتسامة لم يعلم تفسيرها ماهر، هل هي ابتسامة هازئة أم ابتسامة فرح؟ طلبت منه سيجارة، أشعلتها ورمقت حسام بنظرة ساخرة مصحوبة بمط شفتيها وعقد حاجبيها كأنها تقول: "انت مينفعش تشتغل في الداخلية"، نفخت نفسها في وجه ماهر وحدقت إلى الصور لتفرزها.. بعد كثير من التركيز.

صرخت وهي ممسكة بصورة ريم وقالت:

- دي، أيوه دي أم مناخير مهروسة والجرح اللي على خدها، خليها هنا.

التفت ماهر إلى حسام مبتسمًا كما لو كان غير مصدق ما يسمع وما يشاهد.

وأمسكت صورة أخرى ثم نحتها جانبًا، ثم تناولت الصورة الأخيرة وبعد أن تمعنت فيها قالت:

- الست دي اللي مسكت الفلوس من الست، بنت الكلب شمت الفلوس زي الشمامين.

اقترب حسام وسألها بصوتٍ غليظ:

- انتِ متأكدة من اللي بتقوليه؟

أجابته بنفورٍ وقالت:

- ليه شايفني بهجس ولا شايفني... وبعدين مين ده يا بيه؟ إيش دخله هنا؟

توجه ماهر إلى مكتبه وأمر بإحضار السيدتين، وتوجه حسام بدوره لإعداد تقريره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رغم أن ماهر كان مرهقًا إلا أن سرعان ما تبدل هذا الإرهاق بطاقة ونشاط، كان يتنظر حضور مريم على أحر من الجمر، لم يتأكد إذا كانت هذه القضايا ستكشف عن قضايا الاغتصاب أم لا؟ كل ما كان يفكر فيه لم يكن سوى احتمالات، لم يكن هناك شيءٌ قوي يربط القضايا بعضها ببعض سوى كابوس، ولكن في بعض القضايا لم يجد بصمة كابوس، ألا وهي اليد اليسرى، حتى لو لم يصل إلى حل قضايا

الاغتصاب يكفيه أن يحل قضية مقتل السيدة فريدة ويلقي بها أمام مديره الجبان الماكر المستفز، ولكنه يتمنى أن تُحل القضايا كلها وأن تكون مرتبطة.

دخل العسكري وخلفه مريم، كانت ترتدي بالطو أسود طويل يصل للركبة، وشال أبيض التف حول عنقها وشعرها تدلى من أسفل طاقية الصوف الأسود التي غطت أذنيها ونصف جبهتها، بهت لون وجهها الأسمر ما إن قرأت اللوحة النحاسية، وعيناها ذات الأهداب القصيرة خرج منها طيف ارتباك وحيرة. جلست وهي تحاول فك الوشاح عن رقبتها لتظهر عقد سميك من الذهب التف حول عنقها النحيل الأسمر، لمح ماهر طيف سكينة وهي تطل برأسها من خلال الباب.

أخذ ماهر يتفحصها بنظراته الثاقبة الحادة، كانت مضطربة أشد اضطراب والتشوش باديًا عليها والحيرة في عينيها ساكنة مسيطرة، تفقد وجهها وندبتها التي تعلو خدها وأنفها المكسور، كان محمد يجلس بجواره ويدون كل حرف.

- انتِ عارفه سبب وجودك هنا؟

- يمكن بسبب مخالفاتي المرورية الكثيرة، بس والله أنا مكانش قصدي أركن عربيتي صف تاني ولا تالت، بس الزحمة هنعمل إيه فيها؟ أنا مستعدة ادفع المخالفات اللي تؤمر بيها، ستي مستنياني مش عاوزاها تزعقلي، ممكن أروح وجوزي هيدفع، أصله عنده معارف كتير، مش هيغلب يعني...

ابتسم في استهزاء قاطعًا ثرثرتها:

- انتِ هنا مش عشان مخالفات ولا...

- خلاص، يبقي انتم غلطانين...

- "متقاطعنيش لما أقاطعك، فهماني ولا لا يا مريم؟ انتِ هنا عشان انتِ مشتركة في جريمة قتل الست فريدة، فكراها ولا لا؟

- أنا، أنا مقتلتش حد، صمتت لبرهة وبلعت ريقها وتابعت: أنا معرفش أصلا مين اللي انت بتكلم عليها؟ مين فريدة دي؟"

- زرتيها ليه ليلة ما ماتت؟

- أي ليلة؟ انت ليه مش عاوز تصدقني؟ رفعت كتفيها استنكارًا لما يحدث.

- مين اللي طلب الفلوس من فريدة؟

- أنا مطلبتش فلوس منها.

- ومين طلبه يا مريم؟ خليني اقولك على حاجة.. أشعل سيجارة وهو يحدق إليها وهي تنزع عن رأسها طاقيتها الصوف وكشفت عن شعر أسود مختلط بالشيب كما تختلط حبات الشاي بحبات السكر، وأخذت تمسح جبهتها ببطن يدها وأوضح: لو ساعدتينا في التحقيق أنا كمان ممكن أساعدك،

أنا بوعدك إنى أساعدك، بس بلاش لف ودوران علينا، الخادمة تعرفت عليكم كلكم، وفي رأيك احنا ليه جبناكِ انتِ وسكينة؟

صمتت للحظات ورفعت رأسها في توترٍ شديد وسألته بصوتٍ مرتجف:

- توعدني يا بيه إنك تساعدني؟

- وعد يا مريم، قوليلي وخليكي شجاعة وأنا أساعدك على قد ما أقدر.

- أنا معملتش أي حاجة يا بيه، ده أنا بخاف من الصرصار وبخاف من خيالي ازاي...

- كملي بس بالراحة، مش عاوزك تتوتري، ركزي، اتفقنا؟ خدي نفس وبلاش انفعال.

أطفأ سيجارته التي بلغت النصف وأشعل أخرى.

- في الليلة اللي ماتت فيها فريدة بعتتنا هند.. أقصد...

- مين هند؟

- ليلى هي هند يا بيه، بس غيرت اسمها في البطاقة.

رفع حاجبيه اندهاشًا.

- وطلبت مننا نشوف إذا كان في حد في البيت ولا لا؟

- بعتتكم ليه يا مريم؟

- والله ما اعرف... هما صحاب قوي...

- صحاب؟

- أيوه، كانوا صحاب، كان جوزها غنام صاحب جوز الست ليلى، كانوا صحاب وكان في واحد تاني معرفش مين هو.. صمت وشدت حلمة أذنها وتابعت: أعتقد اسمه مأمون، كانوا يسهروا مع بعض، كل ليلة تقريبًا، وممكن تتأكد من سكينة.

- من امتى وانتِ بتشتغلي عند ستك؟

- من زمان يا بيه.

- طول عمرك السكرتيرة بتاعتها ولا كان في حد قبلك؟

- لا لا مفيش حد قبلي خالص، أنا أول واحدة.

سكتت وطلبت كأس ماء، بعد لحظات كانت ترتشف من الماء ما يروي ظمأها..

- انتِ كنتِ شغاله إيه قبل ما تكوني سكرتيرة؟

- أنا... يعني... أصل أنا...

- أصل وفصل، قولي كنت شغاله إيه؟ فين المعجزة اللي في السؤال؟

- خدامة، كنت خدامة عند ليلى، أنا وجوزي وسكينة، كلنا كنا خدامين. وأجهشت في البكاء.

انتظر حتى أفاقت وسألها:

- وازاي تحولتِ من خدامة لسكرتيرة؟

- وعدتنا بعد ما نزور فريدة تغير هدومنا ونلبس أشيك هدوم، وأنا هكون السكرتيرة الخاصة ليها و...

قاطعها بهدوء:

- عرض مغري يا مريم، بس في رأيك إيه اللي يخليها تعمل معاكم كده؟

- مش عارفه، معرفش.

وضع يده على محمد دليل التوقف عن الكتابة وقال هامسًا:

- مريم، انتِ مش هتروحي أي مكان، بعد النهارده انتِ هيكون مكانك السجن، احنا لقينا الخزنة اللي اتسرقت في قصر ستك ليلى، يعني انتِ مشتركة في الجريمة، انتِ تسترتِ على جريمة مات بسببها ناس أبرياء.

- لا،لا مش ممكن، أنا ماليش أي دعوة، أكيد جوزها هو اللي قتلها، أنا مليش أي دعوة...

- مين هي؟

- جوز حميدة، كابوس، هو اللي قتلها، ده شغال مع هند أقصد زفت ليلى...

- مين كابوس؟ وإيش دخله بموت فريدة؟

- يا بيه...

وضع يده مره أخرى على محمد وقال:

- اقسم بربي يا مريم لو متكلمتيش والله لحطك في زنزانة كلها فران وصراصير، وعمرك ما تشوفي نور الشمس، قولي بسرعة عشان تخرجي بسرعة.

ضغط عليها حتى انفجرت كالقنبلة..

- طيب هقول، بس اخرج من هنا، أهم حاجة اخرج من هنا... في آخر فترة ظهرت خلافات بين فريدة وليلى، وكل اللي سمعناه إنه فريدة طردت ليلى من بيتها، بس إيه السبب والله ما اعرف، وفي الليلة اللي ماتت فيها فريدة طلبت منا ليلى نلبس أوسخ هدوم عندنا، زرناها، أنا كنت خايفة تتعرف علينا، بس هي متعرفتش علينا، يمكن عشان هدومنا أو عشان ريحتنا اللي كانت مقرفة، وخدنا الفلوس وبعدين وصلنا الخادم، سيد.. أيوه سيد، وأنا على الباب فاروق وراجل تاني معرفش اسمه...

- كملي وبعدين؟

أشعل سيجارة ونفث دخانها في الهواء في متعة وتلذذ واشتياق لمعرفة باقي الحكاية.

- وصلنا لقصرها وكان فاروق معانا، كان في راجل طويل واقف جنب هند، راح مع فاروق وفضلت حميدة مراته معانا للصبح، وعرفت إن اسمه خميس وبيقولوله كابوس.. صمتت وكانت تفرك يديها بشدة وتابعت وهي تمسح العرق عن جبينها بكم البلوزة: في نص الليل سمعت صوت هند وهي بتنادي علينا، بعد ما روحنا احنا الثلاثة، وقالت: "انتم أحرار، اعملوا اللي انتم عاوزينه، ومن بعدها مشفتش وش حميدة مرة تانية، وعرفت من جوزي إنه كل اللي احنا فيه سببه كابوس اللي قتل فريدة ومعاه واحد تاني.

- وليه مبلغتيش على الجريمة؟ في واحد بريء مات.

- يا بيه أنا ما صدقت اطلع على وش الدنيا واعيش يومين حلوين، بس والله حياة الخدم أهون عليا من الحياة المقرفة دي، أنا مش متعودة على حياة الأغنيا رغم إني كنت عايشة حياة الخدم بس بهدوم أنضف وبريحة أحلى، ياريت ينفع أغير من اللي حصل.

- الندم مبيمنعش العقاب ولا بيأجله.

فجأة دوى صوت صراخ أحدهم خارج المكتب، كانت الأصوات مرتفعة وتترد خارج الممر، نهض ماهر متسائلًا عن سبب الصراخ؟! فتح الباب وجد حسين يصرخ، تقدم نحوه حسين ودفعه بيده ودخل، منع ماهر العسكري من التدخل، نهضت من مكانها واحتضنته بسرعة، أغلق ماهر الباب خلفه وجلس خلف مكتبه ببرود واتزان، وحدق في حسين المشوش الهائج المنفعل، كان حسين كالمُطارد، كالحصان المذعور يتخبط ويلهث وعيناه حائرتان لم تستقرا على شيء، أحس بأن هناك خطب ما، لم يرَ الضوء للحظات، أحس كأنه يسقط في قاع بئر سحيق...

- فين الخزنة يا حسين؟

- أي خزنة اللي بتتكلم عليها؟ أنا مش فاهم حاجة؟

شرع في تعديل ملابسه وإعادة ربطة عنقه مكانها وجلس متفاخرًا.

- المدام قالت كل حاجة، فبلاش لف ودوران، من مصلحتك إنك تتعاون معانا.

طرق بيده بكل قوة على المكتب..

- عاوز المحامي بتاعي.

نهض ماهر وأمسكه من ياقة سترته وقال بنبرة كلها تهديد:

- أنا الوحيد اللي يضرب على مكتبي، انت فاهم؟ اقعد وجاوب بكل أدب وبلاش تعملهم علينا، احنا فاهمين انت مين وأصلك وفصلك، انتيل اقعد.

أشعل سيجارة في غضبٍ شديد وسأله:

- فين الخزنة يا حسين؟

- قبل ما تعرف فين الخزنة؟ انت عارف إن المدام اغتَصبت؟ حققت في الجريمة؟

أشاح بيده تجاه زوجته عدة مرات وكانت ناقصة إصبع.

قطب ماهر حاجبيه: "مش ممكن، مستحيل؟ معقول تكون انت اللي اغتصبت البنات؟" ابتسم في مكر.. "ليلتنا فل ".

- رد بهدوء: انت قدمت شكوى؟ ولا عاوز تغير الموضوع؟

تقدمت على حافة كرسيها في توتر وتشوش إلى زوجها وحاولت إغلاق فمه بيدها المرتعشة الهزيلة، ولكنها بذاك الطلب زادته إصرارًا وعنادًا وإقدامًا على إكمال قصته، ورفع يده ودفعها بعيدًا عنه وقال موجهًا كلامه إلى ماهر:

- مات غنام وفريد، والتالت معرفش عنه أي حاجة، يمكن ربنا خده عنده، مش عارف.

- غنام مات، وفريد مات، والتالت أكيد مات، يعني حتى لو قدمت شكوى مش هيكون ليها أي لازمة، وده إيه علاقته بالموضوع؟

- ده هو الموضوع يا بيه.

كان متحمسًا وفي كامل حيويته، بعد أن بدأت الأمور تتكشف له رويدًا رويدًا، وأعاد ماهر ما قالته مريم، وأضاف أن هند بدلت اسمها إلى ليلى بعد وفاة زوجها، كأنها كانت تنتظر وفاته أو أنها هي من دبرت حادثة قتله.

- وده ليه علاقة بموت فريد؟

رفع رأسه حسين الكالح وقال في أسى وعيناه تحدقان إلى زوجته التي كشفت صفيحة وجهها عن موت يغشاها:

- مراتي اغتصبوها قدام عيني، مقدرتش اعمل أي حاجة، اعمل إيه قصاد فريد وغنام، مين يقدر يعملهم حاجة مين يقدر عليهم غير ربنا، بشوف في عنيها الزعل والهم، بحس بالضعف، صراخها لسه بسمعه وأحيانا بشوفها في حلمي وهي بتُغتصب، كنت بسكر كل ليلة عشان مشوفش الكوابيس تاني...

قاطعه ماهر وأخذ يضغطه رويدًا رويدًا كالبالون وينتظر انفجاره وسأله مرة أخرى:

- واللي حصل معاها ليه علاقة بموت فريد؟

تابع حديثه:

- شربت كل أنواع الحبوب والمسكنات وكل أنواع المخدرات شربتها عشان أنسى، بس مكنتش بقدر أنسى، كنت مكسور في عينيها، مقدرتش أقرب منها، انت متعرفش النكد اللي عشته ولا الأيام السودة اللي عيشتها، كنت خدام ضعيف لحد ما خلت عندي قيمة ستي هند...

- واللي حصل معاها ليه علاقة بموت فريد؟

- أيوه أيوه أيوه، انفجر كالبالون مدويًا وخرجت كلماته من بين فكيه مشتعلة لتحرق كل عالمه، أنا اللي قتلت فريد أنا والست هند، أيوه قتلته بإيدي دول، قتلته قتلته وهو راجع من شغله، عاوز تعرف إيه كمان؟ اقولك، أنا اللي اغتصبت كل قرايب فريدة وقرايب غنام حتى حفيدته اغتصبتها وكنت هموتها.

مسد ماهر شاربه محاولًا مداراة غضبه وأشعل سيجارة في غيظ واستفزاز، ثم فجأة في أثناء تحديق حسين إلى زوجته قامت من مكانها وصفعته بقوة ثم بصقت على وجهه، قالت وهي تلوح بيدها في وجهه:

- انت كنت في نظري كل حاجة... دلوقتِ انت ولا حاجة. وانصرفت خارجًا منتظرة بجوار سكينة.

باغته بسؤال مستغلًا انهياره:

- مين اشترك معاك في قتل فريد؟

ظل للحظات صامتًا يحدق إلى المقعد الذي كانت زوجته جالسة عليه، انهار عالمه، بعد تلك الخطوة لم يعد لديه شيء يراهن عليه ليخسره، وتنهد وأخذ يتحدث كأنه ينظر إلى ورقة يقرأ منها:

- بعد اجتماع بيني وبين هند، طلبت مني أقتل فريد، وحاولت تقنعني وقالتلي إنها هتديني مبلغ كبير، بس أنا رفضت طلبها، وبعدين بعتتني أنا وكابوس وفاروق عشان تشجعني، استنينا في الطريق اللي بيودي على القصر، وهناك موتناه.. رفع يده ونظر إلى الإبهام المقطوع وتابع: لما حاولت اخنقه عض صباعي وقطعه، احنا التلاتة اشتركنا في موته كله من تحت راس هند، وفضل السر بينا لحد اللحظة...

الخزنة اللي اتسرقت من بيت فريدة، راحت فين؟

رفع رأسه مغتاظًا وقال:

- انت ليه بتفضل تقاطعني يا ماهر؟

اقترب ماهر برأسه إلى الأمام منه وحدق إليه بغضبٍ شديد وقال:

- اسمي ماهر بيه، واقاطعك وقت ما احب.. عاد برأسه إلى وضعيته السابقة وسأله مرة أخرى: الخزنة راحت فين؟

تنهد حسين في وجع وقال:

- موجودة في قصرها.

- فين؟

- في شنطة عربية موجودة في الجراج.

- كويس جدًا، دلوقت خلينا في المفيد.. وحدق إليه بعينين مليئتين بالكره والحقد والاشمئزاز وسأله: بخصوص الاغتصاب؟

- أنا عمري ما فكرت في اغتصاب حد بس الست...

قاطعه وهو يلوح له بيده في الهواء وقال:

- بلاش تفضل تقولي الست الست، هي أم كلثوم؟

- زي ما تحب، حاضر، بعد ما كانت تحس إني تحت تأثير الكحول وإني خدت الجرعة بتاعتي من المخدرات وتتأكد إني وصلت لحد التوهان، كانت تهمس في وداني وتحرضني وترجع شريط الذكريات القديم، شريط اغتصاب مراتي، وتوريني صورها وهي بتعيط وهدومها متقطعة، كانت بتفضل تفكرني بالتار، كنت أفور زي البركان تحت وسواسها، كانت ترسم الطريق وتقول لي بس عليك التنفيذ، كانت عارفه اللي هي عوزاه، كنت بعد كل مرة اغتصب فيها حد كانت ترش علينا الفلوس زي المطر؟

- ليه كل قضايا الاغتصاب في نفس التاريخ؟

- عشان مراتي اغتُصبت في نفس التاريخ ده، وكانت هند تفضل تمهد قبل التاريخ بفترة عشان أكون خلاص استويت، كانت تقولي انت لازم تغتصبهم عشان وجعك يخف وتجيب حق مراتك.

- وجبت حق مراتك يا حسين؟

عاد برأسه للخلف وقال:

- لا مجبتش حق مراتي.. وأجهش في البكاء.

- طيب خلاص، انت هتنوح، راحت عليك خلاص، وفر طاقتك وجاوب، ليه طلبت منكم اغتصاب مهجة؟

- مش عارف يا بيه.

- مين كان معاك يوم الحادثة؟

- أنا، وفاروق، وإبراهيم؟

- وفين إبراهيم؟

- مات.. قتله فاروق، عشان هو كلامه كتير وكان هيكشفنا أكتر من مرة.. شهق عدة مرات متتابعة ومسح بقايا دموعه بكف يده وتابع: سمعتها وهي بتطلب من فاروق إنه يموته.

- وفين فاروق؟

- مش عارف.

- تعرف حد اسمه "عبد الكريم سالم"؟

أخذ يحك ذقنه ويكرر الاسم وقال بعد صمت دام للحظات:

- معرفش عنه أي حاجة، بس اعتقد إني قريت عنه في الجرنان، مش ده رجل الأعمال اللي لقوه مقتول في شقته مخنوق؟ صح كده؟

- ذاكرتك قوية، مين اللي قتله؟

- مات بتعليمات من ليلى، كابوس نفذ الجريمة، طالما في خنق يبقى في كابوس.

رن ماهر الجرس فدخل العسكري وأمره بأخذه هو ومريم إلى السجن.

- عاوز اخد استراحة يا محمد، راسي هيتفرتك، فين إسماعيل؟

- مع امه.

تطلع إليه ماهر بطرف عينيه وسأله:

- مين قال لك إنه مع أمه؟

- سمير بيراقبها يا باشا؟

- ويراقبها ليه؟

- أمه هي ليلى يا باشا، هو الجاسوس اللي كان بينقلها كل الأخبار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

21

بعد قضاء ليلى لأمسية رائعة مع اللواء أدهم في أحد المراكب العائمة الفارهة، ودعها بقبلات حارة وبحضنٍ دافئ، وتركها عائدًا إلى منزله.

نظرت إلى ساعتها الذهبية، اندهشت بسرعة مرور الوقت، كانت الساعة تقترب من الواحدة بعد منتصف الليل، قررت أن تذهب إلى قصرها لتستريح، جلست في الخلف بعدما فتح لها السائق عطا الباب، انطلقت بها السيارة تشق شوارع المدينة المتلألئة.

أسندت رأسها على مسند الكرسي، بينما هي تنظر إلى مصابيح الشوارع المعلقة التي انطفأت فجأة انتابها شعور غريب، شعور بالغربة والتيه، شعور بالفقد، أغمضت عينيها، شعرت بالظلام يطوف حولها، يتغلغل في قلبها، لم ترَ شيئًا سوى الظلام، حاولت أن تفتح عينيها ولكن شيئًا ما منعها، شيئًا قويًا، شعرت بضيق وثقل على صدرها، وكأن الهواء انقطع من الوجود، وقف السائق على إشارة المرور، فتحت عينيها على وقع طرقات على نافذتها، كان رجل دميم، وشعره متناثر فوق رأسه كأنه عش غراب مهجور، فزعت وحدقت إليه للحظات وحاولت أن تسمع ما يقول، ففتحت النافذة قليلًا ولكن سرعان ما أغلقتها بخوف بعدما سمعته يقول: "اقتربت الشمس من رؤوس العباد"، تعكر مزاجها وتجهم وجهها، انطلق السائق مسرعًا بعد صرخة أصمت آذانه.

تمتمت بصوتٍ يكاد يكون مسموع وقالت: "أكيد دلوقت كابوس موت اخوه، أو يمكن يكون اخوه هو اللي موته؟"، ابتسمت باحتقار وخبث وشردت بخيالها وبدأت تفكر في البلدان التي ترغب في زيارتها، فكرت في لبنان أو في أي بلد أوروبي، "هروح مع مين؟"، لمعت عيناها وغمغمت: "أكيد طبعًا إسماعيل صاحب النصيب"، همس السائق وقال:

- أوامرك يا هانم؟

- مفيش حاجة.

السيارة أمام باب قصرها، دخلت وأخذت تصعد السلالم في تمايل وانتعاش، توجه نحوها الخادم وقال:

- يا هانم، بعد إذنك؟

ظلت تسير متجاهلة الخادم بكل كبرياء وغرور.

كرر الخادم طلبه وقال بصوت أكثر جرأة:

- يا هانم، في خبر مش حلو؟

- قول في إيه؟ مالك مش على بعضك؟! كتك القرف.

- السيد فاروق... اتصل... وكان...

صمت للحظات...

- ماله فاروق يا غبي؟ التفتت إليه في قلق.

- البوليس مسك فاروق.

أخذت تهبط السلالم بسرعة حتى أنها كادت أن تسقط، امتقع وجهها وأصابها الارتباك والتشوش والضياع سألته في نرفزة شديدة:

- انت متأكد من اللي بتقوله؟

- ومريم، وسكينة، وحسين في قسم الشرطة.

توقفت للحظات تحدق إليه في ذهول وروع وتيه، عبس وجهها وتهدل جفنيها وتقوس كتفيها ومالت إلى الأمام في خنوع واقتربت من المقعد وجلست في شرود، تناولت التليفون من فوق الطاولة الرخامية ووضعته في حضنها وأخذت تدير القرص وعيناها مصابتين بزغللة جعلت الأرقام تتداخل وسيطر عليها دوار خفيف، حشرت السماعة بين كتفها وأذنها وأنصتت بكل حواسها للطنين، وبعد الرنة الثانية قالت:

- أدهم...

- مالك في إيه؟

- البوليس قبض على حسين وفاروق، عاوزه اعرف إيه اللي بيحصل يا أدهم؟

- وفين إسماعيل؟

- في بيته أكيد؟

- خليه هو يتصرف، احنا حطناه هناك عشان يعرف كل حاجة بتحصل، الغبي.

- إسماعيل هيكون بره اللعبة، ملكش دعوة بيه، انت اتصرف.. كلم المدير كلم أي حد، اتصرف.

أغلقت التليفون بقوة في وجهه، اقترب منها الخادم وعرض عليها كأس ليمون ليهدئ أعصابها.

صرخت به وقالت:

- غور من وشي يا ابن الكلب.

طأطأ رأسه في انزعاج وانفعال، قذفها بأبشع الشتائم في سره.

حدقت إلى يديها التي أصابتهما البرودة واستحالتا بيضاء وأخذتا ترتعشان بقوة، بدأ عقلها يقفز من احتمال إلى آخر، كانت كل الاحتمالات سيئة، شكت في أن يكون قد باح أي من رجالها بأي شيء، حاولت إقناع نفسها بأن المحقق لا يملك أي شيء ضدها، ولو أن هناك شيئًا ضدها لاستدعاها إلى مكتبه، ولكنها لا تعلم أن ماهر قد أرسل قوة لإحضارها وإحضار الخزنة، اطمأنت للحظات، وشعرت بأنها في أمان ولن يستطيع أحد أن يتخلى عنها، خصوصًا أدهم حبيبها، نهضت مستنفرة منقبضة

الصدر، عندما سمعت طرقات ملحة قوية على بابها، تقدم الخادم مسرعًا وتوجه إلى الباب.. وعيناها مفتوحتين على آخرهما تراقب الباب بتوجسٍ وخيفة.

فتح الخادم الباب وثم دلف مليجي إلى الداخل وأخذ يصرخ بقوة وينادي:

- يا هانم، يا هانم...

- في إيه يا زفت انت؟

- قال وهو يلهث: أبو الليل... كابوس... قتله.

ضربت على صدرها من هول الصدمة، وانتابها دوار شديد، اختل توازنها لم تستطع تحمل الخبر المفزع، سحبها الخادم ومليجي نحو الأريكة، رغم برودة الجو إلا أن جبهتها كانت تتعرق بغزارة.

لمحت أضواء حمراء وزرقاء في الخارج، طافت بها الدنيا، كانت الأضواء تقترب من الباب، فجأة وجدت ضابط يقف أمامها، لم تكن تسمع ما يقول بسبب الطنين القوي في أذنيها، شعرت وأن قنبلة القيت عليها أفقدتها سمعها، أفقدتها تركيزها، لم تكن تشعر بمن حولها، كان جسدها يابسًا ومتصلبًا لا يقوى على الحركة، اقترب منها الضابط ولوح بيده أمام عينيها، نظرت إليه باستسلام ومذلة، أيقنت أن كل شيء حولها انهار، نهضت دون وعي ونظرت إلى يد الضابط، كان ممسكًا بالقيود، مدت يدها كأنها في كابوس، تابعت الحلقة الحديدية وهي تلتف حول يدها في صمت وامتثال وخنوع.

رن تليفون البيت نظرت خلفها تحدق إليه. تمتمت: "فات الوقت!

دفعها الضابط إلى مؤخرة البوكس، جلست بجوار مليجي، أفاقت من صدمتها عندما رأت السيارة تتحرك والعساكر يحجبون عنها الرؤية.

قالت وهو تبحلق في وجه مليجي:

- طول عمرك نفسك تقعد جنبي... انبسط يا غراب، ربنا حققلك حلمك.

- كلنا هننبسط في السجن يا ليلى هانم... قصدي هند.

قبل أن تنعطف سيارة الشرطة سرقت نظرة أخيرة من بين أجساد العساكر وتنهدت في حسرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان كابوس يقف أمام المبني يحدق إليه، يتأمل ماذا يمكن أن يحدث داخله، ولكنه جاء لينهي ما بدأه، جاء ليريح ضميره من العذاب، ليريح عقله من تلك الأعين التي تطارده أينما ذهب، ومن الأرواح المتعلقة في عنقه وتخنقه ومن أولئك الذين ماتوا على ضفاف الشوارع بسبب جرعة زائدة من المخدرات. كان مجبرًا ليخوض هذه التجربة المريرة التي جعلت منه مشردًا مطاردًا لا ينعم بحياة هادئة رغم كل الأموال التي كان يمتلكها، تمتم مكرر كلمات زوجته: "السعادة محدش يشتريها بالمال، راحة البال هي السعادة والبعد عن الشرور والبعد عن دعاء المظلوم"، صدقت حميدة.. لقد ظلم زوجته ووعدها بحياة كريمة هادئة بعيدة عن المتاعب ولكنه لم يفي بوعده، في قرارة نفسه فهو

خائن للعهود والخائن في قاموسه لا يمكن أن يكون له أصدقاء ولا عائلة ولا حتى كلب ضال يستأنس به، تمنى لو كانت حياته خالية من زهق الأرواح والإتجار في المخدرات، كل ما ارتكبه من فظائع كان تحت التهديد والوعيد، استغلوا كل شيء في حياته لينفذ ما يريدون، شوهوا وجه أخيه وعذبوا زوجته، وأطفاله لم تستقبلهم أي مدرسة، لذلك ابتعد عن المدينة واعتزل الناس، ولكنه كان يعلم أن عيني أبو الليل تطارده وتعلم أين مخابئه، لا بُد وأن زوجته في طريقها إلى صالح، كلما كان يقدم على تنفيذ أي مهمه كان قلبه يجزع ويخشى اكتشاف أمره، الآن هو مطمئن القلب هادئ البال، يعلم أين هو ذاهب، إلى طريق لا عودة منه، المشنقة في انتظاره، إن أقصر وأسرع طريق لإزاحة الهم والغم عن كاهله هو الاعتراف، لم يكن يتوقع هذه النهاية.

لأول مرة يشعر بالأمان والراحة والسلام..

تفقد السكين التي قتل بها كلًا من الطبيب وأبو الليل وأخفاها خلف ظهره وتقدم نحو المبنى بخطوات واثقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- أنا "فاروق علي محمد"، أقر وأعترف أنني قتلت البواب، وقتلت فريدة وشاركت في قتل السيد فريد زوج هند، كل شيء كان من تخطيطها".

لم يتوقع ماهر أن يكون الاعتراف بهذه السرعة وعندما سأله عن السبب أجاب:

- استنيت اللحظة دي من زمان يا بيه، كرهتها وكرهت عيشتها وتصرفاتها معانا، ست ربنا وحده يقدر عليها، منبتها حرام في حرام... كان نفسي اعترف بس مقدرتش، كنت خايف على مراتي وعلى ولادي، تفتكر إن ربنا هيسامحني يا بيه؟

- ربنا يسامحك على إيه ولا إيه؟ انت قتلت 3 أشخاص.. المنطق بيقول إنك تموت موتة قدام كل واحد انت قتلته، بس في الدنيا انت بتموت مرة واحدة وأنا كان نفسي اموتك ميت مرة، بس في الآخرة حسابك هيكون صعب، ده اللي مخفف عني.

- متزعلش نفسك، أنا استحق كل العذاب يا بيه، أنا ارتكبت كل الجرايم وأنا في وعي تام.

- مين اشترك معاك في جريمة فريدة؟

- ولا حد يا بيه.

- انت عاوز تحميه؟

- كنت لوحدي يا بيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

توقف العسكري أمام باب الزنزانة بكل ثقة وقوة، نادرًا ما كانت تقع بين يديه وبين يدي السجينات سيدة بهذه الأبهة والرقي، فلاقت الفخامة ما بين التوبيخ والاستهزاء الكثير والكثير من الإهانة التي لم

تحتملها، بسبب تعجرفها الذي حملته على وجهها وقرفها الظاهر على صفيحتها من المكان الذي تواجدت به والذي لم يكن محمودًا عند السجينات تلك النظرات التي رمقتهم بها فوجدت ما لا يسرها من معاملة، اقتربت منها سجينة تشبه إلى حد كبير البرميل في هيئتها وملامحها الخشبية الدميمة المخيفة وبسطوتها التي فرضتها على السجينات نزعت عن جسدها بالطو أسود من الجلد وخلعت من قدميها حذاءها ذا الكعب المرتفع، ورغم أن البالطو لم يكن في مقاس جسدها إلا إنها استخدمته كغطاء والحذاء ألقته لسجينة تحمل نفس المقاس تقريبًا، همست ليلى في أذنها خوفًا وتوسلًا من نظرات باقي السجينات التي كانت تشع حقدًا، قائلة: "أنا في عرضك"، منعت عنها هجومًا كاد أن يفقدها ملابسها وقايضتها بما كانت تحلمه في يديها من خواتم باهظة الثمن، ولما رفعت نظرها الدميمة إشارة منها لباقي الحلي لم تتوان ليلى عن خلعها، بعد تردد واضح هل تجلس على الأرضية القذرة أم لا؟ استسلمت لإرهاقها وجلست بمحاذاة الحائط البارد وعلى الأرضية الرطبة الوسخة، لم تكن تهتم لتلك الهمسات التي كانت تلتقطها أذنها، شكلها قضية آداب... يمكن مخدرات... يمكن... يمكن... صدر صوت احتكاك القفل بالباب وأزيز فتح ترباس صدئ، نهضت بعض السجينات واقتربن من الباب للبحث عن أمل في صوت السجان، ربما إفراج لإحداهن، ابتعدن ما أن صرخ بصوتٍ جهوري على ليلى، نهضت من فوق أرضية السجن في تكاسل وتراخٍ وهطلت على مسامعها: "مبروك.. إفراج يا هانم.. اللي زيك ميطولش في السجن! "الله أكبر.. ملحقتش تسخن أرضيتها"، سارت خلفه متثاقلة مرهقة، حافية تجر حسرتها وخيبتها، التفت خلفه وعندما لاحظ تقهقرها عنه أمسكها السجان من يدها اليسرى وبدأ يدفعها بشدة وعنف.

حاولت إقناع نفسها وبث الطمأنينة في صدرها بأنها مجرد أوقات عصيبة سرعان ما ستمضي وتعود إلى قصرها وإلى خدمها وإلى سريرها ووسادتها الريش وإلى غطائها الدافئ، توقفت أمام مكتب ماهر. نظرت إلى ثيابها، لم ينتظر العسكري ترتيب هندامها، دفعها بكل قوة إلى الداخل حتى كادت أن تتعثر.

توقفت أمام المكتب ذليلة خائبة تحاول لم شتات ما تبقى من كرامة.

أخذ ماهر يتفحصها من أسفل قدمها حتى رأسها، رأى مقدار الإهانة التي تعرضت لها في الحجز، التقطت ثيابها الأنيقة أتربة الأرض، حدق إلى عينيها الحمراوين اللتان كشفتا حقدًا وغلًا قابعًا داخلهما ينتظر الخروج ليعكر صفو الناس، كان وجهها يطفح خبثًا، لم يرتَح إلى وجهها الأقرب إلى وجه حيوان مفترس كشر عن أنيابه، للحظات ظن أنها سوف تنقض عليه بسبب نظراتها الشرسة.

أذن لها بالجلوس، جلست بكبر وغرور وحاولت إخفاء الذل والإهانة التي تعرضت لها داخل الحجز، وضعت قدمًا فوق الأخرى، كشفت عن قدمها العارية.

دون أن يحرك جسده، قال بتحدٍ وقسوة:

- نزلي رجلك يا ليلى... ليلى ولا هند... تختاري أنهي اسم فيهم؟

انزلت رجلها بتأففٍ وضيق ونظرت إليه وقالت:

- ناديني بليلى، أنا بحب الاسم ده أصل أنا شبه...

- أنا هقولك هند، الاسم الأصلي.. وبعدين مش اسم الست اللي أكلت كبد سيدنا حمزها اسمها هند برضو؟ في تقارب بينك وبينها، هي بتاكل الكبد وانت بتاكلي شرف البنات.

نظرت إليه شزرًا وقالت:

- ممكن أعرف أنا ليه هنا؟

سألته وهي تربت بطرف أصابعها على حافة المكتب في تحدٍ.

تركها للحظات قبل أن يجيب على سؤالها، تركها تفور وتغلي ويزداد غيظها وانفعالها، فجأة عاودت سؤالها وقالت بنبرة كلها جفاف وتحد:

- انت مش عارف أنا مين؟ أنا سيدة الأعمال ليلى...

رفع يده في الهواء فتوقفت عن الكلام في اندهاش، لم يعاملها أحد بهذا القدر من الاستخفاف، مال إلى محمد وهمس في أذنه، نهض مسرعًا.

حدقت إليه بقوة وتصدٍ، تمنت أن تضربه بمنفضة السجائر على رأسه، اصطنع ماهر انشغاله بالأوراق التي أمامه وتركها تصارع وتأكل نفسها، بعد هنيهة سمع ماهر صوت ارتطام في الخارج، دخل محمد واستعاد جلسته.

أسند ظهره إلى مقعده وحدق إليها وقال:

- انتِ هنا لأنك مشتركة في قتل زوجك السيد فريد، ومشتركة في قتل الست فريدة، اشش، مش لما أخلص كلامي انتِ تتكلمي، فاهمة؟ ومشتركة في التحريض على جرايم الاغتصاب، ومشتركة في قتل رجل الأعمال، والدكتور، وإبراهيم.

- اتهاماتك كلها باطلة ولا أساس لها من الصحة، انت مش عارف انت بتكلم مين...

ضرب ماهر بيده بقوة شديدة على المكتب وقال:

- أنا عارف انتِ مين، انتِ قتلتِ جوزك، قتلتِ فريد والدكتور، انتِ عشيقة اللوا أدهم، أكمل ولا تكملي انتِ؟

حدقت إليه بفم فارغ وبعينين هاربتين خائفتين من مواجهة الحقيقة، أحبطت واستسلمت، عندما سمعت اسم أدهم أيقنتْ أن ورقتها التي كانت تلوح بها سقطت كأورق الشجر في الخريف.

في ظل سكونها وصمتها باغتها ماهر بسؤال:

- ليه طلبتِ من فاروق يقتل فريدة؟

أسند ظهره إلى مقعده وأشعل سيجارة، وأخذ يداعب شاربه ويراقبها بانتعاش، يعلم أنها انهارت ولكنها ستقاوم حتى آخر رمق، ستحاول إلصاق التهم إلى غيرها ولكنها ستذعن في نهاية المطاف.

- أنا مطلبتش من حد يقتل أي حد.. رفعت عينيها المجروحتين الرطبتين وأوضحت: ازاي اقتل صاحبتي وحبيبتي.

تمتم ماهر: "الضربة اللي تموت بتيجي من الحبايب".

- أنا مصدق إنك مطلبتيش منهم يقتلوها، دول ناس سفاحين، بس انتِ طلبتِ منهم يسرقوا الخزنة، ليه؟

- أيوه بالظبط، مطلبتش منهم يقتلوها، كل همي بس الخزنة.

- إيه اللي كان في الخزنة؟

- كان فيها فلوس ومجوهرات.

- هو انتِ محتاجة فلوس ومجوهرات؟ انتِ مش محتاجة أي حاجة، بس الواضح إن كان فيها حاجة مهمة خليتك تخططي للخزنة، إيه هي الحاجة دي يا هند؟

- أنا روحت اطلب منها تسد ديون جوزها، وعرضت عليها الشيكات والكمبيالات اللي جوزها موقع عليها، بس هي مصدقتش الورق وكذبتني وطردتني من بيتها واتهمتني بالتزوير، وبعد فترة لما طلبت منها الفلوس مرة تانية قالتلي إنها كتبت كل أملاكها لحفيدتها، أنا لما عرفت عقلي طار... صمتت.

- ليه عقلك طار؟ وانتِ مالك تكتب أملاكها لأي حد هي عوزاه.

التفت إليه بوجهها الكاحل وقالت في غضب:

- ازاي تكتب أملاكها لمهجة بنت صالح، أنا اللي كنت لازم اتجوز صالح، أنا اللي كنت المفروض...

استغل انهيارها وسألها:

- ازاي أملاك جوزك اتنقلت ليكِ؟

مسحت دمعها وأجابت:

- في يوم كان سكران، وهو كان آخر فترة بيشرب كتير، وحسيت إنه هيضيع أملاكه على صحابه، فطلبت من المحامي إنه يجهز ورق تنازل منه عن أملاكه ليه، واستغليت سكره وخليته يبصم على ورق التنازل.

- جوزك مات ازاي؟

- حادثة عربية.

- يعني مش مقتول؟ أه.. أخذ يقلب قي أوراق اعتراف فاروق وحسين وتابع: حسين قال إنك طلبتِ منه هو وفاروق وكابوس انهم يقتلوا جوزك، إيه رأيك في الاتهام ده؟

- كدب، مش ممكن اطلب منهم يقتلوا جوزي حبيبي.

- يعني هما كدابين؟! أه.. طيب إيه حكاية اغتصاب مريم؟

- أيوه، حسين قتله عشان اغتصب مريم هو وفاروق وكابوس، أنا ماليش دعوة.

- مين اللي اغتصب مريم؟

- جوزي وغنام جوز فريدة وكان شاهد على جريمتهم مأمون.

- عشان كده طلبتِ منهم يقتلوه، وكل واحد خد مكافأة محترمة، صح كده؟ شوفي عشان نقصر الطريق على بعض، انتِ مدانة باعترافات حسين وفاروق.. صمت لبرهة وفكر قائلًا: وطبعًا كابوس هيعترف عليكِ.. متستغربيش يا هند، عشان كده قولي إيه اللي حصل؟

- أيوه، كل اللي قلته صح، أنا اللي طلبت منهم يقتلوا جوزي الندل.

- دي أول جريمة، طيب فريدة، مين اللي قتلها؟

- فاروق و...

سكتت، انقبض قلبها، أحست بسهم يخترق صدرها، لن تبلغ عن الشخص المشترك، في قرارة نفسها تتمنى أن تقتله بيدها، أن تغرس سهمًا في قلبه، ولكن عواطفها تكبلها وتمنع فمها بالنطق باسمه.

- ومين؟

- بس فاروق. طأطأت رأسها ومنعت سد دموعها من الانهيار.

- والدكتور، وإبراهيم، ورجل الأعمال؟

- معرفش.

- طيب إيه رأيك نجيب ابنك إسماعيل يحقق معاكِ، يمكن تعترفي قدامه.. شوفي يا هند، أنا بعاملك بكل احترام ومودة عشان خاطر ابنك إسماعيل، بلاش تبصيلي كده.. بخاف، انتِ مدانة مدانة، بس المشكلة إني بحب أكون صورة للمشهد كله لزوم الشغل، لكن كده كده أنا بحجز لك حبل المشنقة، ومش هيضر لو كملتِ اعترافك، ولا عاوزه إسماعيل يتطرد من الداخلية؟ اقولك ليه ممكن يتطرد.. عشان كانِ بيساعدك وبيسرب المعلومات المهمة اللي انتِ عاوزاها، المعلومات اللي تهمك، زي البواب مثلًا اللي رماه فاروق جنب الزبالة وزي السجان اللي موتوه، شوفي الواحد لازم يضحي عشان غيره يعيش في أمان، وانتِ ملكيش غير إسماعيل يعيش من بعدك، اتفضلي اعترفي.

حدقت فيه متسائلة، هل يعلم ابنها ما يحدث لها، هل يعلم أنها سبب في كل هذه المشاكل.

- أبوس إيدك بلاش يعرف إني كنت سبب في موت ابوه.

هز رأسه موافقًا..

- أنا طلبت منهم يقتلوا كل اللي انت قلت عليهم، الدكتور لأنه خاين، إبراهيم لأنه رغاي والرغي سبب المشاكل، كان بيهددني كل شوية إنه هيبلغ البوليس، كلهم أغبيا ورطوني، مكنتش متوقعة النهاية دي،

بس الأغبيا وقعوني، منكرش إني استفدت من أوجاعهم وعزفت عليها لحن انتقامي، أيوه ده اللي حصل.. رفعت عينيها تجاهه بكل وقاحة وتابعت: أنا بليدة معنديش مشاعر، ضميري ميت، أنا لو عشت مرة تانية مش هتردد في اللي أنا عملته.

- ليه بعتي حسين وإبراهيم وفاروق لاغتصاب...

قاطعته بتبجح وقالت:

- لاغتصاب مهجة؟ عشان أدب الرعب في قلب ابوها صالح، كنت عاوزه اشوفه بيتحسر على بنته، زي ما خلاني اتحسر على نفسي يوم ما اتجوز حياة.

مد يده إلى يد محمد الذي توقف عن الكتابة بدوره.

- انتِ كنتِ بتحبي صالح؟

أومأت.. سألها: انتِ لسه بتحبيه؟

تنهدت بألم وأسى وقالت:

- أيوه، وهفضل احبه لحد ما اموت.

- وحبك طاوعك إنك تكسري قلبه على بنته؟

صمتت ولم تجب على سؤاله، مد يده ليباشر محمد الكتابة.

- ازاي وصلتِ لرجل الأعمال؟

- عن طريق صديق في البنك "عثمان فؤاد"، عرض عليا نسبة مقابل العملية.

- وازاي عرف إن الفلوس مدخلتش البنك؟

- مش عارفه، أنا رفضت العملية بس كان مصر عليها خصوصًا لما ارتفعت نسبتي، بس هو عنده علاقات كتير، ممكن يكون عرف منهم إن الفلوس مش في البنك.

- طيب.

صرخ على العسكري، دخل مسرعًا، طلب من محمد مساعدته في إدخال الخزنة التي وجدها في منزلها، وضعها على الأرض بالقرب منها.

- إيه اللي كان في الخزنة يا هند؟

- كانت فاضية، كل فلوسها في البنك، وديعة باسم مهجة، وفي محامي يتابع موضوعها هيسلمها الفلوس لما توصل خامسة وعشرين.

- مين مأمون اللي كان...

- صاحبهم، أبو صالح، كان ساكن حارتنا، كلهم ماتوا.

طلب من العسكري أن يأخذها إلى الزنزانة، نهضت متثاقلة متراخية الأطراف، أشعل سيجارة ونفث زفيره بقوة وقال:

- مين اللي مش عاوزين يكشفوا عنه يا محمد؟ فاروق مش عاوز يقول ولا هند عاوزه تقول؟

- مش عارف يا بيه.

صمت وفكر.. وبعد دقائق قال:

- أنا عرفت يا محمد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

22

في تلك الليلة لم يذق يحيى طعمًا للنوم، شعر بغربة تدب في صدره، مرت كل ذكرياته أمامه، كانت ذكرياته عبارة عن أطياف أو عبارة عن نقطة مضيئة تتلاشى كلما مر عليها الوقت، ذكرياته تشكلت على شكل لوحة فنية سوداء قاتمة ولكنها ابيضت عندما سكنتها تلك الذكريات التي جمعته مع سوزان، كانت هذه الذكريات الوحيدة التي كان سعيدًا بها، تمنى أن تبقى بهيبتها وحلاوتها وجمالها، وأن تنزعه من كل ضيق يمر به، ظهرت له تلك الذكريات الجميلة مرتجفة مترددة حزينة وسط السواد، تباعدت وخرجت وانحلت ذكرياته من تلك اللوحة، تداخلت ألوانها كأنها غُمست في ماءٍ قذر، وأخذت تتناثر وتتشتت وتتمحي رويدًا رويدًا، لم يعد لها أي أصل في الحقيقة، مثل غيمة صيفية عاقرة عابرة، عادت إليه ذكرياته القديمة المغمسة بالمرار والألم.

في قرارة نفسه تمنى لو يعتذر ويتوسل عن تصرفاته التي خيب فيها ظنًا ومزق فيها روحًا، ولكنه يعلم أنه بتلك التوسلات سيسقط ما تبقى من كرامته وما تبقى من كيانه، وستؤثر بالسلب عليه لأنه سيجني منها الخيبة والهزيمة والذل.

خرج يحيى من باب العمارة متثاقلًا مرهقًا يحمل حقيبته في يده، توقف أمام الباب يودع الحي، يلقي عليه آخر نظرة، نظر إلى القهوة التي عمل بها قبل أن يعمل في ورشة صالح، وعلى البنايات والنوافذ التي كان يراقبها ليلًا، إلى شجرة التوت التي تسلقها مرارًا في صغره، إلى محل العطارة الذي سرق منه الفول والعدس والحلبة، إلى محل النجارة ودكان البقالة الذي سرق منه الكثير من المصاص، وقعت عيناه على الورشة التي خانها وباع أغلى ما تملك، الذكرى التي ورثها صالح عن والده، انتفض جسده وزاغ بصره عندما وجد ذلك الشخص الجديد يطرق على الحديد بمطرقته التي صنعها بنفسه، طأطأ رأسه وتابع خطاه في ذلٍ وهوان، وصل إلى السوق مر به ولم يشعر به أحد، حاول العثور على هلال، راقب عمة هلال من بعيد لعله يأتي عما قريب ولكنه انتظر ولم يظهر هلال، أراد أن يعتذر له عما بدر منه من سوء معاملة، أراد أن يترك ذكرى حسنة يتذكره بها من بعده، لم يكن يعلم إنه سيرحل كعابر سبيل، لم يعد ولن يعود إلى الحارة، فقد خان من جعل منه فنانًا في الحدادة وخان من فتحت له بيتها. خان جميع أهل الحي حتى إنه خان هلال عندما تكبر عليه، ما زاد غمه واستياءه وكآبته أنه لم يودعه أو يصافحه أحد من أهل الحي، كأنه خائن للوطن، قبل أن يصل إلى نهاية الطريق التفت وألقى نظرة الوداع على الحي، قبل أن يستقل سيارة الأجرة تمتم: "تصرفاتنا هي اللي بتفضل، كانت وحشة أو حلوة"، سيعيش مع الألم ولن يجرؤ على اقتلاعه.

بينما كان يحيى يودع الحي، كانت سوزان تطل من خلف الجدار، تودعه في صمتٍ وحسرة، أرادت أن تلقى عليه نظرة أخيرة، تمنت لو يلتفت، اغرورقت عيناها بالدموع، وظلت تتابعه حتى اختفى وسط زحام السوق، اختفى من أمامها ولكنه لم يختفِ من ذاكرتها المرتبكة المشوهة ولن تختفي تلك الليلة التي مزقت قلبها وشتتت عالمها وقتلت الحب في قلبها وأحرقت جسدها، كانت مشاعرها مختلطة ومشتعلة، اشتهت رائحته وغلظته وابتسامته وسكره، اشتهت تلك الليلة التي قضاها محدقًا إلى جسدها العاري، أرادت أن تركض خلفه ولكن كبرياءها منعها لا بل لجمها، أسندت رأسها إلى الجدار وانتحبت بألم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في السجن كان فاروق وحسين يجلسان متجاورين ويستندان على ظهر الجدار الرطب المتشقق، كانت الرائحة عطنة كريهة والحجرة فارغة باردة.

- هنا، تبدأ حياة وتنتهي حياة يا حسين.

- بس من غير إعدام.

- هنتعدم ومحدش هيدفنا، كله بسببها المغرورة، كانت فاكره نفسها بتملك العالم، انت عارف.. دي مرة قالت لي إن ربنا خلق العالم عشانها هي، عشان تعمل اللي هي عاوزاه، وأنا بكلمك ليه؟ اللي زيك ميفهمش غير في الأماكن الضيقة المبلولة، بس هقولك كل اللي كانت تقوله لما تسكر وتندب على بوزها، كانت تقولي: "أنا أكتر واحدة أنانية، أعيش لنفسي وبس، كل خطوة بعملها لازم يكون من وراها مصلحة كبيرة، هي دي أخلاقها، أخلاقها زي أخلاق العصابات، كل اللي حواليها يموتوا عشان هي تعيش في أبهة، انت عارف إن احنا بالنسبة ليها مجرد سلعة، تبيعك وتشتريك زي ما هي عاوزه، كانت فاكره إن انتقامها تحقيق للعدالة...

قاطعه حسين بحدة وقال:

- سيبك من كلامك الفاضي، كنت فين لما قبضوا علينا؟

- وانت مالك؟

- مش يمكن انت اللي بلغت علينا.

- مش بقولك، انت أخرك خرم ضيق أو سيجارة متفوفة من بق واحد معفن، بس أنا هقولك كنت فين.. كنت بكمل وعدي.

- وعد إيه؟

- كنت مع الراجل اللي ارتكبت معاه جريمة قتل فريدة.

- مين هو؟

- أخاف لو عرفت تبلغ عنه؟

- اوعدك بقبر امي وبقبر ابويا إني مش هبلغ؟

- بس تعرف فين أمك ومين ابوك يا عبيط.

- بلاش، يمكن لساني يفلت، انت قلت لهم مين اللي قتل صابر؟

- مش فارق معاهم صابر، كلب ومات.

ساد صمت عميق داخل تلك الجدران الشاهدة على الكثير من القصص، اقترب من فاروق وأسند رأسه على كتفه وأحس بلفحة حنان تغمره، لم يشعر بها من قبل، وقال:

- من زمان ما قعدناش مع بعض كده، من ساعة ما اتحولنا من خدام لرجال أعمال... ياه يا فاروق فاكر لما كنا في الشارع نجري من عم طوطح، لما كنا نسرق منه البلي ونسرق أكياس الترمس... فاكر لما كنا نجري ورا عربية البطاطا، أنا أسرق الخشب ويقوم الراجل يجري ورايا تروح انت وتسرق البطاطا... فاكر الغسيل اللي كنا بنسرقه ونقيفه على مقاسنا... فاكر بيت الحمام اللي سرقناه ومسكنا حسان العبيط أبو شخة اللي امه الداية، فاكر أمه اللي ولدت بنت الست فريدة، ويومها طلعت تلطم وتزعق ولمت الحارة كلها عليها واحنا سمعناها من فوق السطوح بتاع بيتهم وقالت حياة ماتت، اقولك إيه ولا إيه... مش لو فضلنا خدم كان أحسن.

- فاكر، بس الكلام ده بقاله أكتر من عشرين سنة، بس حياة ماتت ازاي؟ أنا ناسي يا حسين.

اعتدل حسين ورفع رأسه عن كتف فاروق وأجابه:

- مش يومها طلع حسان على صوت الصوات والزعيق ومسكنا واحنا بنحشي الزغاليل في عبنا وربطناه وسيبناه فوق السطح، وقبل ما ننزل دخلت هند وقعدت تلطم في نص الحوش وتولول، وانت طلبت مني نسنتى نشوف إيه الحكاية، وأنا قلت لك إنها زعلانه على موت حياة، ولما وصلت الداية قالت لها هند إنها مش مصدقة إنها موتتها، ويومها ضربتها الداية وطردتها من بيتها وقالت لها لو قلت لحد كلنا هنروح في ستين داهية، وقالت لها لو حد سألك انتِ بتعيطي ليه قولي لهم انك بتعيطي على موت حياة صاحبتك، ويومها نطينا من فوق السور ولو لسه فاكر بيتهم اللي عند الخرابة اللي بتطلع منه على الزقاق بتاع الحج غنام.

- أنا فاكر كل حاجة يا حسين، بس كنت عاوز افكرك إن من يوم ما عرفناها واحنا مخنوقين ونهايتنا زي نهايتها، لأننا من البداية خبينا على جريمتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان ماهر يجلس خلف مكتبة وحسام أمامه ينهي فنجانه ويهم للمغادرة، لاحظ ماهر على وجه أخيه علامات الاستياء والإنهاك والغضب الشديد، ماهر يستطيع أن يميز الحالات النفسية التي يمر بها حسام، من خلال نظراته وتصرفاته يستطيع أن يتوقع ما يدور في ذهنه من أفكار ومعارك تنعكس على وجهه، لم يكن حسام يملك القدرة على إخفاء تعابير وجهه أو أحاسيسه أو مشاعره، كان من السهل توقع ما يعكر صفوه.

طلب ماهر من محمد الخروج، وطلب من حسام الجلوس على الأريكة، توجه نحوه ماهر وهو يخرج سيجارتين، مد إحداهما على صديقه وسأله قبل أن يجلس بجواره:

- مالك زي المك الحزين؟

تنهد حسام وهو منكسًا رأسه كالجندي المهزوم وقال:

- مش عارف يا ماهر... رفع رأسه وحدق إلى الفراغ وتابع: حاسس إن احنا فتحنا على حالنا بوابة جهنم، كل ما غوصنا في القضية لاقينا ناس مكناش نتصور انهم ممكن يكونوا متورطين، انت عارف

أنا بفكر في إيه؟ أنا خايف من اللوا توفيق مدير المباحث يكون متورط معاهم في حاجة، تبقى كارثة، مصيبة...

قاطعه ماهر:

- مكنتش اعرف إن قلبك ضعيف يا حسام، انت عارف إن شغلنا مفيش فيه أي عواطف أو أحاسيس، انت بتتعامل مع مجرمين ولاد حرام، انت لازم تعرف إن شغلنا كله يعتمد على الأدلة، إذا في أدلة تدين توفيق في ناس هتحقق معاه.. أطفأ سيجارته في المنفضة وأضاف: انت لازم تأخذ كام يوم إجازة وتريح نفسك، احنا عيشنا يومين صعبين، انت ريح نفسك ومتقلقش، هبلغك بكل جديد.

- مش عاوزك تعاملني كأنك مش عارفني ومش عاوز نظراتك اللي كلها عطف، أنا مش بقول لك كده عشان تخفف عني... أنا مصدوم يا ماهر، القضية كلها ألغاز ومطبات وأنا متأكد إن احنا لو نبشنا هنلاقي حاجات كتيرة منعرفش عنها أي حاجة، انت ازاي ممكن تتحمل كل الضغط ده؟ أنا حاسس إن دماغي هتنفجر.. تنهد حسام بيأسٍ وإحباط وهم واقفًا وقال قبل أن يغادر: أنا هقدم طلب نقل...

قاطعة ماهر في غيظٍ واستنكار:

- انت مجنون، انت كده بتضييع كل تعبك، أنا مش هسمحلك تسيب المباحث، احنا الاثنين اشتغلنا شغل جامد، انت دلوقت في نظر الكل رجل قوي ومالي مكانك، سيب كل أفكارك المجنونة دي.

وضع يديه على أكرة الباب وقال:

- اسأل حسين إذا كان في أي شغل بينهم وبين اللوا توفيق؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقف حسام أمام دار الأيتام، خلف السور الحديدي يراقب الأطفال، يراقب ابتساماتهم البريئة الجميلة تحت أشعة الشمس الدافئة، وجوههم السعيدة الوديعة، يركضون ويصرخون يتقاذفون الكرة فيما بينهم، لم تكن بينهم ضغينة ولا مكائد، تردد في الدخول خوفًا من أن ينقل لهم عدوى الحزن واليأس، فجأة لمحه أحد الصبية من بعيد، راح يصرخ.. عم حسام، وأخذ يقفز في مكانه كأنه رأي النمر المقنع يقف أمامه.

تقدم نحوه وهو يبتسم ببراءة الأطفال، توجه نحو الباب مسرع الخطى فتح له البواب، فجأة وجد نفسه يقف وسط الساحة والصبية حوله يقفزون ويرددون اسمه عاليًا، تمنى لو يعود به الزمن إلى الوراء، إلى الزمن الخالي من المسؤولية، إلى زمن اللعب والركض هنا وهناك، زمن كانت كل حاجة فيه حلوة، ابتسم وأخذ يقفز معهم دون شعور، يقفز ويصرخ عاليًا دون وعي ولم يهتم لحركاته الصبيانية التي خرجت منه بلا إرادة، ضحك بصوتٍ عالٍ، أراد أن يخرج ما بداخله من كبت وضيق، بدأ يركض كالمجنون في الفناء والصبية خلفه يركضون ويهتفون، ولم يهتم لحديث العاملات في الدار، كل اهتمامه كان ينصب في كيفية وإمكانية تخلية عن كآبته، أخرج الطفل الذي بداخله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في صباح اليوم التالي كان إسماعيل يتمختر، ويسير بكل ثقة، يصعد الدرجات بمزاجٍ عالٍ وهمة، على غير عادته صافح العسكري الثابت على مدخل المبنى، ألقى التحية على كل من صادفه في الممر، تبادل الابتسامات مع من هم أعلى منه رتبة، وجهه يشع بهجة ونور، سهرة الأمس رفعت من معنوياته، عندما أخبرته والدته بأنها سوف تحضر له سيارة تليق بمكانته أمام الضباط، قبل أن يدخل إلى مكتب ماهر، قرر أن يتوجه إلى مديره كي يلقي عليه التحية.

جلس أمام المدير واضع قدم فوق الأخرى بتباهٍ.

لم يلاحظ حالة المدير المزرية، لم يلاحظ حدة مزاجه وعصبيته الزائدة، رفع نظرة إلى المدير وسأله:

- ازيك يا باشا؟

ابتسم بزاوية فمه بخبثٍ وقال:

- المفروض أنا اللي اسألك عن حال أمك؟

اهتز في جلسته وحدق إلى المدير وقال:

- مالها أمي؟

- أمك في السجن يا إسماعيل، طبعًا انت نايم في العسل وماهر كان بيحقق معاها في جرايم...

أنزل قدمه والتصق بظهر الكرسي كمن يعدم بالكهرباء وقال بتبجح:

- اللي زي امي مستحيل تدخل السجن، وتدخل السجن على إيه؟

- عندك حق، أمك كان عندها رجالة من الداخلية كان ممكن يعملوا داخلية تانية، بس هتعمل إيه، لما يقع الجمل لازم يقع معاه الجمال، قوم فز وشوف أمك مرمية في انهي زنزانة، بلاش أكمل باقي الحكاية.

احمر وجهه غضبًا، عض على شفتيه في شدة وقال:

- باشا؟ أنا كنت مع امي قبل كام ساعة.

- روح بلاش اتهمك في إفشاء أسرار العمل واتهمك بالتستر على ناس مجرمة، وأنا عارف مين اللي جابك عندي هنا، حبيب القلب طبعًا، أدهم؟ صح كده؟ روح يا ابني.

ظل للحظات جالسًا، شاخصًا ببصره في الفراغ، مضطرب الحواس، دمرت حياته ذات طابع الغرور المزيف الساذج، نهض مسرعًا منفعلًا، يسير بخطى متسارعة وسط الممر، منكسًا رأسه، يرتطم بهذا وذاك دون أدنى انتباه منه.

وصل إلى غرفة الحجز، حاول فتح الباب.

حضر له الحارس وقال له:

- ندي تعليمات مشددة ممنوع فتح باب الزنزانة لأي حد، ودي أوامر ماهر باشا.

صرخ في وجهه بقوة وسب ماهر، دفع الحارس من أمام البوابة، وأمسك بقضبان الحديد وأخذ يهز الباب بعنف، أطل بنظره إلى داخل الزنزانة، وجدها مستلقية على الأرض، متقوقعة، همس بحزن ومرار، ماما ماما.. كانت نائمة أو أنها اصطنعت النوم هروبًا من تلك اللحظة المرعبة التي طالما فكرت بها، وخوفًا على ابنها المدلل، كانت ممددة على بطانية سوداء ويدها أسفل رأسها وظهرها ملتصق بالحائط، ضرب على الباب بقوة، توسل إلى الحارس كي يفتح له الباب، تركه الحارس وانصرف، سقط أمام الباب وأخذ يبكي كالأطفال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان ماهر قد وصل إلى بيته مرهقًا، فتحت له مهجة الباب، كانت قد خرجت من المستشفى وبدأت في استعادة نشاطها وحيوتها.

- فين منى؟

- جوه، تعبانة شوية، منامتش طول الليل.

- تعالي.

تبعته في سكوت.

طرق الباب وتنحنح، فتح الباب بهدوء وأطل برأسه، تقدم نحوها بخطوات ثقيلة محبطة، ابتسم لها وقبل رأسها فرفعت رأسها بتثاقل وكسل.

سألته بصوت مرهق:

- كنت فين يا ماهر طول الليل؟ أنين متقطع وتابعت وهي تعض على شفتيها: طمني، حصل إيه معاك؟

- كل خير، انتِ ازيك؟

جلس بالقرب منها وأخذ يمسح على شعرها ويداعبه.

- مالك؟ بتعيطي ليه؟ سألتها مهجة.

- لا أبدًا مفيش حاجة، بس تعبانة شوية.

كانت مهجة تقف خلفهما تنتظر ماهر أن يتفوه بما يخفيه، كانت تنقل نظراتها بينه وبين منى.

تنحنح استعدادًا وقال:

- في خبر مش حلو يا...

قاطعته وهي تتحسس بطنها وقالت:

- عارفه اللي هتقوله يا ماهر، عارفه من فترة انهم يراقبوا ابويا.

سألها مندهشًا:

- انتِ تعرفي من امتى؟

- من شهرين تقريبًا، قالت لي صاحبتي علشان تعرف كام ظابط مكافحة المخدرات.

قالت مهجة في أسى:

- ربنا يصبرنا كلنا، أنا هعمل قهوة.

فاحت رائحة الكرب والنكد في المكان كما فاحت رائحة القهوة..

طبع قبلة على جبينها وانصرف ماهر إلى عمله لينهي بعض الملفات.

عادت مهجة حاملة صينية عليها فنجاني قهوة، وضعتها على الترابيزة واقتربت من منى التي كانت تحاول جاهدة منع دموعها من السيلان، اقتربت منها مهجة وجلست بجوارها على السرير بوجه ممتقع ووضعت يدها على كتفها وربتت عليها كحنان أم فقدتها منى في مثل هذه الأوقات، ولكن والدتها كانت في حاجة لمن يواسيها، واستها مهجة بقدر ما استطاعت، وأقنعتها بالخروج من البيت خاصةً أن الجو منعش في الخارج، نهضت وفتحت الستائر لتسمح لشعاع الشمس بالتسلل إلى داخل الغرفة التي سكنها ألم وضيق صدر منبعثان من سيدتين جميلتين تعكرت أجواءهما لما أصابهما، نهضت منى في كسل وتراخٍ وبدلت ملابسها.

توقفتا أمام مدخل العمارة للحظات، لفحتهم أشعة الشمس الدافئة وزرعت في صدورهما طاقة كانتا بحاجة إليها، أخذتا تسيران في الشارع متشابكتي الأيدي، كالأخوات.. لا بل كالصديقات، بعد عدة خطوات توقف تاكسي خرجت منه سيدة وتحمل بين يديها طفل وتجر خلفها ثلاث أولاد بملابس عتيقة بالية، ومن بعيد لمحت مهجة والدها منحنيًا يحاسب السائق، قبل أن تتقدم نحوه مهجة أوقفتها منى وتمتمت: "مش دي شبه الست اللي ماهر كان بيدور عليها".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

Table of Contents

إهداء
الجزء الأول
(Untitled)
1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
الجزء الثاني
11
12
13
14
الجزء الثالث
15
16
17
18
19
20
21
22